

أردنا بمناسبة اليوبيل الذهبي لإنشاء المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، وبعد خمسين عاما من الجهد الأمل الرامي إلى الحفاظ على واحد من أهم عمدہ ، مجلته الغراء ، تكريم هؤلاء الذين حولوا هذا الحلم الوعاد إلى واقع ملموس.

وإيماناً منا بالدور الذي قامت وتقوم به مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية باعتبارها نقطة وصل وتواصل بين المستغلين بالدراسات العربية من الإسبان والإسبانية من العرب ، نرى أنه بات علينا أن نستغل معطيات عصر التكنولوجيا لتخليد شهادات وأبحاث ثقافة الفكر والعلم من العرب والإسبان المدونة على ما يربو على ثلاثين ألف صفحة في ثلاثين مجلدا ، تراث ثُرٍ غائر الأعمق من الإبداع والدرس والبحث في ثمار واحدة من أهم الحضارات التي ورثتها البشرية: الحضارة الإسبانية العربية ...

إن هذا القرص، الذي تحمله بين يديك أيها القارئ الكريم، الذي يضم في ثنايا موجاته المغناطيسية كنزاً تراكم على مر خمسين عاما، يرتو إلى أن يكون احتفاء بالمستقبل وبالأجيال الجديدة التي تواصل مهمة إثراء هذا الكنز المعرفي الذي نهديه لك ولأنفسنا ولكل المعنين بالتراث العربي الأندلسي في هذا القرص الصغير في حجمه الكبير في معناه.

ولنا اعتنام هذه المناسبة لنعرب عن عميق امتناننا، وجزيل شكرنا لكل من شاركتنا وأسهم في هذا الجهد طوال السنوات الماضية .

أ.د. محمود السيد على

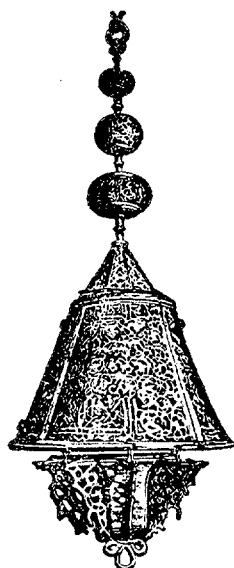
المستشار الثقافي لجمهورية مصر العربية

مدير المعهد المصري للدراسات الإسلامية

- مدرب في الثاني عشر من أكتوبر ١٩٩٩ -

مَجَلَّةُ الْمَعْهِدِ الْمُصْرِيِّ

لِلِّدَارَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي مَدْرِيدِ







مَجَلَّةُ الْمَعَهِدِ الْمُصْرِيِّ لِلِّدَارَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي مَدْرِيدِ

يصدرها المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد
رئيس التحرير : مدير المعهد

١٩٨٢ - ١٩٨١ مدريد

المجلد الحادى والعشرون

Francisco de Asís Méndez Casariego, 1. — Madrid - 2 - (España)

العنوان :

فهرس القسم العربي

تقديم للدكتور صلاح فضل مدير المعهد

البحوث والنصوص

الزهارات المنشورة في نكت الأخبار المأثورة للدكتور محمود على مكى	٥
الطرق الصوفية وأثرها في نشر الإسلام في الصحراء الكبرى للدكتور حسين مؤنس	٨١
من جديد حول التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية الإسلامية للدكتور السيد عبد العزيز سالم ..	١٣٣
الأهوانى . . رائد الدراسات الأندلسية للدكتور أحمد هيكل	١٤١

الكتب والأبحاث الجديدة

الكتب الجديدة للدكتور محمد عبد الحميد عيسى	١٥٧
الفنطرة	١٥٨
مدرسة الدراسات العربية بفرنطة	١٥٩
تغييرات شعرية «الأثر»	١٦١
التوايم والزوايم لابن شهيد	١٦٤
رومنيات الجدد	١٦٦
ابن بطوطة بالاسبانية	١٦٧
الحضارة العربية في الأندلس	١٦٨
تاريخ مدينة ألمونيا الأندلسية	١٧٢
تاريخ التعليم في الأندلس	١٧٥

طبع بطبعة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد
١٩٨٢

تقديم

يشرفني أن أقدم هذا العدد الواحد والعشرين من مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ، وهو عدد مهدي إلى روح فقيد الدراسات الأندلسية العالم الكبير المرحوم الدكتور عبد العزيز الأهواي (١٩١٥ - ١٩٨٠) تحيية تقدير لدوره الرائد في تأسيس هذا المعهد ، وتكوين مدرسة البحوث الأندلسية في المشرق العربي ، وتجيئ شباب الدارسين في المشرق والمغرب إلى العناية العلمية بهذا التراث الحضاري الراهن ، بيعشه وإحيائه وإنماء ما فيه من عناصر إيجابية ، واتخاذ موقف نقدى منه ، يفرض التعرف الكامل على جميع مكوناته ، ويستحضر معلم الحياة الواقعية التي أفرزته ، والمرحلة التاريخية التي تمخضت عنه ، ثم يلتفت ما فيه من ملامح إنسانية خالدة ، وقيم فنية وعلمية أصلية ، ويركز عليها الضوء ، فإذا بحث الماضي تعميقاً للوعي بالحاضر ، ومعرفة التراث شرط لبناء المستقبل ، وإذا التخصص في مجال الأندرسية أو غيرها من جوانب الحضارة العربية الإسلامية مدخل على رصين لتحمل مسئولية قومية معاصرة ، على مستوى فكري رفيع .

وقد كان الدكتور الأهواي نموذجاً للعالم الشامل ، تخسبه قد استغرق في حياة الأقدمين واستنفذ طاقته في صحبتهم ، واستجلاء عوالمهم ، وفك رموز لغتهم العلمية وإشاراتهم الثقافية ، وإعادة تكوين صورتهم التي تضج بالحياة

والحركة ، وإذا به يفجأ قارئه أو جليسه بلفتة ساخنة تنفذ إلى قلب الحاضر وتمسك بعروقه ، وعندئذ يتضح أنه لم يهرب من الإنسان إلى الكتاب ، ولم يستغن عن اليوم بالأمس ، ولم يدخل جهداً في تأصيل ما يرسخه من قيم خلقية وعلمية لدى من يلوذ به ؟ خاصة من الشباب الذي كان يرى فيه الأب الروحي للحقيقة ، والملجأ الآمن الرشيد الذي يختفي به من هجير مجتمعاتنا الطاردة . فقد كان صاحب مدرسة ورسالة ، عالماً وтелемاماً ، رجل فكر وحياة معاً .

وبنفس القدر والمم الذي تؤرقه به جملة لغوية متأنية ، أو تفعيلة عروضية شاردة ، أو رقة خطية مفقودة ، نجد بالغ القلق على مناضل عربي طريد ، أو باحث على حائر ، أو مسئول كبير لا يقدر خطورة المواقف المصيرية الجادة ، ونجد بالغ الحساسية لما ترف له قلوب الأجيال الجديدة ، وتعني به من قضايا ومشاكل ، فلم يصب بما يدرك الشيخ عادة من صمم عقلى ، لا تعنى عنه الآذان المشربة ، وتحجر فكري لا تجدى معه التطلعات المتوفزة ، بل ظل فتى الروح والقلب ، أعظم من الشباب قدرة على الحوار ، ورغبة في التعلم ، وجلا على الجدل ، وإدراكاً عميقاً لطبيعة الحداثة ومتضييات التجديد .

ولعل في بعض مواد هذا العدد التي خصصت للحديث عن شخصه وعمله من الباحثين الإسبان والعرب ، من عرفوه عن كتب ، وكتبوا عنه بمودة وحب خالص ، زهرات تفوح بعاطر ذكره ، وتؤدى بعض حقه على مرديه وأحبابه ورفاقه ، أما من أهدوا له بحوثهم وقدموا لذكريه أعمالهم ، فلهم منا موفور الشكر والثناء ، على إسهامهم الطيب ووفائهم النبيل .

وإذا كانت صفحات هذا المجلد قد ضاقت عن استيعاب بعض البحوث الأخرى التي يتوقع أصحابها أن يروها مطبوعة فيه ، واقتضت ضرورة المساعدة في إصداره إرجاعها إلى العدد القادم بمشيئة الله ، فإننا نرجوا أن يتمسوا لنا العذر ، ويظلوا معنا على صادق العهد ، ونأمل أن نتمكن في المستقبل القريب من ابعاث الطابع الحولي للمجلة ، بعد تحديث معدات الطباعة في المعهد ،

وتنفيذ برامجه الطموح في النشر ، وعندئذ تتمى أن تشهد هذه المجلة تطوراً لا يمكّن صياغتها العلمية المتخصصة ، ولا يخرج على منهاجها العريق ، ولا تقليدها المستقرة ، بل يستجيب لما تقتضيه ظروف البحث من متابعة لأهم الجهود العلمية في الوطن العربي وأوساط المستعربين ، بتخصيص أعداد تتوفّر على استقصاء جوانب الدراسات المستحدثة في كل فرع من فروع العلوم الأندلسية ، تصبح مرجعاً لها وعلامة عليها .

على أن يتم ذلك في نطاق الإطار العلمي الذي عرفت به المجلة ، والذي ضمن لها لوناً من الاستمرار والاستقرار ؟ بالرغم من العوامل المتغيرة التي كان يمكن أن تهدّدها ، وحسبها أنها توشك أن تكون المجلة العلمية الوحيدة التي يتداولها في معظم الأحيان رئيس تحرير جديد ، كل عدد أو عددين على أحسن تقدّير ، دون أن يصيّبها ذلك بخلل ولا شلل ، ودون أن يؤثّر بذلك على نجاحها ، فهي تستمد ثباتها من رسوخ رسالتها ، ووضوح نهجها ، وصلابة البنية العلمية وقوّة الالتزام القومي الناضج للبلد الذي يغذيها ؛ هذا البلد الأمين على تراث العروبة والإسلام ، الذي أنجب عبد العزيز الأهوازي وغيره من الأعلام وبناء النهضة العربية ، والذي يضطلع بمسؤولياته القومية والعالمية ، مهما كلفته من تضحيات في مختلف العصور .

ولا يسعنا في النهاية إلا أن نتقدم بأجمل الشكر لكل من تعاون معنا في هذا العدد التذكاري ، وبجدد الدعوة صادقين لجميع الباحثين في الحضارة العربية والإسلامية — خاصة في الأندلس — لمساهمة في الأعداد القادمة .

والله ولي التوفيق ؟

دكتور صلاح فضل

رئيس التحرير ومدير المعهد المصري
للدراسات الإسلامية بمدريid

الزهارات المنشورة في نكت الأخبار المأثورة

لابن سماك العامل

أبي القاسم محمد بن أبي العلاء محمد بن سماك المالقي الغرفاطي
(النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي)

(بقية ما نشر في المدح السابق)

الزهرة الخامسة والثلاثون :

[٦ ب] قيل لبعض الأسراء إنَّ شَيْبَ بنَ شَيْبَةَ^(١) يستعملُ الكلام ويستدعيه ولو أَمْرَتَهُ أَنْ يَصْعَدَ الْمِبَرَ فُجَاهَةً لافتضح . فأَسْرَ رَسُولًا فأخذَ بيده فصَعَدَ الْمِبَرَ ، فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَشْنَى عَلَيْهِ وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ^(٢) : لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَشْبَاهُ أَرْبَعَةَ^(٣) : الْأَسْدُ الْخَادِرُ ، وَالْبَحْرُ الْزَّاَخِرُ ، وَالقَمَرُ الْبَاهِرُ ، وَالرَّبِيعُ النَّاضِرُ^(٤) ؛ فَإِنَّمَا الْأَسْدُ الْخَادِرُ فَأَشَيْهُ صَوْلَاتَهُ وَمَضَاهَهُ ، وَإِنَّمَا الْبَحْرُ الْزَّاَخِرُ فَأَشَبَهُ جُودَهُ وَعَطَاهَهُ ، وَإِنَّمَا القَمَرُ الْبَاهِرُ فَأَشَبَهُ نُورَهُ وَضِيَاهَهُ ، وَإِنَّمَا الرَّبِيعُ النَّاضِرُ فَأَشَبَهُ حُسْنَتَهُ وَبَهَاءَهُ .

الزهرة السادسة والثلاثون :

كتب عليُّ بنُ عَيْسَى بنُ مَاهَانَ^(٥) إلى الرشيد يسعى بِيحيى بن خالد بن

(١) أبو معمر شبيب بن شيبة المنقري البصري قدم بغداد أيام أبي جعفر المنصور فاتصل به وابنه الخليفة المهدى وكان أئيًّا لديهما ، وتوفي سنة ١٦٢ (٧٧٩) وكان من أكبر الخطباء ، ترجم له الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (رقم ٤٨٣٦ / ٩—٢٧٤—٢٧٨) وأورد الجاحظ وابن عبد ربه كثيرةً من أخباره وخطبه وأوجوهه في البيان والتبيين والعقد الفريد (انظر فهرسي هذين الكتاين).

(٢) يبدو لنا أن هذه الخطبة متصلة مصنوعة ، فأسلوبها الذي يقلله السجع التكليف والمصنعة المفرطة لا يتفق مع ما أُمِرَّ عن خطب شبيب بن شيبة . هذا وإن كان الخبر المذكور هنا قد ورد أيضاً في العقد الفريد لابن عبد ربه (٤/١٣٦) وكذلك في نهاية الأربع لشهاب الدين التويري (٣/١٨٠).

(٣) في ١ : إنَّ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَشْبَاهُ أَرْبَعَةَ : فَنَهَا .

(٤) في ١ : الناظر .

(٥) على بن عيسى بن ماهان من كبار رجال الدولة منذ أيام الخليفة المهدى ، فقد ولد ديوان الجندي ، ثم ولد الرشيد على خراسان ، ثم قلده فارس ، وكان من حرس الرشيد على الإيقاع بالبرامة =

برمك وابنِيهِ الفضلِ وجعفر ، وكانت نحْتَهُ أَخْتُهُمَا ، فَرَمَى الرشيدُ بالكتابِ إلى جعفر ، وقال : أَحِبْهُ . فَكَتَبَ عَلَى ظَهَرِهِ^(١) : « حَفِظْكَ اللَّهُ يَا أَخِي وَحَبَّبَ إِلَيْكَ الْوَفَاءَ قَدْ أَبْغَضْتَهُ ، وَبَغَضَ إِلَيْكَ [الْفَدَرَ]^(٢) قَدْ أَحْبَبْتَهُ ، إِنَّ حُسْنَ الظُّنُونِ بِالْأَيَامِ دَاعِيَةُ الْغَيْرِ ، وَمَاحِيَةُ الْأَثْرِ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَنُ ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ ». .

الزهرة السابعة والثلاثون :

قال أبو العباسِ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ^(٣) وزِيرُ الْمُؤْمِنِ يَوْمًا لِشَامَةَ بْنَ أَشْرَسَ^(٤) وَقَدْ اخْرَفَ عَنْهُ : يَا نَمَامَةُ ، كُلُّ أَحَدٍ فِي الدَّارِ فَلِهِ عِنْدِي مَعْنَى

= على الرغم من صدوره إليهم ، وقام بعد ذلك بأمر الأمين الذي عقد له على كور الجبال ، وكان من حملوا الأمين على خلع أخيه المأمون ، وأخرجه الأمين لقتال طاهر بن الحسين في الحرب الأهلية الدائرة بين الأخوين فقتل سنة ١٩٥ (٨١١) . انظر في أخباره الجهشياري : الوزراء والكتاب في مواضع متفرقة ، وخصوصاً ص ٢٥٢ - ٢٥٤ و ٢٩٠ - ٢٩٤ ، وانظر في خبر مصرعه الطبرى : تاريخ ١ / ٧ — ٢٢

(١) أورد الجهشياري (الوزراء والكتاب من ٢٠٥) توقيعاً لجعفر بن يحيى على كتاب لعلى بن عيسى المذكور شديد الشبه بالتوصيم الوارد هنا ، يقول فيه : « حبِّبَ إِلَيْنَا الْوَفَاءُ الَّذِي أَبْغَضْتَهُ ، وَبَغَضَ إِلَيْكَ الْفَدَرَ ». وإنما أورد الجهشياري (الوزراء والكتاب من ٢٠٥) توقيعاً لجعفر بن يحيى على كتاب لعلى بن عيسى المذكور شديد الشبه بالتوصيم الوارد هنا ، يقول فيه : « حبِّبَ إِلَيْنَا الْوَفَاءُ الَّذِي أَبْغَضْتَهُ ، وَبَغَضَ إِلَيْكَ الْفَدَرَ ». وإنما

(٢) « الفدر » ساقطة من بـ .

(٣) أبو العباسِ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ المعروفُ بِالْأَحْوَلِ كَانَ كاتِبَ الْحَسْنِ بْنِ سَهْلٍ وَزِيرَ الْمُؤْمِنِ ، ثُمَّ رُفِضَ الْمُؤْمِنُ إِلَى وزارَتِهِ . وَتَوَفَّ سَنَةَ ٢١٠ (٨٢٥) . انظر في ترجمته الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ١٨٣ - ١٨٧ ، وابن الأبار : إعْتَابُ الْكِتَابِ ، تَحْقِيقُ الدَّكْتُورِ صَالِحِ الْأَشْتَرِ ، ط. دمشق ١٩٦١ ، ص ١٠٩ - ١١٣ ؛ وِدَائِرَةُ الْمَعَارِفِ الْإِسْلَامِيَّةُ ١٩١ - ١٩٢

(٤) أبو معن نَمَامَةَ بْنَ أَشْرَسَ التَّمِيرِيَّ كَانَ مِنْ زَعَمَاءِ الْمُعَزَّلَةِ فِي أَيَامِ الْمُؤْمِنِ وَالْمُعَصِّمِ وَالْوَاثِقِ ، وَقُتِلَ فِي عَهْدِ هَذَا الْأَخْدَرِ (بَيْنَ سَنَتَيْ ٢٢٧ وَ٢٣٢) . انظر في ترجمته الخطيب البهداوي : تاريخ بغداد ، رقم ٣٦٠١ (١٤٥/٧ - ١٤٨) ، ابن حجر العسقلاني : لسان الميزان ، حيدرabad ، ١٣٣٠ / ٢ ؛ والعقد الفريد في مواضع كثيرة ؛ ومن المراجع الحديثة : أَحْمَدُ أَمِينٌ : ضحى الإسلام ١٤٩ / ٣ - ١٥٥

غيركَ ! فقال [١٣١] له ثامة : معنائِي في الدار بَيْنَ واضحٍ واضحٌ . قال : وما هُوَ ؟ قال : لأشاورَ في أمرِكَ هل تصلحُ لموسيعكَ أم لا ، وأرجو ألاً أكونَ أخطأتُ فيكَ . فأفحِمَ ولم يَرُدَ جواباً^(١) .

الزهرة الثامنة والثلاثون :

كان سليمانُ بن عبد الملك بن مروانَ أيامَ أبيه وأخيه يكتب إلى الحجاج [١٧] بن يوسف في عناءٍ أو حاجةٍ داعيةٍ ، فلا يلتفت إلى كتابه ، ولا يعتذرُ إليه بجوابه ، إذ كان عظيمَ المهمةِ قوىَ النفسِ ، لا يهابُ بشراً صغيراً ولا كبيراً سوى من أمره . فأحفظَ سليمانَ وأجّجَ غشه ، فكتب إليه^(٢) : « من سليمانَ بن عبد الملك إلى الحجاج المعلم^(٣) ؛ أما بعد ؛ فإنك عبد أفسدتك النعمة ، وجراةَ الحلم ، مهموكَ عندك حجابُ الحق ، مستخفٌ بأوامر الله عز وجل ، مباعدٌ لرضاه ، متقرّبٌ بسخطِه ، مُتّبعٌ لهواكَ . وأيمُ الله لا بُدَّ لك من صيحةٍ مُردِّيةٍ تخلُّ بك ويسوه صباحُك ، ثم يكونُ مصيرك في الآخرة سوء المصير ».

فراجعتُ الحجاجَ : « أما بعد ؛ فقد وصلَ كتابُ الأمير بهتفر^(٤) صَيِّ حدثِ السن قليل التثبتِ ، ولعمري لقد عذرتُكَ في سوءِ أدبكِ لفسادِ

(١) جاء الخبر الوارد هنا بين أبي أحمد بن أبي خالد الوزير وثامة بن أشرس في أخبار بغداد ابن أبي الطاهر طيفور ص ٢٨ .

(٢) أورد ابن عبد ربه في ثانياً حديثه عن الحجاج رسالتين متبادلين بين سليمان بن عبد الملك وبينه تشبهان الرسائلتين الواردتين هنا وإن اختلف نصاهما . انظر العقد الفريد ٥ / ٤١ - ٤٣ .

(٣) ذكر متوجه الحجاج أنه كان معلم صبيان بالطائف ، وكذلك كان أبوه ، وبهذه المهنة هجاه مالك بن الريب التميمي في أبيات معروفة (انظر ابن عبد ربه : العقد الفريد ٥ / ١٣) .

(٤) غير واضحة في الأصلين ، ولعلها كما أثبتنا والمتفق هو الصوت الجافي العالى .

عقلك ، وحملتك لأننا كلنا خول أمير المؤمنين ، فكتبتَ والسلطان يمل على عليك ، والعزة بين عينيك ، ولطلا ذلتُ لكم الصعاب ، وأخضمت لكم الرقاب ، والسلام » .

الزهرة التاسعة والثلاثون :

كان الناس إذا أصبحوا في زمن الحجاج بن يوسف فتلاقوا يتساءلون : من قتل البارحة ؟ ومن صليب ؟ ومن جلد ؟ ومن قطع ؟ ... في أمثال ذلك ؛ كانوا في زمن الوليد بن عبد الملك يتساءلون عن البُنيان ، واتخاذ المصانع ، وشق الأهرار ، وغرس الأشجار ؛ وكانوا في زمن سليمان بن عبد الملك يتحدثون في الأطعمة الطيبة ، والملابس الرفيعة ، ويتوسمون في الأنكحة واتخاذ [١٣٢] السراري ، ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك ^(١) ؛ وكانوا في زمن عمر بن عبد العزيز يتساءلون : كم تحفظ من القرآن ؟ وكم وردتك في كل ليلة ؟ ومتى تختم ؟ وكم تصوم من الشهر ؟ ... في أمثال ذلك ، [٧ ب] بحسب الأزمان واختلاف السير ومؤلف العوائد .

الزهرة الأربعون :

أثي الخليفة أبو جعفر المنصور بعد الحميد بن يحيى الكاتب الشهير كاتب بنى أمية ، وسلام الحادى ، وبالعقلبى المؤذن ^(٢) ، فأسر بقتلهم ؛ فقال

(١) في ا : بذلك .

(٢) يذكر المبهشيارى أن أبا جعفر المنصور كثيراً ما كان يقول بعد إفشاء الأمر إلى بنى العباس : غلبنا بنو مروان بثلاثة أشياء : بالحجاج وبعد الحميد بن يحيى الكاتب والمؤذن العلبى . (انظر الوزراء والكتاب من ٨١) .

له سلام : استيقني يا أمير المؤمنين ، فإني حَسَنُ الْحَدَاءِ . قال : وما بَلَغَ من حَدَائِك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، تَأْمُرُ بِإِيمَانٍ ، فَتُظْهِرُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ثُمَّ تُوَرَّدُ عَلَى الْمَاءِ ، فَإِذَا بَدَأْتَ^(١) تَشْرُبُ رفعتُ صَوْتِي بِالْحَدَاءِ فَتَرَفَعُ رُؤُوسُهَا وَتَدْعُ الشَّرَبَ حَتَّى أَسْكَتَ ! فَأَمَرَ الْمُنْصُورَ بِإِيمَانٍ فَعُطَّشَتْ ثَلَاثَةَ ، ثُمَّ أُورِدَتِ الْمَاءَ^(٢) ، فَلَمَّا بَدَأْتَ تَشْرُبُ رفع صَوْتِهِ بِالْحَدَاءِ ، فَامْتَنَعَتْ مِنِ الشَّرَبِ حَتَّى سَكَتَ ؛ فَاسْتَبَقَاهُ وأَجَازَهُ وَأَجْرَى عَلَيْهِ رِزْقَهُ .

ثُمَّ قَالَ لِهِ الْبَعْلَبَكِيُّ : استيقني يا أمير المؤمنين . قال : وما عندك ؟ قال : أنا مُؤْذنٌ . قال : وما بَلَغَ مِنْ أَذْانِك ؟ قال : تَأْسِرُ جَارِيَةً فَتَقْدِمُ إِلَيْكَ طَسْتًا وَبِيَدِهَا إِبْرِيقٌ ، فَتَصْبِحُ عَلَى يَدِكَ الْمَاءُ ، وَأَبْتَدِيَ^(٣) بِالْأَذَانِ^(٤) ، فَتَدْهَشُ وَيَذْهَبُ عَقْلُهَا حَتَّى يَسْقُطَ الإِبْرِيقُ مِنْ يَدِهَا وَهِيَ لَا تَعْلَمُ . فَأَمْرَرَ عَنْدَ ذَلِكَ جَارِيَةً فَأَخْذَتِ إِبْرِيقًا وَطَسْتًا وَجَعَلَتْ تَصْبِحُ الْمَاءَ عَلَى يَدِهِ ، وَرَفَعَ الْبَعْلَبَكِيَّ صَوْتَهِ بِالْأَذَانِ ، فَبَقِيَتْ شَاخِصَةً مُسْتَمْعَةً لِصَوْتِهِ نَاسِيَةً لِمَا بِيَدِهَا^(٥) ؛ فَوَقَعَ الإِبْرِيقُ عَلَى الطَّسْتِ مِنْ يَدِهَا ، فَأَمْرَرَهَا بِالْأَنْصَافِ وَاسْتَبَقَاهُ وأَجَازَهُ .

وَأَمَّا الْكَاتِبُ عَبْدُ الْحَمِيدِ^(٦) فَاسْتَبَقَاهُ وَوَصَّلَهُ لِفَصَاحَةِ لِسَانِهِ وَشَهْرَتْهُ [١٣٣] فِي الْكِتَابَةِ وَتَبَرِّزَهُ فِي صَنَاعَتِهِ^(٧) .

(١) فِي الْأَصْلِينَ : بَدَتْ .

(٢) فِي اٰ : أُورِدَتْ عَلَى الْمَاءِ .

(٣) فِي اٰ : الْأَذَانِ .

(٤) فِي اٰ : بَيْنَ يَدِيهِا .

(٥) عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ يَحْيَىِ الْكَاتِبِ اَنْظُرْ فَصْلَ النَّىِ كَتَبَهُ عَنْهُ الدَّكْتُورُ شَوْقِيُّ ضَيْفُ فِي تَارِيَخِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ ، الْعَصْرِ الْإِسْلَامِيِّ ، الْطَّبِيعَةُ الرَّابِعَةُ ، دَارُ الْمَعَارِفِ ١٩٦٣ م ٤٧٣ وَالْمَرَاجِعُ المَذَكُورَةُ فِي الْحَاشِيَةِ .

(٦) مَا يَذَكُرُهُ صَاحِبُ الزَّهَرَاتِ هُنَا مِنْ اسْتَبَقَاءِ أَبِي جَعْفَرِ الْمُتَصُوْرِ لِعَبْدِ الْحَمِيدِ الْكَاتِبِ وَصَلَّهُ لَهُ يَخَالِفُ مَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْمُؤْرِخُونَ مِنْ أَنَّهُ قُتِلَ عَلَى عَهْدِ أَبِي الْعَبَّاسِ السَّفَاحِ بَعْدَ مَقْتَلِ مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ آخِرَ خَلْقَهُ بَنِي أَمْيَةَ بَقْلِيلٍ . وَيَذَكُرُ الْجَهْشَيَّارِيُّ فِي صَفَةِ مَصْرُعِهِ أَنَّ عَاصِرَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ السَّلَمِيَّ الَّذِي قُتِلَ = مَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ ظَفَرَ بِهِ خَمْلَهُ إِلَى السَّفَاحِ وَسَلَّمَهُ هَذَا إِلَى عَبْدِ الْجَبَارِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَكَانَ يَحْمِي =

الزهرة الحادية والأربعون :

كان معن بن زائدة^(١) قد أمر بقتل جماعة من الأسرى ، فقام إليه أصغر القوم ، فقال له : أهـا الأمـير ، أـتـقـلـ الـقـوـمـ عـطـاشـاـ ؟ فأـمـرـ لـهـ بـالـمـاءـ . فـلـمـ سـقـواـ قـالـ : أـنـقـلـ أـضـيـافـكـ ؟ فـأـمـرـ (٢) بـاطـلاقـهـمـ^(٣) .

الزهرة الثانية والأربعون :

سـيـقـ إـلـىـ الحـجـاجـ قـوـمـ مـنـ الـخـوارـجـ ، فـأـمـرـ بـضـربـ أـعـنـاقـهـمـ ، حـتـىـ اـنـتـهـىـ القـتـلـ فـيـهـمـ إـلـىـ شـابـ مـنـهـمـ ، فـقـالـ لـهـ : وـالـلـهـ يـاـ حـجـاجـ ، لـإـنـ كـنـاـ أـسـأـنـاـ فـيـ الذـنـبـ فـاـ أـحـسـنـ أـنـتـ فـيـ الـعـقـوـ ، فـصـادـفـ كـلـامـهـ مـنـهـ أـرـيـحـيـةـ ، فـقـالـ : أـفـ هـذـهـ الـجـيـفـ ؟ أـمـاـ كـانـ فـيـهـمـ مـنـ يـقـولـ مـشـلـ هـذـاـ ؟ وـأـمـرـ بـتـخـلـيـةـ سـيـلـهـ وـسـبـيلـ مـنـ بـقـىـ^(٤) .

= طستا ويضعه على رأسه فلم يزل يفعل به ذلك حتى قتله (انظر الوزراء والكتاب ص ٧٩) . ولو كان ما ذكره صاحب الزهرات صحيحاً لما فات ابن الأبار أن يذكره في كتاب «إعتاب الكتاب» الذي اختص به موضوع من أذنب من الكتاب ثم لحقته مغفرة مولاه أو مليكه ورضاه .

(١) أبو الوليد معن بن زائدة الشيباني أحد الفرسان الأجواد ، من مخترقي الدولتين الأموية والعباسية وكان من خواتم أصحاب أبي جعفر المنصور ، ولد العين وأذريجان ، وتوفي قتيلاً سنة ١٥٢ (٧٦٩) وهو وال على سجستان . انظر ترجمته في تاريخ بغداد ، رقم ٧٢٠٤ — ٢٣٥/١٣ — ٤٤٤ . وفي العقد الفريد مجموعة كبيرة من أخباره في مواضع متفرقة .

(٢) ينقطع النص بعد هذه الكلمة في نسخة ب ويل ذلك خرم طويل ذهب في الزهرات (٤٢ — ٧٤) ، وهكذا سيكون اعتمادنا في هذا الجزء من الكتاب على الأصل واحد . على أنسنا لاحظنا أن المقرئ قلل في كتابه فتح الطيب الزهرات ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٥ فاتخذنا منه في تلك الزهرات أصلاً ثانياً .

(٣) أتى بهذا الخبر ابن عبد ربه في العقد الفريد (١٢٥ / ١) وإن كانت ألفاظه مختلف قليلاً عمما ورد هنا .

(٤) في عيون الأخبار لابن قتيبة (١٠٣/١) خبر قريب من هذا وإن اختفت ألفاظه قليلاً .

الزهرة الثالثة والأربعون :

ثار على الخليفة عبد الرحمن بن معاوية الداخل للأندلس ثأر ببعض بلاده ، فغزاه ، فظفر به وأسره ، فبيّنا هو منصرف به وقد تحمل على بغل نظر إليه عبد الرحمن وتحته فرس له ، فقال : يا بغل ، ماذا تحمل من الشقاق والنفاق ؟ قال الثائر : يا فرس ، ماذا تحمل من العفو والرحمة ؟ فقال له عبد الرحمن : والله ما تذوق موتاً على يدي أبداً . وسرحه ^(١) .

الزهرة الرابعة والأربعون :

كان ^(٢) بقرطبة على عهد الحاكم المنصور محمد بن أبي عامر فتى من أهل الأدب ، قد رقت حاله في الطلب ، فتعلق بكتاب العمل ، واختلف إلى الخزانة مدة ، حتى قلد بعض الأعمال ، فاستهلك كثيراً من المال ، فلما ضمَّ إلى الحساب أُبْرِزَ عليه ثلاثة آلاف دينار ، فرفع خبره إلى المنصور ، فأمر بإحضاره ، [١٣٤] فلما مثل بين يديه ، ولزم الإقرار بما أُبْرِزَ عليه ، قال له : يا فاسق ، ما الذي جرأكَ على مال السلطانِ تنهبه ؟ فقال : قضاءَ غالب الرأي ، وفقر أفسد الأمانة . فقال المنصور : والله لأجعلنكَ نكلاً لغيرك . ليحضرَ كُنْبَلَ وَحَدَّادَ . فأحضرَا ، فكُبِّلَ الفتى وقال : احملوه إلى السجن . وأمر الضاغط ^(٣) بامتحانِه والشدة عليه . فلما قام أنساً يقول : [من السريع]

(١) ورد مثل هذا الخبر في البيان المغرب لابن عذاري المراكشي ٩٦/٢ ، وإن اختفت ألفاظه بعض الشيء .

(٢) ورد نص هذه الزهرة في فتح الطيب للمقرئ ٤١٨/١

(٣) في النفع : الصابط ، وهو تحريف عما أتيتنا ، ووردت الكلمة صحيحة في ١ ، وكانت «الضاغط» في الاصطلاح الأندلسي هو الملك تعتذيب الجناء أو المحبوسين . ونحن نعرف من هؤلاء الضاغطين بالذات واحداً كان في خدمة المنصور بن أبي عامر يدعى واثقاً ، وهو الذي كلفه المنصور بصب عذابه وتكميله على جعفر بن عثمان المصحفي (انظر ابن خاقان : مطعم الأنفس ص ٧) .

أَوَاهُ أَوَاهُ وَكِمْ^(١) ذَا أَرَى أَكْثَرُ مِنْ تَذَكَّرَ أَوَاهِ
مَا لَامِرِيٌّ حَولُّ وَلَا قُوَّةُ الْحَوْلُ وَالْقُوَّةُ لِلَّهِ

فقال المنصور : رُدُوه . فلما رُدَّ قال : أَتَعْثَلْتَ^(٢) أَمْ قلتَ ؟ قال :
بل^(٣) قلتُ . فقال : حُلُو عَنْهُ كَيْلَه . فلما حُلَّ عَنْهُ أَنْشَأَ يَقُولُ : [من السريع]
أَمَا تَرَى عَفْوَ أَبِي عَامِرٍ لَابْدَ أَنْ تَتَبَعَهُ مِنْهُ
كَذَلِكَ اللَّهُ إِذَا مَا عَفَّا عَنْ عَبْدِهِ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ^(٤)
فَأَسْرَ بِإِطْلَاقِهِ ، وَسَوَّغَهُ ذَلِكَ الْمَالَ ، وَأَبْرَأَهُ مِنَ التَّبِعَةِ فِيهِ .

الزهرة الخامسة والأربعون :

عِرْضَ^(٥) عَلَى الْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرِ اسْمُ أَحَدِ خَدَّامِهِ فِي جَمَلَةِ مِنْ طَالَ
سَجْنِهِ ، وَكَانَ شَدِيدَ الْحَقْدِ عَلَيْهِ ، فَوَقَعَ عَلَى اسْمِهِ بَأْنَ لَا سَبِيلَ إِلَى إِطْلَاقِهِ
حَتَّى يَلْحَقَ بِأُمِّهِ الْمَهْوِيَّةِ ، وَعَرَفَ الرَّجُلُ بِتَوْقِيقِهِ ، فَاغْتَمَّ ، وَأَجْهَدَ نَفْسَهُ فِي
الدُّعَاءِ وَالْمُنَاجَاهَةِ . فَأَرَقَ الْمَنْصُورُ بْنَ أَبِي عَامِرٍ عَلَى أَثْرِ ذَلِكَ ، وَاسْتَدْعَى النُّومَ ،
فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ . وَكَانَ يَأْتِيهِ عِنْدَ تَهْوِيمِهِ^(٦) آتٍ كَرِيمَهُ الشَّخْصِ عَنِيفُ الْأَخْذِ ،
يَأْمُرُهُ بِإِطْلَاقِ الرَّجُلِ ، وَيَتَوَعَّدُهُ عَلَى حَبْسِهِ . فَاسْتَدْفعَ شَانِهِ مِرَارًا ، إِلَى أَنْ

(١) في الأصل ١ : كم ، والتصويب عن النفح .

(٢) في الأصل : أَعْلَمْتُ ، والصواب ما ورد في النفح .

(٣) في الأصل : بل ، والتصويب عن النفح .

(٤) يروى ابن سام في النخبة عذين البيتين لأبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري (مم
خلاف طفيف في الرواية ، فقد جاء الشرط الأول من البيت الأول هكذا : «عجبت من عفو أبي عامر» ،
وذلك بعد أن صفع عنه المنصور بعد سجنه في مطبق الظاهر (انظر النخبة ق ٤ - ١ / ٣٢ . وانظر
كذلك ابن سعيد : الغرب ٣٢١/١ ؛ والمقرئ : فتح الطيب ٦٦/٤) .

(٥) ورد نسخ هذه الزهرة أيضاً عن المقرئ : فتح الطيب ٤١٩/١

(٦) في النفح «تَوْيِعَهُ» ، وهو تحريف عما أثبتنا ، ووردت الكلمة صحيحة في ١ ، والتهويم
هو النوم الخفيف أو أول النوم قبل الاستغرق فيه .

عَلِمَ أَنَّهُ نَذِيرٌ مِّنْ رَّبِّهِ ، فَانفَادَ لِأُمْرِهِ ، وَدَعَا بِالدُّوَّاَةِ فِي مَرْقَدِهِ . فَكَتَبَ يَاطِلاقَهُ ، وَقَالَ فِي كِتَابِهِ : هَذَا طَلِيقُ اللَّهِ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ . وَتَحْدَثَ النَّاسُ زَمَانًا بِمَا كَانَ مِنْهُ .

[135] الزهرة السادسة والأربعون :

لَا أُمِرَّ^(١) بِضَمِّ الْوَزِيرِ جَمْفُورِ بْنِ عَمَانَ الْمُضْحَفِيِّ إِلَى الثَّقَافِ بِمُطْبِقِ الزَّهْرَاءِ وَدَعَ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ وَدَاعَ الْفُرْقَةَ ، وَقَالَ : لَسْمَ تَرَوْنِي بَعْدَهَا حَيَا ، فَقَدْ أَتَى وَقْتٌ إِجَابَةَ الدَّعْوَةِ ، وَأَنَا أَرْتَقِبُهُ مِنْذَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَذَلِكَ أَتَى أَشْرَفَ عَلَى فَلَانِي ، رَجُلٌ سُجْنَ بِعِهْدِ النَّاصِرِ ، وَمَا أَطْلَقْتَهُ إِلَّا بِرُؤْيَا أَنْدِرْتُ بِهَا : قَيْلَ لِـ «أَطْلِقْ فَلَانًا فَقَدْ أَجِيَّبْتُ فِيكَ دُعَوْتُهُ» ، فَأَطْلَقْتَهُ وَأَخْضَرْتَهُ وَسَأَلْتَهُ ، فَقَالَ : نَعَمْ ، دَعَوْتُ عَلَى مَنْ شَارَكَ فِي أَمْرِي أَنْ يُمْبَيَّهَ اللَّهُ فِي أَضْيَقِ السَّجْنَوْنِ . فَعَلِمْتُ أَنَّهَا قَدْ أَجِيَّبْتُ . وَنَدِمْتُ بِحِيثُ لَا تُغْنِي النَّدَامَةُ . وَأَطْلَقْتُ الرَّجُلَ .

قَالُوا : فَمَا لَبِثَ فِي تَحْبِسَةِ إِلَّا قَلِيلًا ، وَأَخْرَجَ مَيِّتًا ، فَسُلِّمَ إِلَى أَهْلِهِ .

الزهرة السابعة والأربعون :

لَا أَوْقَعَ^(٢) الْمُؤْمِنُ بِالْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ^(٤) وَبَلَغَهُ أَنَّ النَّاسَ يُنْسِكُوْنَ

(١) ورد نص هذه الزهرة بألفاظ قريبة مما وردت به هنا في فتح الطيب (٦٠١/١) ولكن المقرى يذكر أنه نقل النص عن كتاب «روضة الأزهار ويهجة النفوس ونزهة الأ بصار» مؤلف لم يفصح عن اسمه، ووردت القصة أيضاً في الذخيرة لابن بسام ق ٤ - ٥٠١.

(٢) بهذا النص وردت الزهرة السابعة والأربعون في الأصل ١، غير أن المقرى ساق في كتابه فتح الطيب لهذه الزهرة نصاً آخر مختلفاً عنها ورد هنا كل الاختلاف بعد أن نصت إحدى مخطوطات الفتح على أنها الزهرة السابعة والأربعون، ولكن يبدو أن ذلك كانت من أخطاء الناشر أوقه =

عليه قال : من يَعْذِرُنَا^(١) من العامة ؟ نخَصُّ خَدِيمًا ، وَنُوَسِّعُ عَلَيْهِ ، وَنَفْوَضُ إِلَيْهِ ، فَيَخُونُنَا وَيَسْعَى عَلَى مُلْكِنَا ، وَيَسْفُرُ فِي هُلْكَنَا ، مُنَكِّرًا لِإِحْسَانَنَا ، عِنْدَ رَدِّهِ عَنْ حَاجَةٍ قَدْ قُضِيَّ لَهُ أَلْفُهُ مِنْهَا ، وَمَنْعِهِ رَتْبَةُ الْصَّالِحِ لَهُ فِي تَرْكَهَا ، فَيَغْيِبُ عَنْهُمْ ذَنْبُهُ ، وَتَنَكَّشُ لَهُمْ عَقْوبَتُهُ ، فَيَقُولُونَ عَنَّا : لَيْسُوا بِذَوِي^(٢) وَفَاءٍ ! وَقَدْ جَهَلُوا مَقْدَارَ الْابْتِلَاءِ .

الزهرة الثامنة والأربعون :

أَنْتَهَتْ^(٣) هَيَّةُ النَّصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ وَضَبْطُهُ لِلْجَنْدِ وَاسْتِخْدَامُ^(٤) ذَكْرِ الرِّجَالِ وَقَوْمِ الْمَلَكِ إِلَى غَايَةٍ لَمْ يَؤْتَهَا مَلَكٌ قَبْلَهُ^(٥) ، فَكَانَتْ مَوَاقِفُهُمْ فِي الْمَيْدَانِ عَلَى احْتِفَالِهِ مُثَلًا فِي الزَّمَانَةِ وَالْإِطْرَاقِ^(٦) حَتَّى إِنَّ الْخَيلَ لَتَمْتَشِّلُ^(٧) بِإِطْرَاقِ فَرَسَائِهَا ، فَلَا تُكْثِرُ الصَّهْلَ وَالْمَحْمَمَةَ .

= فيه أن القصة متصلة بمحطّفات من كتابنا هذا ، فلعله ظن أنها بدورها إحدى الزهارات المأخوذة عنه . ومع ذلك فسنورد نص هذه الزهرة نقلًا عن نفح الطيب (١/٤٢٠) :

« حَكَىْ غَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّ النَّصُورَ كَانَ بِهِ دَاءٌ فِي رَجْلِهِ ، وَاحْتَاجَ إِلَى الْكِيِّ ، فَأَمَرَ النَّذِيْبَ بِذَلِكَ وَهُوَ قَاعِدٌ فِي مَوْضِعٍ مَشْرُفٍ عَلَى أَهْلِ مَلْكَتِهِ ، فَجَعَلَ يَأْمُرُ وَيَنْهَا وَيَفْرَى الْفَرَى فِي أَمْوَرِهِ ، وَرَجْلِهِ تَكَوَّى ، وَالنَّاسُ لَا يَشْعُرُونَ ، حَتَّى شَوَّا رَأْيَتَهُ الْجَلَدُ وَاللَّعْنُ ، فَتَجَبَّوْا مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ غَيْرُ مَكْتُرٍ » . وَنَصَ هَذَا الْحَبْرُ قَرِيبًا جَدًّا مَا قَلَّهُ أَبْنُ عَذَارِيِّ فِي الْبَيَانِ الْمَغْرِبِ (٢/٣٠١ - ٣٠٠) عَنْ أَبْنِ حَيَانَ ، وَإِنْ كَانَ نَصُ أَبْنِ حَيَانَ أَكْثَرَ تَفْصِيلًا وَأَدْقَ في تَحْدِيدِ ظَرُوفِ هَذَا الْحَبْرِ وَمَكَانِهِ .

(٣) في الأصل : وَقَعَ ، وَلَعِلَ الصَّوابُ مَا أَبَيَّنَا .

(٤) الفضل بن سهل السرخسي أسلم على يد المؤمن ثم وزر له فاستولى على أمور الدولة حتى صاف به المؤمن فأوقع به ودير مقتله سنة ٢٠٢ (وفيات الأعيان رقم ٤١/٤ - ٤٤ - ٥٢٩) .

(٥) في الأصل : تَعْذِرُنَا .

(٦) في الأصل : بَذَى .

(٧) وَرَدَ نَصُ هَذِهِ الزَّهْرَةِ فِي نَفْحِ الطَّيْبِ (١/١٩) مِنْقُولَةً عَنْ هَذِهِ الْكِتَابِ وَبِنَفْسِ رَقْبَهَا الْمَشْتَدِ وَإِنْ كَانَ قَدْ وَرَدَتْ فِي بَعْضِ أَصْوَلِ النَّفْحِ الْمُخْطُوطَةِ بِرَقْمِ الزَّهْرَةِ السَّادِسَةِ وَالْأَرْبَعِينِ .

(٨) في الأصل : وَهُمْ ، وَقَدْ تَعْنَتْ قِرَاءَةُ النَّفْحِ .

(٩) في النَّفْحِ : لَمْ يَصْلَهَا مَلَكٌ مِنْ قَبْلِهِ .

(١٠) في النَّفْحِ : مُثَلِّاً فِي الْإِطْرَاقِ . وَفِي الأَصْلِ زِيَادَةُ بَيَانٍ ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُ « الزَّمَانَةُ » قدْ جَاءَ فِي الْمُخْطُوطَةِ « الزَّمَانَةُ » ، وَالصَّوابُ مَا أَبَيَّنَا . وَالْزَّمَانَةُ الصَّمْتُ وَالسَّكُونُ .

(١١) في النَّفْحِ : لِتَمْتَشِّلُ ، وَمَا وَرَدَ فِي الأَصْلِ أَصْوَبُ .

ولقد وقعت عينه على بارقة [١٣٦] سيف قد سَلَّمَ بعض الجندي بأقصى الميدان هرلي أو جد بحث ظن أن لحظة النصر لا يناله . فقال : عَنِّي شاهر السيف . فمثل بين يديه لوقته . فقال : ما حملك على أن شهرت سيفك في مكان لا يشهر فيه إلا عن إذن ؟ فقال : إني أشرت به إلى ^(١) صاحب مُعْدًا ، فاندلق ^(٢) من غمده . فقال : إن مثل هذا لا يسوغ بالدعوى . وأمر به فضربت عنقه بسيفه ، وطيف برأسه ونودي عليه بذنبه .

الزهرة التاسعة والأربعون :

قيل للأحنف ^(٣) من تعلمَ الحلم ؟ فقال : من قيس بن عاص ^(٤) . كنت عنده ذات يوم جالساً ، فجاءه برجل مكتوفٍ وآخر مقتول . فقيل له : هذا ابنك ، قتله هذا . فقال : حلوا كتفاً هذا وسرحوه ، وواروا هذا واحلو إلى أمه ديتها فإنها فيكم غريبة ^(٥) .

(١) في الأصل : على ، وآثرنا هنا ما ورد في النفح .

(٢) في النفح : فنزل .

(٣) أبو بحر الأحنف بن قيس السعدي التميمي ، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولكنه لم يجتمع به . ذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من تابعي البصرة ، كان من اعتزل وقعة الجمل بعد فتنة عثمان ثم شهد صفين مع الإمام علي ، وسكن البصرة وكان سيد بن قيم بها وتوفي في ولاية مصعب بن الزبير سنة ٦٧ . انظر ترجمته في الإصابة لابن حجر ١٨٧ - ١٨٩ .

(٤) أبو علي قيس بن عاص المقرئ التميمي ، صحابي وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم في وفد بنى تميم فأسلم وسمأه الرسول سيد أهل الور وكان عاقلاً حليماً ، وكان من حرم المثل في الجاهلية ، روى عن النبي أحاديث وزنى البصرة ومات بها ورثاه عبدة بن الطيب بقصيدة مشهورة . ترجم له ابن عبد البر في الاستيعاب ، رقم ١٢٩٤ ؛ وابن الأثير في أسد الفایة ٤/٢١٩ ؛ وابن حجر في الإصابة ، رقم ٧١٩٩ - ٤٨٣/٥ - ٤٨٦ .

(٥) الخبر الوارد هنا يبدو منقولاً عن الاستيعاب لابن عبد البر (الموضع المذكور في الماشية السابقة) وقد نقله ابن حجر أيضاً في الإصابة ٥/٤٨٤ .

الزهرة الخمسون :

صنع كسرى طعاماً في سماطٍ له ، فلما فرغوا ورُفعتِ الآلاتُ وقعت عينه على رجلٍ من الحاضرين قد أخذَ جاماً له قيمة كبيرة ، فجعل الخدمُ يرْفَعُونَ الآلاتَ ، فلم يجدوا الجامَ ، فسمعهم كسرى يتكلّمون ، فقال : ما لكم ؟ قالوا : فقدنا جاماً من الجامات . فقال : لا عليكم ، أخذه من لا يريد ، ورآه من لا يفضحه .

فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ أَيَامٍ دَخَلَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ وَعَلَيْهِ حِلَيَّةً جَيِّلَةً ، وَحَالَةً مُسْتَحْسَنَةً .
فَقَالَ لَهُ كُسْرَى : هَذَا مِنْ ذَاكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . وَلَمْ يَقُلْ لَهُ شَيْئاً .

الزهرة الحادية والخمسون :

أَحْضَرَ يَوْمًا بَيْنَ يَدِي الْخَلِيفَةِ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَالًّا كَثِيرًا تَاهَ مِنْ بَعْضِ [137] النَّوَاحِي جَلَسَ لِإِيَاعِهِ فِي يَدِهِ ، وَقَدْ أَمْرَ خَدْمَهُ الصَّاقِبَةَ بِتَوْلِي ذَلِكَ ، وَنَضَدَهُ بَيْنَ يَدِيهِ ، إِلَى أَنْ يَأْمُرَ بِرْفَعِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ ، فَأَخْذَوْهُ فِي ذَلِكَ عَلَيْهِ ، وَاعْتَرَتْهُ خَلَالَهُ سَنَّ غَصَّ لَهَا مِنْ طَرْفِهِ ، خَالَهَا بَعْضُهُمْ نَعَاسًا ، فَمَدَّ يَدَهُ إِلَى بَدْرَةِ مِنْ ذَلِكَ الْمَالِ اخْتَلَسَهَا عَلَى حِينِ غَفَلَةِ مِنْ أَحْجَابِهِ ، فَصَبَرَهَا فِي حِضْنِهِ ، وَالْأَمْرُ يَنْظَرُ إِلَيْهِ .

فَلَمَّا أَكْمَلُوا نَضَدَ الْبَدْرِ أَمْرَهُمْ بِإِعادَةِ عَدُّهَا ، فَأَصَابُوهَا تَنْقُصُ تَلْكَ الْبَدْرَةِ الْمُخْتَسَّةِ ، فَتَرَأَمُوا بِسْرَقِهَا ، وَاشْتَدَّ بَيْنَهُمُ التَّنَازُعُ فِيهَا . فَلَمَّا أَكْثَرُوا قَالَ لَهُمُ الْأَمْرُ : حَسْبُكُمْ ، كُفُوا عَنْ ذِكْرِهَا ، فَقَدْ أَخْذَهَا مِنْ لَا يَرْدِهَا ، وَرَآهُ مِنْ لَا يَفْضُحُهُ . فَإِيَّاهُ وَإِيَّاهُمْ مِنْ الْعَوْدِ لِمُلْهَاهَا ، فَإِنْ كَبِيرُ الذَّنْبِ يَهْجُمُ عَلَى اسْتِفَادَةِ الْعَفْوِ . ارْفَعُوهُ الْمَالَ ، وَأَقْلُوهُ الْمَقَالَ .

فأشتد عَجَبٌ مَنْ سَمِعَ بِهِ مِنْ سَعَةِ كُرْمَهِ وَشَدَّةِ حَيَاةِ (١) .

الزهرة الثانية والخمسون :

قال أبو الحسن بن سعيد العنسي^(٢) : كفت أترداد إلى مجلس جمال الدين بن يغمور^(٣) ، وهو نائب السلطنة بالشام ، وكان يقوم لي كلما دخلت عليه . فدخلت يوماً ، فإذا به مضطجع لم يقُمْ ، وأخذ فيما كان يأخذ فيه . فلما دخلت عليه في اليوم الثاني قام ثم جلس ، ثم قام ثم جلس ، وقال : هذه الأخيرة هي قومة أمس كانت على ديننا ، منعنى عن القيام لك عذر تفضل بقبوله دون مطالبة بذلك . فتعجبت من فضله وقلت : ما صار لهذا الرجل ما صار من باطل .

(١) القصة المنسوبة هنا إلى الأمير محمد بن عبد الرحمن أوردها ابن حيان نقلًا عن معاوية بن هشام الشبيبي (المقتبس ، بتحقيقنا ص ٩٠—٩١) إلا أنه ينسبها إلى عبد الرحمن بن الحكم الأوسط . وقد وردت كذلك في أخبار مجموعة من ١٣٦؛ وابن سعيد : المغرب ٤٦/١؛ وابن عذاري : البيان المغرب ٩٢/٢

(٢) في الأصل الحنفي ، وهو خطأ صوابه ما أثبتنا ، والمقصود هو على بن موسى بن عبد الملك بن سعيد اليحصبي (ولد سنة ٦١٠ وتوفي سنة ٦٨٥) وتنسبه ينتهي إلى الصحابي المعروف عمار بن ياسر من بنى عتبة بن مذحج (ومن هنا كان انتسابه عنسيًا) ، وهو المؤلف المشهور صاحب كتاب المغرب في حل المغرب وغيره من الكتب وترجمته وأخباره كثيرة في كتب الأدب الأندلسي ، راجع تقديم أستاذنا الدكتور شوقي ضيف لكتاب المغرب . وقد ترجم له المقرئ في الفتح ترجمة طويلة موعية (٢٦٢/٢—٢٩٠) .

(٣) جمال الدين موسى بن يغمور ، ولد سنة ٥٩٩ في قرية من أعمال قوص بصعيد مصر ، وتنقل في الولايات الجليلة في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد الأيوبي ، فوقى نياية السلطنة بمصر سنة ٦٣٨ ، ثم نياية دمشق سنة ٦٤٧ ، وكان الملك الظاهر أيضاً يستشيره وأخذ برأيه . وتوفي سنة ٦٦٣ . وابن يغمور هذا هو الذي اتصل به ابن سعيد حينما نزل مصر ، وهو الذي أهدى إليه كتابه « رأيات المربزين وغايات المميزين » (انظر كتاب الرأيات ص ٣١ - ٣٢) .

الزهرة الثالثة والخمسون :

جلس الخليفة عبد الرحمن بن محمد الناصر يوماً في قصر الزهراء مع خواصّ [138] وزرائه المشورة مجلساً طويلاً غشية الشمس فيه . فقال : الصواب أن يتحوّل إلى الظل ، وقام ناهضاً يريد مجلساً آخر . فابتدرّوا القيام خلفه حفاةً قد أعرضوا عن خفافهم . ففانت منه التفاتة ، فنظر إلى احتفائهم وقال : ما بالكم احتفائتم ؟ فقالوا : بداراً لأمرك يا مولانا ، وتناغيًا في لحاقك . فقال : إذا كان كذلك لا يصلح إلا مساواتكم . ثم نبذ الحفَّ من رجله وتحفَّ مashiًا . فأعظموا ما كان منه ، واستحقروا في شكره والثناء على فضله رحمة الله .

الزهرة الرابعة والخمسون :

قال خَلَفُ بن حِيَانَ وَالدِّيَامُ الْبَلِيْغُ أَبِي مَرْوَانَ^(١) :

بَكَسَتِي^(٢) المنصور محمد بن أبي عامر على بعض ما أبصره مني تبكيتاً بَدَا له مني بسببه فزعٌ منه ، وهيبةٌ لسلطانه . فلما أخلَّ مجلسه قال لي : رأيتُ من فزعِك وشدة رُوعِك ما استنكرته منك . ومن وثق بالله بريءٌ من الحولِ والقوةِ لله . وإنما أنا آلةٌ من آلاتِ اللهِ تعالى ، أتصرّفُ بميشيته ، وأسطو بقدرتِه ، وأغفو عن إذنه ، ولا أملك لنفسي إلا ما أملّكه لي^(٣) .

(١) روى هذا الخبر هو المؤرخ الأندلسي المشهور أبو مروان حيمان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي (عاش بين ٤٦٩ و ٤٧٧) ، وقد فصلنا الحديث عن حياته ونشاطه الفكري في تقديمنا لقطعة من كتابه المقتبس . أما والده خلف بن حسين بن حيان (عاش بين سنتي ٤٢٧ و ٤٤٠) فقد كان كاتباً للمنصور بن أبي عامر ، وقد فصلنا الحديث عنه أيضاً في تقديمنا لكتاب المقتبس (من ٨—١٩).

(٢) ورد هذا الخبر بألفاظه تقريراً في إعتاب الكتاب لابن الأبار ، بتحقيق صالح الأشتر ،

دمشق ١٩٦١ — ص ١٩٨

(٣) كما في الأصل ، والصواب ما ورد في إعتاب الكتاب : إلا ما أملّكه من نفسِي لسواني .

فأزل عنك روعك ، فإنما أنا ابن اسرأة من تميم طالما تقوت بشمن غزها ، ثم جاء من الله تعالى ما تراه . ثم قال : يا بن حيَان . إن أفضل الناس غِراساً من غرس الخير . وإن أفضل السلطان غِراساً ما أُنْهَى في الآخرة ، ومن أنا عند الله تعالى لولا عطني على المستضعف المظلوم ، وقصدي للجبار الغشوم الالهي عن حقوق ربِّه ، بفسقه ودنسه .

الزهرة الخامسة والخمسون :

أمر مصعب بن الزبير بـرجلٍ من أصحاب المختار أن تُضرب عينه ، فقال : يا أيها الأمير ، ما أقبح بك أن أقوم يوم القيمة إلى صورتك هذه الحسنة [139] ووجهك هذا الذي يستضاء به ، فأنعلق بأطرافك وأقول : يارب ، سُلْ هذا فيم قتلني ؟ فقال : أطلقوه ! قال : أيها الأمير ، اجعل ما وَهَبْتَ لي من الحياة في خصي من العيش . قال : أعطوه مائة ألف^(١) .

الزهرة السادسة والخمسون :

وقفَ رجلٌ من بنى أمية للرشيد على طريقه ، وبيده بطاقة فيها مكتوبٌ هذه الأبيات : [من الرمل]

يا أمين الله إني قائل	قول صدق ولب وحسب ^(٢)
لكم الفضل علينا ولنا	بكم الفضل على كل العرب

(١) ورد هذا الخبر وما فيه من حوار بين مصعب بن الزبير وهذا الرجل من أصحاب المختار بن أبي عبيد الثقفي في عيون الأخبار لابن قتيبة مزيد من التفصيل (١٠٣/١) .
(٢) كذا ورد النظر الثاني ، وهو لا يتنز ، ولا بد أن لفظا سقط منه .

عَبْدُ شَمْسٍ كَانَ يَقْلُو هَاشِمًا وَهَا بَغْدَادُ لَأْمَ وَلَأْبَ
 فَصَلِّ الْأَرْحَامَ مِنَا إِنَّمَا عَبْدُ شَمْسٍ عَمُّ عَبْدُ الْمَطَلِّبِ
 فَاسْتَحْسَنَاهَا الرَّشِيدُ وَأَمْرَ لَهُ لِكُلِّ بَيْتٍ بِأَلْفِ دِينَارٍ وَقَالَ : لَوْ زِدْتَنَا لِزَدْنَاكَ .

الزهرة السابعة والخمسون :

تصدّى^(١) للخليفة الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد يوماً في بعض خارجه من القصر بالزهراء في موكب له رجل معته ، تكن^(٢) له في بعض جنبات طريقه ، فثار في وجهه ، وصاح عليه صياحاً منكراً ، وهرولاً نحوه ، ومد يده إلى شكله عنانه ، يريد القبض عليها . ففر الفرس الذي كان تحته ، وأقعى على مؤخره ، فكاد يلقى عنه الخليفة لولا جودة استمساكه على سرجه ، فابتدر المعتوه أكابر^(٣) [فتیانه]^(٤) الصقالبة الحافون به يحسبونه خارجياً قصده ، فخطبوه بأسيافهم ، ووخرزوه بأسنانهم ، فقتلوه ، والناصر مشتغل^(٥) بدَهْشَتِه . فلما عاينَ إسراعهم وعُرِفَ بافْتَهَ وَعُجْفَتَه ساءه شديداً ، وأنسأه دهشه ، وسب^(٦) الحصيان وأغلظ لهم وهو بهم ، [140] وأمر بالسؤال عن أولياء هذا المقتول ، فَوَدَاهُ لَهُمْ ، وتمهد لهم بالإحسان حياته .

الزهرة الثامنة والخمسون :

قال ابراهيم بن الحسن بن سهل :

(١) أورد ابن حيان خبر هذا المعتوه ومحاولته اغتيال الناصر تقلا عن الحسن بن محمد بن مفرج القبيسي في كتابه عن الخلفاء (المقتبس ، مخطوطه الحزانة الملكية بالرباط ص ٢٢—٢٣) ويُكَادُ النص يكون تقلاً حرفيًّا عن هذا الكتاب .

(٢) في الأصل : تَكَنْ ، والتوصيب عن المقتبس لابن حيان (الموضع الذي أسلفنا الإشارة إليه) زيادة عن المقتبس .

(٣) في الأصل : وَشَبْ ، والصواب ما أثبتنا .

كَنَّا فِي مَجْلِسِ الْمُؤْمِنِ ، وَعَمْرُو بْنُ مُسَعَدَةَ ^(١) يَقْرَأُ عَلَيْهِ الرِّقَاعَ ، فِجَاءَتِهِ عَطْسَةٌ ، فَلَوَى عُنْقَهُ فِرْدَاهَا ، فَرَآهُ الْمُؤْمِنُ ، فَقَالَ : يَا عَمْرُو ، لَا تَفْعَلْ ، فَإِنْ رَدَ الْعَطْسَةَ وَتَحْوِيلَ الْوِجْهِ يُورِثُ افْطَاعًا فِي الْعُنْقِ . وَكَانَ بَعْضُ أُولَادِ الْمَهْدِيِّ حَاضِرًا ، فَقَالَ : مَا أَحْسَنْنَا مِنْ مَوْلَى لَعْبِيهِ ، وَإِمَامَ لِرَعْيَتِهِ . فَقَالَ الْمُؤْمِنُ : وَمَا فِي ذَلِكِ ؟ هَذَا هَشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ اضْطُرِبَتْ عَمَّامَتِهِ ، فَأَهْوَى الْأَبْرَشَ ^(٢) إِلَى إِصْلَاحِهِ . فَقَالَ هَشَامٌ : إِنَا لَا نَتَخَذُ الإِخْرَانَ حَوْلًا ^(٣) . فَالَّذِي فَعَلَ هَشَامٌ أَحْسَنَ مِنَ الَّذِي فَعَلْتُهُ . فَقَالَ عَمْرُو : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ هَشَامًا يَتَكَلَّفُ مَا طَبَعَتْ عَلَيْهِ ، وَيَظْلِمُ فِيهَا تَعْدِلًا فِيهِ ، لَيْسَ لَهُ قَرَابَتُكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا قِيَامَكَ بِحَقِّ اللَّهِ . وَإِنَّكَ وَالْمَلَوْكَ لَكَمَا قَالَ النَّابِغَةُ : [مِنَ الطَّوَيْلِ]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سَوْرَةً تَرِى كُلَّ مَلْكٍ دُونَهَا يَتَذَبَّذِبُ
لَا نَكْ شَمْسٌ وَالْمَلَوْكُ كَوَافِبُ إِذَا طَلَقْتُ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوَافِبُ

الزهرة التاسعة والخمسون :

ذُكِرَ أَنَّ حَفِيدَ الْمُعْتَمِدِ بْنِ عَبَادِ حَضَرَ فِي وِلِيمَةِ بَدِينَةِ مَرَاكِشَ فِي دُولَةِ الْمَرَابِطِينَ ، فَلَمَّا دَخَلَ الْمَجْلِسَ وَجَدَهُ قَدْ غَصَّ بِأَهْلِهِ ، فَجَلَسَ فِي أَدْنِي الْمَجْلِسِ ،

(١) عَمْرُو بْنُ مُسَعَدَةَ الْكَاتِبُ أَحَدُ وُزَرَاءِ الْمُؤْمِنِ كَاتِبٌ بَلِيجٌ مُشْهُورٌ . تَوْفِيَ سَنَةُ ٢١٥ أَوْ ٢١٧ . انْظُرْ تَرْجِيْتَهُ فِي وِفَائِتِ الْأَعْيَانِ ، رَقْمُ ٤٧٨ / ٣ — ٤٧٥ — ٤٠٧ .

(٢) الْأَبْرَشُ هُوَ سَعِيدُ بْنِ الْوَلِيدِ الْكَلَبِيُّ ، وَهُوَ مِنْ وَلَدِ عَمْرُو بْنِ جَبَّاتَةِ الَّذِي وَفَدَ عَلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، وَكَانَ حَاجِبًا لِهَشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَمِنْ جَلَسَاتِهِ الْمَلَازِمِ لَهُ . انْظُرْ إِلَيْهِ لَابْنِ حِجْرِ ٤/٦١٣ ، وَعَيْنَ الْأَخْبَارِ ١/٤٢٦٦ ، ١٠٠/٤ ، وَالْأَمَالِيِّ لِأَبِي عَلَى الْقَالِ ٢/٣٧ . وَقَدْ كَانَ لِلْأَبْرَشِ ذُرْيَةٌ فِي الْأَنْدَاسِ مِنْهُمْ خَلْفُ بْنِ سَعِيدِ الْكَلَبِيِّ الْقَرْطَبِيِّ الْمُعْرُوفِ بِابْنِ الْمَرَابِطِ وَالْمَتَوْفِيِّ نَحْوَ سَنَةِ ٤٠٠ (الصَّلَةُ لِابْنِ بَشْكُواَلِ رَقْمُ ٣٦١) .

(٣) وَرَدَ خَبْرُ قِيَامِ الْأَبْرَشِ لِإِصْلَاحِ عَمَامَةِ هَشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَعِبَارَةُ هَذَا لَهُ فِي عَيْنَ الْأَخْبَارِ ١/٢٦٩ .

فأشار إليه من عرف منزلته^(١) ، فقد وأنشد مرجلاً^(٢) : [من الكامل]

نَحْنُ الْأَهِلَّةُ فِي ظَلَامِ الْجَنَدِينِ حِيثُ احْتَلَّنَا ثُمَّ صَدَرَ الْجَلْسِ
إِنْ عَاقَنَا صَرْفُ الزَّمَانِ بِجُورِهِ ظَامِّاً فَلَمْ يَذْهَبْ بِعِزِّ الْأَنْفُسِ

النَّهْرَةُ السَّتُونُ :

[١٤١] لما غزا الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد أول غزوته المؤذنة
بسعديه إلى أهل الخلاف عليه بكورتي إلبيرا وجيان وما والاهما من حصون
البشارات^(٣) وغيرها انتهت فتوحه إلى ما يجاوز ثلاثة حصن ، كل حصن
منها على الاسم بعيد الصيت ، ملحاً لذوى الخلاف والمعصية . وكان فتيحاً لم
يسمع بمثله ملوك الأرض قضاه في غزوة واحدة في سالف الأزمنة^(٤).

(١) في الأصل بعد هذه العبارة : « فقال لا » ، إلا أن الناسخ ضرب على الكلمتين خطأ إشارة إلى حذفهما .

(٢) نسب ابن الأبار هذين البيتين لأبي الحسن علي بن عمر بن مشرف بن أضحي المهداني (عاش بين سنتي ٩٢٤ و ٥٤٠) . وروايته للشطر الأول من البيت الثاني « إن يدخل الزمن المؤون
بعزنا » ثم يعلق عليه قائلاً : « لو قال « يذهب » مكان « يدخل » لكان أجود » (الحالة السيراء
٢١٦/٢) ، وورد البيتان بهذه الرواية كما صححها ابن الأبار في المغرب لابن سعيد (١٠٨/٢) وفي
رأيات المبرزين (ص ٥٣ من طبعة غرسية غومس ومن ٨٤ من طبعة الدكتور العبان القاضي) .
ويظهر أن حميد المتتمد بن عباد المذكور قد تمثّل بهذه البيتين ، فإن سعيد ينص في الموضع المشار
إليه من رأيات المبرزين على أنه أثبتتها « لحسن مزعهمها وشتهرها شرقاً وغرباً » .

(٣) في الأصل : البشارات ، والصواب ما أثبتنا ، والمقصود سلسلة الجبال التي تسمى اليوم
Alpujarras وتكتب بالعربي أيضاً « البشرات » (انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، بتحقيق الأستاذ محمد
عبد الله عنان ، الطبعة الثانية ، ١١١/١ ، ١٦٤) .

(٤) هذه الغزوة هي أولى غزوات عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله بعد توالي الامارة ، وقد
بدأتها في ١٣ شعبان ٣٠٠ (٢٤ مارس ٩١٣) وانتهت منها يوم عيد الأضحى من هذه السنة (١٧
 يولية ٩١٣) بعد أن استم فيها اثنين وتسعين يوماً ، وتدعى بغزوة المتنلون وقد فصل حديثها ابن
عيان في المقتبس (محفوظة الخزانة الملكية في الرابط من ٣٥—٣٧) ولخص كلامه عنها ابن عذاري
في البيان المغرب (١٦٣—١٦٠/٢) والقطمة المجهولة المؤلف من تاريخ عبد الرحمن الناصر ، مدريد
١٩٥٠ ص ٣٧ من النص و ١٠٠ من الترجمة . وفي كتاب ليفي بروفنسال : تاريخ إسبانيا الإسلامية
٢/١١—٧ دراسة طيبة عنها .

فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى حَصْنِ شَبَالِشَ^(١) مِنْ حَصُونَ الْبَشَارَةِ أَشْرَفَ عَلَيْهِ بَعْضُ السَّفَهَاءِ مِنْ رِجَالِ عُمَرَ بْنِ حَفَصُونَ^(٢) بِالذَّمِّ وَالْأَحْتَقَارِ، وَجَعَلَ يَقُولُ : رُدُّوا فِي فَمِهِ لَبَنَ أُمِّهِ ! نَجَاوِيهِ بَعْضُ مَنْ كَانَ بِقَرْبِهِ فِي الْمَصَافِّ مِنْ زَمَّالَة^(٣) الْأَنْقَالِ : « وَاللَّهِ مَا نَرَدْهُ إِلَّا بِرَأْسِ ابْنِ حَفَصُونَ فِي حُكْمِهِ !^(٤) » .

فَلَمَّا وَقَرَتْ بِأَذْنِهِ قَالَ : يَرْفَعُ هَذَا الْقَاتِلُ عَنِ الْأَمْتَهَانِ ، وَيَلْحِقُ بِمَلَاقِ الْفَرَسَانِ ، وَيَحْمِلُ ، وَيَوْصَلُ بِكُنْدَرًا مِنَ الْمَالِ . فَأَوْتَى ذَلِكَ كَلَهُ فِي مَقَامِهِ ، وَصَارَ سَبِيلًا لِنَبَاوَتِهِ فِي رِجَالِهِ . وَطَيَرَهَا النَّاسُ غَرِيبَةً فِي اهْتِبَالِهِ وَسِعَةِ نَوَالِهِ .

وَاعْتَاصَ عَلَيْهِ حَصْنُ شَبَالِشَ الْمَذْكُورُ لِبَعْدِهِ وَتَعَذَّرَ نَبَلُهُ بِحَجَرَةِ الْمَجْنِيقِ الْقَادِفَةِ لَهُ ، وَكَانَ فِيهِ جَهَرَةً مِنْ رِجَالِ عُمَرَ بْنِ حَفَصُونَ لَهُمْ بَأْسٌ وَفِيهِمْ

(١) حصن شبالش أو شبيلش (كما يكتبه ابن عذاري) هو الذي يدعى اليوم Juviles وهو يقع على السفوح الجنوبية لجبال البشرات، إلى الجنوب الشرقي لغرناطة.

(٢) عمر بن حفصون كبير ثوار الأندلس في أواخر القرن الثالث المجري استمرت ثورته منذ سنة ٢٦٧ في عهد الأمير محمد حتى وفاته في أيام الناصر سنة ٣٠٥ . راجع عن حياته دائرة المعارف الإسلامية / ٣ - ١٠٤٩ - ١٠٥٠ (بقلم ليق بروفنسال) وما ورد في هذه المادة من مصادر .

(٣) زمالة الأنقال جمع زمال وهو سائق الرامة، وهي في اللغة البعير يستظهر به الرجل يحمل عليه متاعه وطعامه، على أنهم توسعوا في استخدام اللفظ، فلم تعد دلالته فاسقة على الإبل بل امتدت إلى ما يشبهها من دواب تستخدم تحمل الأنقال كالبغال وأمثالها، وبهذا استعمل اللفظ في الأندلس، بل إنه قد انتقل إلى اللغة الإسبانية وبقى في تراجمها اللغوي حتى اليوم في صورة Acémila (وبعني البغل الذي يستخدم في حمل الأنقال)، ومنه اشتقت لفظ Acemilero وهو يقابل الزمال أي سائق مثل هذا البغل .

(٤) أورد خبر هذه العبارة التي قالها هذا السفيه من رجال ابن حفصون وما رد به عليه ذلك الزمال ابن حيان في المقتبس (مخطوطه الخزانة الملكية) ص ٣٧ ، ومن الواضح أن مؤلف الزهارات قد نقل الخبر كله من كتاب ابن حيان . والعبارة التي قالها السفيه المذكور تبدو مثلاً شعبياً سائراً يقصد به أن الأمير عبد الرحمن إذ يحاول إخضاع ابن حفصون واسترجاع سلطنته على مقالده إنما هو بمثابة من يرجو رد ابن الرضيع من فمه إلى ثدي أمّه ، أي أنه طالب مستعجل . وكأن هذا المثل المصوغ هنا يعاني الأندلس مأخوذه من البيت العربي القديم المنسوب إلى عميرة بن جعل وهو يصور ندمه على هجائنه لقومه :

نَدَمَتْ عَلَى شَمِّ الشَّيْرَةِ بَعْدَ مَا مَضَتْ وَاسْتَبَتْ لِلرَّوَاةِ مَذَاهِبَهُ
فَأَصْبَحَتْ لَا أَسْطِيعُ دُفَّاً لِمَا مَضَى كَمَا لَا يَرِدُ الدَّرُ فِي الْفَرْعَانِ حَالَهُ
(انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٦٥٠) .

شِدَّةً تمنعوا جداً ، وألح الناصر عليهم في قتالهِمْ ، وبنى رِجْلاً عليهم نصبَ المجنحِيقَ عليه ، فأصابهم بأحجارها ، وقطع الماء عنهم حتى قهرهم ، وافتتح الحصنَ عنَّهُ ، وقتل كلَّ من كان فيه من أصحابِ عمر بن حفصون ، وافتتح بافتتاحه حصون البشارة كلها ، وانصرف على الساحلِ شاطِ (١) إلى كورة رَيَّةً ، ومنها إلى حضرته بقرطبة .

الزهرة الحادية والستون :

قام رجلٌ إلى الرشيدِ في أول أيامه ويحيى بن خالد يُسَايره ، فلما نزل قال له : [يا أبَتِ] (٢) يا أُمَّاتَ إِلَيْ شَيْءٍ . وقد أَمْرَتُ بالدرام للفارسِ الذي عَطَبَتْ دَابَّتُه ما هو ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، مثلك لا يجرى هذا المقدارُ على لسانه ، إنما يذكر مثلك خمسة آلافِ ألف ، عَشْرَةَ آفِ ألف . قال : فإذا سُئلْتُ مثل هذا كيف أقول ؟ قال : تقول : تُشَرِّى له دابة ، يفعل بها ما يفعل بمنظرائه ، يُخْمَلُ في هذا مَحْمِلَ أَقْرَانِه (٣) .

الزهرة الثانية والستون :

ذُكِّرَ أنَّ المُتَوَكِّلَ ابْنَ الْأَفْطَسِ (٤) أَمِيرَ بُرْتِقَالَ (٥) فَرَّ إِلَيْهِ شَخْصٌ مِّنْ

(١) شاط (ويدعى الآن Jete) حصن يقع في منطقة مالقة قريباً من المكتب Almuñecar على الساحل الجنوبي المطل على البحر المتوسط .

(٢) ذكر ابن خلگان في ترجمة يحيى بن خالد البرمي أن الرشيد لتعظيمه إياه كان إذا ذكره قال أبي (وفيات الأعيان / ٦ / ٢٢١) .

(٣) ورد هذا الخبر على نحو أكثر تفصيلاً وفيات الأعيان / ٦ / ٢٢٧

(٤) هو عمر بن محمد المظفر بن عبد الله المنصور بن محمد بن مسلمة بن الأفطس ، من ملوك الطوائف ، كان أميراً على غرب الأندلس ، ولد سنة ٤٦٠ ومات قتيلاً في سنة ٤٨٧ على يد القائد المرابطي سير بن أبي بكر حينما خلع يوسف بن تاشفين ملوك الطوائف بالأندلس ، وهو صرف ابن =

أُمِرَاءُ بْنُ هُودٍ^(١) مُعَاضِبًا لَابْنِ عَمِّهِ مُلَكَ سُرْقَسْطَةَ ، فَلَوْاً وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ اخْتَبَرَهُ ، فَرَآهُ أَهْلَ الْوَلَايَةَ ، فَوْلَاهُ ، فَقَالَ لَهُ أَحَدُ وزَرَائِهِ : كَثِيرٌ هَذَا يَا مَوْلَايَ فِي تَغْيِيرِ قَلْبِ قَرِيبِهِ . كَيْفَ تُسْخِطُ قَادِرًا فِي حَقِّ عَاجِزٍ ؟ وَتَفَرَّطُ فِيمَنْ نَحْتَاجُ إِلَيْهِ كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْنَا ؟ وَتَغْبَطُ بَنْ لَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ بَلْ هُوَ كُلُّ عَلِيْنَا ؟ فَقَالَ لَهُ الْمُتَوَكِّلُ بْنُ الْأَفْطَسُ : الَّذِي قَلْتَ حَقًّا ، وَلَكِنْ كَيْفَ يَكُونُ اقْتِنَاءَ الْمَكَارِ ؟ .

الزهرة الثالثة والستون :

ذَكَرَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ عَبْدَ الرَّحْمَنَ بْنَ الْحَكَمِ بْنَ هَشَامَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَعَاوِيَةَ وَهُبَّ بِجَارِيَةِ مِنْ حَظَّاِيَاهُ الْمَشْهُورَاتِ بِأَثْرِهِ عِقْدَ جَوْهَرٍ مِنْ أَعْلَاقِ^(٢) الْخَلَافَةِ شَرَاؤُهُ عَلَيْهِ عَشْرَةُ آلَافِ دِينَارٍ ، كَانَ يُسَمَّى الشَّعْبَانَ^(٣) ، وَكَانَ مِنْ ذَخَّارِ الرَّشِيدِ مِنْ خَلْفَاءِ بَنِي الْعَبَاسِ بِالْمَشْرُقِ ، لَمَّا وَقَعَ بَيْنَ ابْنَيِهِ الْأَمِينِ

== عبدون بالرأي المشهورة التي تدعى «البسامة». انظر ترجمته في «لائد العقبان» لابن خافان من ٣٦ - ٤٧؛ المغرب لابن سعيد ١ / ٣٦٤ - ٣٦٥، أعمال الأعلام لابن الخطيب من ٢١٤؛ الحلة السيراء ٢ / ٩٦ - ١٠٧؛ المقرى: فتح الطيب ٦٦٣/١ - ٦٦٦.

(٤) برقال هو الاسم العربي لدولة البرتغال «الحالية»، ولم يكن هذا الاسم شائعاً في القرن الخامس المجري حينها كان يحكم هذه الرقعة من غرب الأندرس بنو الأفطس، وإنما استخدم مؤلف الزهارات هذا اللفظ على سبيل التغليب إذ كانت «برقال» في أيامه تقابل مملكة بطيوس في غرب الأندرس التي كان المتوكّل الأفطسي أميراً لها. وقد كان اسم برقال في القديم يطلق على مدينة بورتو Porto ثانية مدن البرتغال اليوم. عن هذا اللفظ راجع ما كتبناه في حواشى المقتبس بتحقيقنا، الخاشية رقم ٥٨٤ ص ٦٣٤ - ٦٣٥.

(٥) يظهر أن هذا الأمير هو ذو الوزارتين أبو محمد (وم يقف ابن الأبار الذي أورد ترجمته على اسمه الكامل) وقد أثني عليه مؤلف الحلة فقال إنه أحد النجباء الأدباء من أهل بيت ملك سرقسطة، نبت به داره وأخضص بالمتوكّل عمر بن محمد بن الأفطسي فولاه مدينة الأشبونة (لشبونة Lisboa عاصمة البرتغال الحالية) من أعماله ثم صرف عنها وصدر محمود السيرة. وله شعر يخاطب به قومه في خروجه من سرقسطة (انظر الحلة السيراء ٢ / ١٦٥ - ١٦٦).

(٦) في الأصل: علاق.

(٧) هذا العقد هو الذي يسميه ابن عذاري (بيان ٩١/٢) «عقد الشفاء».

واللَّامُونِ التَّنَازُعُ ، وَاسْتَوْلَى الْمُؤْمُنُ عَلَى الْمَلَكِ اتَّهَبَ مِنْ خِزَانَهُمْ ، وَلَادَ الْعَازُونَ عَلَيْهِ بِالْأَبْعَادِ بَهْ إِلَى قَاصِيَةِ أَرْضِ جَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ حِيثُ أَمِنُوا عَلَيْهِ ، فَبَيْعَ بَهَا مِنْ الْخَلِيفَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ .

وَإِنَّ [١٤٣] ^(١) بَعْضَ مِنْ يَخْتَصُّهُ مِنْ وزَرَائِهِ عَظِيمُ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَقَالَ إِنْ هَذَا مِنَ الْأَعْلَاقِ الْمُضْنُونَ بَهَا الْمَدَّخَرَةُ لِلنَّاَبَةِ . قَالَ الْأَمْيَرُ : وَيَحْكُمُ إِنْ لَابْسَهُ أَنْفُسُ مِنْهُ قَدْرًا ، وَأَعْظَمُ خَطْرًا ، وَأَكْرَمُ جَوَهْرًا . وَلَئِنْ رَاقَ مِنْ هَذِهِ الْمُحْسَبَاءِ مِنْظَرُهَا ، وَلَطْفَ فِي الْعَيْوَنِ فَرِندَهَا — لَقَدْ بَرَأَ اللَّهُ مِنْ خَلْقَهُ الْبَشَرِ جَوَهْرًا يُعْشِي الْأَبْصَارَ ، وَيُبَصِّلُ الْأَلْبَابَ ، وَهُلْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَرِيفٍ جَوَهْرَهَا وَسَنِّيَ زَخْرَفَهَا وَمَسْتَلَذَ نَعِيمَهَا وَفَاتَنَ بِهِجَتَهَا أَقْرَأَ لَعِينَ وَأَجْمَعَ لَزِينَ مِنْ وَجْهِ أَكْمَلَ اللَّهُ حَسْنَهُ ، وَأَلْقَى عَلَيْهِ الْجَمَالَ مَسْحِتَهُ ؟ .

ثُمَّ دَعَا بَعْدَ اللَّهِ بْنِ الشَّمْرِ ^(٢) جَلِيسَهُ ، فَذَكَرَ لَهُ مَا دَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وزَيْرِهِ فِي شَأْنِ الْعَقْدِ ، وَقَالَ لَهُ : هَلْ يَحْضُرُكَ فِي تَأْيِيدِ مَا قَلَنَاهُ شَيْءٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَأَطْرَقَ بِرَهَةَ ثُمَّ أَشَدَّ : [مِنَ الطَّوِيلِ]

أَتَقْرَنُ حَصْبَاءَ الْمَوَاقِيتِ وَالشَّدَرِ
إِلَى مَنْ بَرَأَ اللَّهُ لِلْخَلْقِ فِتْنَةً ^(٣)
وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا غَيْرَهُ أَحَدٌ يَبْرِئُ
فَأَكْرَمْ بَهُ مِنْ صَنْفَتَهُ ^(٤) اللَّهُ جَوَهْرًا
تَضَامَلَ عَنْهُ جَوَهْرُ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
لَهُ خَلْقَ الرَّحْمَنُ مَا فِي سَمَاَئِهِ
وَمَا فَوْقَ أَرْضِيهِ وَمَكَنَّ فِي الْأَمْرِ

(١) وَرَدَ هَذَا الْحِبْرُ وَمَا يَتَصَلُّ بِهِ مِنْ شِعْرٍ فِي أَخْبَارِ مَجْمُوعَةِ صِ ١٣٦—١٣٨؛ وَالْمَلَةُ السِّيَاهُ ١١٥—١١٨؛ وَابْنُ عَذَارِيٍّ : الْبَيَانُ ٩١/٢—٩٢؛ وَهُنَاكَ إِشَارَةٌ مُقْتَضِيَّةٌ إِلَى خُواهٌ فِي فَحْيٍ الطَّيِّبِ الْمَقْرِيِّ ٣٤٩/١.

(٢) اسْتَقْصَيْنَا مَصَادِرَ تَرْجِيْهِ ابْنِ الشَّمْرِ فِي حَوَاشِيِّ الْمُقْتَبِسِ لِابْنِ حَيَّانَ ، يَتَحَقِّقُنَا ، حَاشِيَةُ رقمِ ١٧١ صِ ٤٧٧—٤٧٨.

(٣) رَوَايَةُ أَخْبَارِ مَجْمُوعَةِ وَالْمَلَةِ السِّيَاهِ وَالْبَيَانِ الْمَغْرِبِ لِهَذِهِ الشَّطَرِ : «إِلَى مَنْ (أَوْ بَنْ قَدْ) بَرَتْ قَدْمَاهُ يَدُ اللَّهِ خَلْقَهُ» .

(٤) فِي الْمَلَةِ : صِبَغَةٌ ، وَفِي الْبَيَانِ الْمَغْرِبِ كَمَا هُوَ هُنَا .

قال : فَأُعْجِبَ الْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِيَدِيهِ ، وَتَحْرَكَ طَبْعُهُ لِلْقَوْلِ فِيهِ ، فَأَنْشَأَ يَقُولَ مُعَارِضًا لَهُ عَلَى رَوِيَّهِ :

قَرِيصُكَ يَا بَنَ الشَّمْرِ عَفَّى عَلَى الشِّعْرِ
إِذَا شَافَهَتْهُ الْأُذْنُ أَدَى بِسَمْعِهِ^(١)
إِلَى الْقَلْبِ إِبْدَاعًا يَجْلِلُ عَنِ السَّخْرِ
أَقْرَأَ لَعِينَ^(٢) مِنْ مُنْعَمَةِ بَكْرِ
وَهُلْ بَرَأَ الرَّحْمَنُ فِي كُلِّ مَا بَرَأَ
تَرَى الْوَرْدَ فَوْقَ الْيَاسِمِينِ بِخَدِّهَا
كَمَا قُوْفَ الْوَرْدُ الْمُسَنُورُ بِالرَّهْرِ
فَلَوْ أَتَّنِي مُلْكُكْتُ قَلْبِي وَنَاظِرِي نَظَمْتُهُمَا^(٤) مِنْهَا عَلَى الْجَيْدِ وَالنَّحْرِ

فَقَالَ لِهِ ابْنُ الشَّمْرِ : يَا بَنَ الْخَلَاثِيفِ ، شَعْرُكَ وَاللَّهِ أَجَوْدُ مِنْ شِعْرِي ،
وَثَنَاؤِكَ [١٤٤] عَلَيْهِ أَفْضَلُ مِنْ صِلَتِي . وَمَا مِنْ حَتَّكَ لِي إِلَّا تَطَوَّلَّا مِنْكَ
بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ . فَأَصْعَفَ جَائِزَتِهِ وَأَكْثَرَ الشَّنَاءِ عَلَيْهِ .

الزهرة الرابعة والستون^(٥) :

لَمَا قُبِضَ عَلَى الْوَزِيرِ أَبِي جَعْفَرِ بْنِ عَبْدِ الْمَالِكِ بْنِ سَعِيدِ الْعَنْسَرِ^(٦) وَتُقْتَلَ
بِسَالَةِ دُخُلِ إِلَيْهِ ابْنُ عَمِّهِ ، وَوُصْلَ إِلَى الْاجْتِمَاعِ بِهِ رِبِّهِ اسْتُؤْذِنَ السَّيِّدُ

(١) هَكُذا النَّصُ أَيْضًا فِي الْأَخْبَارِ الْمُجَمُوعَةِ . وَفِي الْحَالَةِ : وَأَشْرَقَ بِالْإِبْصَاحِ .

(٢) فِي الْأَصْلِ تَنَقَّسَ كُلَّةً « أَدَى » ، وَفِي الْأَخْبَارِ الْمُجَمُوعَةِ : أَدَى بِسَحْرِهِ ؛ وَفِي الْحَالَةِ : إِذَا جَالَ فِي سَمَاءِ يُؤْدِي بِسَحْرِهِ .

(٣) فِي الْأَصْلِ : لَعِيدُ ، وَالتَّصْوِيبُ عَنْ أَخْبَارِ بَجُوْمَةِ الْحَالَةِ .

(٤) فِي الْأَصْلِ : لَنْظَمَتْهَا ، وَالتَّصْوِيبُ عَنْ أَخْبَارِ بَجُوْمَةِ الْحَالَةِ .

(٥) أُورَدَ الْمَقْرِيُّ فِي تَفْحِيقِ الطَّيْبِ (٤/٢٠٤ - ٢٠٥) نَصَ هَذِهِ الْزَّهَرَةَ بِغَيْرِ أَنْ يَبْيَنْ رَقْهَا أَوْ مَوْضِعَهَا مِنَ الْكِتَابِ ، وَجَاءَ الْجَبَرُ كَذَلِكَ فِي الْاِحْاطَةِ لَابْنِ الْخَطَبِ (١/٢١٨ - ٢١٩) مَرْوِيَاً عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عَلَى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ الْحَسَنِ بْنِ دُوَيْرَةِ (كَذَا) وَيَذْكُرُ رَاوِيُ الْجَبَرِ فِي نَهَايَتِهِ أَنَّهُ لَمْ يَرِهِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا مَصْلُومًا .

(٦) أَبُو جَعْفَرِ أَحْمَدِ بْنِ عَبْدِ الْمَالِكِ بْنِ سَعِيدٍ (وَقَدْ سَاقَ ابْنُ سَعِيدٍ فِي الْمَغْرِبِ نَسْبَهُ كَامِلاً إِلَى عَمَارِ بْنِ يَاسِرٍ) هُوَ عَمُ وَالدُّ عَلَى بْنِ مُوسَى بْنِ سَعِيدٍ الْجَامِعِ الْأَخِيرِ لِكِتَابِ الْمَغْرِبِ . وَقَدْ ذَكَرَ الْمُؤْلِفُ أَنَّ أَبَا جَعْفَرِ الْمَذْكُورِ نَفْسُهُ كَانَ مِنْ بَيْنِ مَؤْلِفِي هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي تَوَارَثَ بَنُو سَعِيدٍ تَأْلِيفَهُ . وَهُوَ مِنْ =

أبو سعيد بن الخليفة عبد المؤمن بن عَلِيٍّ^(١) في أمره . قال : فَدَمَعَتْ عينايَ حين رأيَتُه مكبلاً . فقال لي : أَعَلَى يُبَسِّكَ بعد ما بلغتُ من الدنيا أطيايبَ لذاتها : فَأَكْلَتُ صدورَ الدَّجاج ، وشربتُ في الزَّجاج ، ولبستُ الديجاج ، وتمتعت بالسراري والأزواج ، واستعملت من الشمع السراجَ الوهاج ، وركبت كل هلاج^(٢) وها أنا في يدِ الحجاج^(٣) ، منظرٌ محنَةُ الحالج^(٤) ، قادمٌ على غافر لا يحتاج إلى اعتذار واحتجاج !

== ذلك البيت المشهور أصحاب القلعة التي تنسب إليهم: قلعة بني سعيد أو «قلعة يحصب» (التي تسمى اليوم Alcalá la Real) . بابع أبوه عبد الملك الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على ، فغمراه ببره . وحينما ولى غرناطة السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن استكتب أبا جعفر ، غير أن العلاقة ساءت بينهما بسبب تناقضهما على حب حفصة الركونية الشاعرة . فظل أبو سعيد يتربص به حتى فر أخوه عبد الرحمن إلى محمد ابن مردينيس صاحب شرق الأندلس وعدو الموحدين ، فاغتنمها أبو سعيد فرصة وأوقع بأبي جعفر ، فقتله صبراً بمقالفة . وذلك في سنة ٥٥٩ . انظر في ترجمة أبي جعفر ابن سعيد: المغرب / ٢ / ١٦٤ - ١٦٨ ؟ رياض المبرزين من ٦٤ من طبعة غرسية غومس (= ٩٢ ط. د. النعسان القاضي) ؛ اختصار القدح المعلى من ١٦٢ ؟ الاحاطة ١ / ٢١٤ - ٢٢٠ ؟ المقري : فتح الطيب / ٤ - ١٧٩ - ٢٠٥

(١) أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن بن على ، أوفده أبوه مؤسس الدولة المؤمنية (الموحدين) إلى الأندلس لأول مرة سنة ٤٤٦ ، وحيثما وزع عبد المؤمن ولايات الدولة على أبناءه عهد إليه بمحكم عدوئي مضيق جبل طارق (سبية وطنجة والجزيرة الخضراء وملقة) ، ثم نقله إلى غرناطة سنة ٥٢٥ وفي ٥٢٥ وفى مهمة إلى مراكش ، فاتهز ابن هشك فرصة تقيمه عن غرناطة واستولى عليها ، فعاد أبو سعيد إلى عمله بسرعة والتقي باين هشك ولكنه هزم في «مرج الرقاد» في خص غرناطة ، واضطر إلى الهرب إلى مالقة ، على أنه انتصر بعد ذلك على ابن هشك في وقعة «السيبة» . وفي ٥٥٨ كلفه أبوه هو وأخاه يوسف بننقل عاصمة الأندلس من إشبيلية إلى قرطبة وعهد إليه بمحكم قرطبة وكان أخوه يوسف قد ولى الخلافة بعد وفاة أبيه عبد المؤمن ، فقتلها في الاعتراف بأخيه حتى سنة ٥٦٠ وظل بعد ذلك في الأندلس مشاركاً في أحداثها الكبرى حتى توفى في الطاعون الذي اجتاح مراكش في سنة ٥٧١ . انظر في ترجمته وأخباره : أولئي تاريخ الدولة الموحدية :

A. Huici Miranda: *Historia política del Imperio Almohade*, pp. 618-619.

وال المصادر المذكورة في هذا المرجع .

(٢) الهملاج هو البرذون (البلغ) الحسن السير في سرعة وتبغز .

(٣) يشبه الأمير المنكك به بالحجاج بن يوسف التقي في قسوته وصرامة .

(٤) يشبه نفسه في محنته بالحالج الحسين بن منصور الصوفي المعروف الذي شهد عليه بالزندة والمرور من الدين في أيام الخليفة المقتدر فأعدم ومثل بجسده سنة ٣٠٩ .

قال : فقلت : ألا يُؤْسَفُ عَلَى مَنْ يَنْطَقُ بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ ثُمَّ يُفْقَدُ ؟
وَقَتُّ عَنْهُ ، فَكَانَ آخَرُ الْعَهْدِ بِهِ .

الزهرة الخامسة والستون :

خرج الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم من قرطبة إلى الرصافة متزهاً ومعه وزير الأثير لديه هاشم بن عبد العزيز^(١) . فقال له : يا مولاي . ما أحسنَ هذه الدنيا لو لا . . . فقال : لو لا مادا ؟ قال : لو لا الموت . فقال له : ولو كَبِيَّ فِيهَا مَنْ كَانَ قَبْلَنَا مِنْ أَنْ كَانَتْ تَصْلِي إِلَيْنَا^(٢) .

الزهرة السادسة والستون :

كان أبو اليُسرِ الشيباني المعروف بالرياضي^(٣) الأديب الشاعر قد اضطرب بالشرق وقصد الملوكة ، فأعيرت عليه مضارب الرزق [١٤٥] ، فأوضع إلى

(١) هاشم بن عبد العزيز وزير الأمير محمد (ت ٢٧٠) انظر ترجمته وأخباره في القطعة التي نشرناها من «المقتبس» لابن حيان (بيروت ١٩٧٣) ، من ١٥٩ - ١٧١ ، والحاشية رقم ٣٣٠ من ٥٣٣ - ٥٣٤ .

(٢) هناك خبر ينسب فيه الحوار إلى أبي جعفر المنصور والريبع بن يونس يكاد يتفق مع هذا الخبر في ألفاظه . وقد ورد في ابن خلكان (وفيات ٢٩٥/٢) وفي هذا الخبر نجد المنصور هو صاحب عبارة «ما أطيب الدنيا لو لا الموت» ، والريبع بن يونس هو صاحب الرد الذي جرى مثله على لسان الأمير محمد نفسه . على أن الخبر ورد في بعض المصادر الأندلسية كما هو هنا من نسبة هذا الحوار إلى الأمير محمد وهاشم بن عبد العزيز (راجع ابن عذاري : البيان المغرب ٢ / ١١١ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب من ٢٣) .

(٣) أبو اليسر ابراهيم بن محمد الشيباني الرياضي (عاش بين سنى ٢٢٣ و ٢٩٨) أديب مغامر جوال ، ولد ونشأ في بغداد ودرس بها على الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وتملب ورحل إلى الأندلس مصططفاً أنه رسول من ابن الشيخ وأهل الشام على ما يذكر المؤلف في هذا الخبر ثم رحل عن الأندلس إلى أفريقية ثم مصر فوقع عليه صاحبها (كان ذلك في أيام أحمد بن طولون) خبيث ، وبعد تخلصه من حبسه عاد إلى أفريقية فولى عملاً من أعمال الكتابة في ديوان الرسائل لابن الأغلب ، وكان على صلة بدعوة العبيدرين ، فلما انتصرت دعوة عبد الله المهدي أول خلفائهم انضم إليه وأصبح كاتبه وصاحب ==

الأندلس بكتاب زورها على لسان عيسى بن الشيخ^(١) المنزى على الخليفة العباسى بأمد^(٢) أيام الثالث طاعته عليه ، وعلى السنة جماعة من وجوه أهل البلد إلى الأمير محمد بن عبد الرحمن باستدعائه له إليهم ، واعترافهم بحقوقه وحقوق بنى أمية ، وذكرهم اقتراب أمد رجعة دولتهم إليهم بالشام .

فلا وَرَدَ عَلَى الْأَمِيرِ مُحَمَّدِ وَكَلْمَهِ بَسْطًا عَنْهُ جَمِيلٌ مَا تَضَمَّنَتْهُ كُتُبُهُ تَفَرَّسَ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ فِيهِ أَنَّهُ مُحْتَالٌ شَحَادٌ مُتَعِيشٌ ، وَرَأَى لَهُ رُوَاءً وَشَارَةً وَلِسَانًا وَسَلَاطَةً أَحَبَّ سَدَلَ السَّتَّرِ عَلَيْهِ وَالْأَخْذَ بِالْجَمِيلِ فِيهِ . وَوَصَّلَ إِلَيْهِ بِطَائِقٍ بِرَسَائِلٍ مُحْبِرٍ وَأَشْعَارٍ^(٣) مُحْكَمَةً أَعْجَبَتْهُ ، فَكَرِمَ مَثَواهُ ، وَأَوْسَعَ قَرَاهُ ، وَأَمْضَى لَهُ ذَلِكَ طَوْلَ مَكْتَهِ لَدِيهِ ، مَعَ احْتِبَاسِهِ وَاتِّهَامِهِ إِيَاهُ ، إِلَى أَنْ أَلْجَ عَلَيْهِ يَسْأَلُهُ إِطْلَاقَهُ لِسَبِيلِهِ وَقَلْبَهُ بِأَجْوِيَّةِ كُتُبِهِ .

فَلَا أَمِيرٌ مُحَمَّدٌ عِنْدَ ذَلِكَ بُوزِيرِ الْأَخْصَّ بِهِ هَاشِمٌ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَذَكَرَ لَهُ خَبْرَهُ . فَقَالَ لَهُ : وَيْحَكَ يَا هَاشِمَ ، إِنَّهُ قَدْ أُلْقِيَ فِي رُوعِيِّ أَنْ هَذَا

= ديوان رسائله في سنة ٢٩٦ وظلل في هذا المنصب حتى وفاته في سنة ٢٩٨ . انظر في ترجمته وأخباره ابن الأبار : التكملة (ط. القاهرة ١٩٥٦) المجلد الأول ، رقم ٤٥٤ ؛ ابن عذاري : البيان المغرب ١٥٢/١ - ١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٦٢ - ١٦٣ ؛ أخبار مجموعة من ١٤٦ - ١٤٧ ، المcri : فتح الطيب ١٣٤/٣ - ١٣٥ ، وبختنا عن « الشیع فی الأندلس » صحیفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية عدريد (سنة ١٩٥٤) ص ١١٢ - ١١٣ . هذا وقد اختصنا شخصية أبي اليسر الرياضي المذكور ببحث مفصل لسيرة حياته وآثاره ، وهو تحت الطبع .

(١) عيسى بن الشيخ بن الشليل الشيباني من كبار قواد الدولة العباسية كان يعمل تحت إمرة قائد الجيش بما الشرابي في أيام المتوكل وهو الذي انتدب لامداد ثورة محمد بن العبيت في صرند (أذربيجان) في سنة ٢٣٤ ، وفي سنة ٢٥١ عهد إليه بحاربة الموفق الخارجى فهو زمه وأسره ، وفي السنة التالية عقد له على الرملة بفلسطين ، ولكن ضعف الخلافة أغراه بالاستقلال بعمله فاستولى على فلسطين كلها ثم تغلب على دمشق وأعمالها واستبدل بالأموال ورفض إقامة الدعوة للخليفة المعتمد حينما ولى الخلافة سنة ٢٥٦ ، تم تقاد أعمال أرمينية وديار بكر وظل يتغلب بين الطاعة والعصيان حتى وفاته سنة ٢٦٩ . انظر في أحداث حياته ابن الأبار : الكامل ٧ ، ٤٢ ، ١٦٣ ، ١٧٦ ، ٣٣٨ ، ٣٣٤ ، ٣٦٧ ، ٣٩٧ .

(٢) أمد من كور الجزيرة من أعمال الموصى ، وهي من أكبر مدن ديار بكر (ابن عبد النعم الحبرى : الروض المطار في خبر الأقطار ، بتحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٥ ص ٣ - ٥) .

(٣) في الأصل : وشعار .

الرسولَ إِنْسَانٌ مُحْتَالٌ طَالِبٌ مَعِيشَةً وَبَاغِيَ خَدِيعَةٍ وَلَدٌ لَا يَتَغَافَلُهَا هَذِهِ الْحَيْلَةُ الَّتِي لَا أَصْلُ لَهَا . فَإِنْ صَرَنَا إِلَى تَصْدِيقِهِ وَإِنْفَاذِ أَجْوَبَتْنَا عَنْ كِتَابِهِ عَلَى حِسْبٍ مَضْمُونِهَا اتَّخَذْنَا عِنْدَ أَضْدَادِنَا^(١) بْنَ الْعَبَاسَ مَضْحَكَةً وَهُزَاءً ، وَإِنْ كَذَبْنَاهُ وَحَرَمْنَاهُ وَقَدْ تَجَسَّمَ النَّصْبُ إِلَيْنَا وَخَيَّمَ بَنَا وَقَصَدَنَا مُؤْمِلاً ، وَاحْتَلَّ كَفَنَا وَاثْقَأَا ، فَلَوْمٌ مَنَا مَشْهُورٌ ، وَفَعْلٌ غَيْرُ مَشْكُورٍ . وَقَدْ بَلَوْنَا فِيهَا يَخْطَابَنَا عَنْ نَفْسِهِ وَيَسْتَلْطِفُنَا بِهِ بِخَدِيعَتِهِ بِيَانًا نَاصِعًا وَتَنْمِيَةً رَائِقًا نَظِمًا وَنَثَرًا ، لَوْ كَانَ قَصْدُنَا بِهِمَا عَنْ نَفْسِهِ عَلَى نَائِي دَارِهِ وَشَحْطَ مَزَارِهِ لَاستَحْقَقَ مَعْرُوفُنَا وَاسْتَأْهَلَ إِكْرَامُنَا . فَعُرِفَهُ بِذَلِكَ عَنَا ، وَهَذِهِ أَلْفُ دِينَارٍ [١٤٦] فَادْفَعْنَا إِلَيْهِ صَلَةً وَأَعْطَيْنَاهُ جَوَابِنَا هَذَا الَّذِي افْرَدْنَا بِمَضْمُونِهِ ، فَأَوْمَأْنَا إِلَى تَخْصِيصِنَا بِهِ وَسَرَّحْنَا لِسَيْلِهِ . وَدَفَعْنَا إِلَيْهِ كِتَابًا مُخْتَومًا أَسْلَمْنَا إِلَى أَبِي الْيَسِيرِ .

وَكَلَهُ عَنِ الْأَمْرِ بِمَا كَتَمَهُ إِيَاهُ وَسَرَّهُ^(٢) . فَضَى أَبُو الْيَسِيرَ يُحَسِّبُ أَنْ قَدْ اخْتَدَعَ الْأَمْرِ بِمُحَمَّدًا وَاسْتَغْفَلَهُ^(٣) .

فَخَبَرَ الْفَقِيهِ مُحَمَّدَ بْنَ وَلِيدَ^(٤) أَنَّهُ اتَّفَقَ لَهُ أَنْ خَرَجَ مَعَ أَبِي الْيَسِيرِ الْمَذْكُورِ مِنْ قَرْطَبَةَ فِي نَفْرٍ مِنْ أَهْلِهَا يَرِيدُونَ الْحَجَّ وَالْتَّلَبَ الْعِلْمَ ، وَصَبَّوْهُ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْقَيْرَوَانَ . فَلَمَّا حَصَلَ فِي الْعُدُوَّةِ أَقْبَلَ يَخْبَرُهُمْ خَبْرُهُ مَعَ الْأَمْرِ بِمُحَمَّدٍ ، وَيَعْرُفُهُمْ وَجْهُ حِيلَتِهِ عَلَيْهِ فِي قَصْدِهِ إِيَاهُ وَيَتَبَرَّجُ بِمَا تَهِيَّأَ لَهُ بِكَيْسِهِ وَنَبَاهَتِهِ ، وَمَا حَصَلَ لَهُ مِنْ مَالٍ بِخَدِيعَتِهِ لَهُ . وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ فَضَّلَ خَتَمَ الْكِتَابِ الَّذِي تَكَمَّلَهُ مِنْ عَنْ الْأَمْرِ بِمُحَمَّدٍ بَيْنَ أَيْدِينَا لِيُرِيَّنَا غَبَاوةَ أَمِيرِنَا ، فَإِذَا الْكِتَابُ صَحِيفَةٌ

(١) فِي الْأَصْلِ : أَضْدَادُهَا .

(٢) فِي الْأَصْلِ : وَسَرَّهُ .

(٣) فِي الْأَصْلِ : وَاسْتَغْفَلَهُ .

(٤) الْفَقِيهُ مُحَمَّدُ بْنُ وَلِيدَ الْقَرْطَبِيُّ كَانَ تَلَمِيذَنَا لِغَتِي صَاحِبِ الْمُسْتَخْرِجَةِ وَرَحَلَ إِلَى الْمَشْرُقَ فَأَخْذَ بِهِصْرٍ عَنْ يَوْنَسَ بْنِ عَبْدِ الْأَلِيِّ وَالْمَازْنِيِّ وَمُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ ، وَلَا عَادَ إِلَى قَرْطَبَةَ قَدْمَهُ قاضِي الْمَجَاهَةِ لِلشَّوْرِيِّ وَكَانَ لِلْأَمْرِ بِمُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ بِهِ عَنْيَةً خَاصَّةً ، وَتَوَفَّ سَنَةُ ٣٠٩ (ابن الفرضي، تاريخ رقم ١١٨٠ ، ابن فردون : الديباج المذهب ص ٢٦٤) .

يبيضاء ليس فيها غير الافتتاح «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» . فوجمَ واختزى ، وقال : ليس يقاس على فهم الملوك ، وغوص نظرهم ، وذكاء حسُّهم ! ورجع يتعجب من فهم الأمير محمد وذكاء فطنته وبعد غوره وكون فكرته ، ويقول : هكذا تُعرفُ بُنُو أُمِّيَّة ، لم يكونوا لِيُلْئُمُوا ولا لِيُخْدِعُوا ! (١) .

الزهرة السابعة والستون :

جاء رجل إلى نبي الله سليمان عليه السلام ، فقال له ، يا نبي الله إنه كانت لي إِوزٌ فسرقت . فنادى في الناس : الصلاة جامعة ! ثم خطبهم فقال في خطبته : أيها الناس ، ما بال أحدكم يسرق إِوزة جاره ثم يدخل المسجد والريش على رأسه ؟ ! فمسح رجل على رأسه ، فقال سليمان : خذوه فهو صاحبكم (٢) .

الزهرة الثامنة والستون :

كان (٣) المنصور بن أبي عامر قد اشتري من تاجرٍ جَوَهْرِيَّ قصده من بلاد المشرق من عَدَن بصرة فيها دُرٌّ كثير وأحجارٌ نفيسة ، فاشترى منها ما استحسنَه ودفع إلى الجوهري بقيمة متاعه في صُرَّته . فانطلق عنه وأخذ على

(١) ورد هذا الخبر مع بعض الاختلاف في التفاصيل في كتاب أخبار مجموعة من ١٤٦—١٤٧

(٢) وردت هذه القصة في عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٠٦/١ وفي محاضرات الأداء للراغب الأصفهاني (المطبعة الشرفية ، القاهرة ١٣٢٦) ٨٤/٢؛ وفي أخبار الظراف والتماثجين لابن الجوزي (دمشق ١٣٤٧) ص ١٥؛ وفي الأذكياء لابن الجوزي أيضاً ص ١٦ . والقصة شائعة في الأدب الشعبي المصري ، ومنها أخذت العبارة المشهورة التي تجري مجرى المثل «الحرامي على راسه ريشة» .

(٣) وردت هذه القصة مختصرة في البيان المقرب لابن عذاري ٢٩١/٢—٢٩٢؛ ووردت أيضاً في نفح الطيب للقرى مرتين : المرأة الأولى تقللان عن المقرب لابن سعيد مختصرة ومع قدر غير قليل من الاختلاف في التفاصيل (٤٠١/١—٤٠٢) ، والمرأة الثانية بالفظ أبي مروان ابن حيان القرطبي (٤١٢—٤١٣) ، وهي هنا تكاد تتطابق نص ما ورد في هذه الزهرة . ومن الواضح أن النص هنا — وإن لم يشر المؤلف إلى ذلك — منقول عن ابن حيان ، ففيه كل خصائص أسلوبه .

طريق الرملة^(١) إلى الشَّطْ بقرطبة . فلما توسطها واليوم فائظ وعرقه مُنصب دعنه نفسه إلى التبرد في النهر ، فنضا ثيابه وجمعها على الشط ، ووضع تلك الصُّرَّةَ عليها ، وأقبل على شأنه . فَرَّتْ حِدَأَةً ، فاختطفت صرتها تلك تحسها لحاماً ، وصاحت بها في الأفق ذاهبة ، فقطعت الأفق الذي أدركته عينه . فقامت عليه القيامة وعلم أن البلية لا تستدفع بدوعى ولا حيلة ، فأسر ما في نفسه ، ولحقته من أجلها عِلَّةً اضطرب فيها .

وحضر الدفع إلى التجار ، فجلس المنصور بن أبي عامر لذلك بنفسه ، فاستبان ما بالرجل^(٢) من المهانة وقد ما عهده عليه من شدة العارضة ، وسأله عن شأنه ، فأعاد عليه القصة . فقال : هلاً أتَيْتَ إلينا والأمر حدثان وقوعه ؟ فكنا نستظير على الحيلة ! فهل هديتَ إلى الناحية التي أخذ الطائر نحوها ؟ قال : مَرْ مُشَرِّقاً على سُمْتِ هذه الجنان التي تلى قصرك — يعني الرملة — . فدعى أحد الخدام من كأن واقفاً بين يديه . فقال : جئني بشيخة^(٣) أهل الرملة الساعة . فمضى وجاء بهم مسرعاً ، فأمرهم بالبحث عن غير حال الإقلال منهم سريعاً وانتقل عن الإضافة بلا تدرج من عرضهم ، فتناولوا في ذلك ثم قالوا : يا مولانا ، ما نعلمه إلا رجال من ضعفائنا كان يعمل هو وولده بأيديهم ويتناوبون الشيء [١٤٨] بأنفسهم عجزاً عن شراء دابة ، فاكتسح هو وبنته كسوة متوسطة . قال : وأي جنة بيده ؟ قالوا : المعروفة بالنخلة . قال : هذه واحدة . وأمر بإحضاره في خبر غده ، وأمر الساجر بالغدو إلى الباب .

(١) اسم الرملة كان يطلق على الطريق المرصوف المتبدجناء الشط الشمالي للوادي الكبير بقرطبة ، فيما يلي ما كان يعرف باسم « الجانب الشرقي » وتطل على هذا الطريق المنطقة الفخمة التي كان المنصور بن أبي عامر قد بنى فيه مدينة الزاهرة التي اتخذها مقراً لحكمه . انظر ليفي بروفنسال : تاريخ الأندلس ٣٦٧/٣ وانظر الخريطة الموضوعية في هذا الكتاب ص ٣٦١ .

(٢) في الأصل : بالرجال .

(٣) في الأصل : بشيخه .

وأحضر ذلك الرجل بعينه وهو طيب النفس ، فاستدناه المنصور والتاجر حاضر وقال له : سبب ضاع لنا وسقط إليك . ما صنعتَ فيه ؟ قال : هو هذا يا مولانا ! وضرب يده إلى حُجزَةِ سراويله ، فأخرج الصرة بعينها ، ووضعها بين يديه ، فكاد التاجر يطير فرحاً . فقال : صِفْ لى حديئها ، قال :

يَيْنَا أَنَا أَعْمَلْ تَحْتَ نَخْلَةَ فِي جَنَانِي إِذْ سَقَطَتْ عَنْ حِدَاءِ أَمَّا حِي ، فَلَقَطَتْهَا ،
وَرَاقَى مَنْظَرُ أَحْجَارِهَا ، فَدَسْتُ أَنَّ الطَّائِرَ اخْتَلَسَهَا مِنْ قَصْرِكَ لِقَرْبِ الْجَوَارِ ،
فَاحْتَرَسْتُ بِهَا وَدَعْتُنِي الْحَاجَةَ إِلَى أَخْذِ عَشْرَةِ مَثَاقِيلِ عَيْوَنَانِ كَافَتْ مَصْرُورَةَ
مَعْهَا ، وَقَلْتُ : أَقْلَى مَا فِي كَرْمِ الْمَنْصُورِ أَنْ يُسْمِحَ لِي بِهَا مَعْ حَرَاسَةَ مَا
كَانَ مَعْهَا .

فَأَعْجَبَ الْمَنْصُورَ مَا كَانَ مِنْهُ وَقَالَ لِلتاجر : دُونَكَ صُرَّتَكَ ، فَانظِرْهَا
وَاصْدُقْنِي عَنْ عَدْدِ مَا تَضَمَّنَتْهُ . فَفَعَلَ ، فَزَادَ اسْتِبْشَارَهُ وَقَالَ : وَحْقٌ رَأَسِيكَ
يا مولانا ، ما ضاع منها شيءٌ سوى الدنانير التي ذكرها ، وأنا قد وهبتها له .
قال : نحن أولى بذلك منك ولا تنقصك فرحتك . ولو لا جمعه بين الإصرار
والإقرار لكان ثوابه موفوراً عليه .

ثُمَّ أَمْرَ بِإِحْضَارِ عَشْرِينَ دِينَاراً وَقَالَ : ادْفِعْ إِلَى التاجر شطْرَهَا عِوْضًا مِنْ
دَنَانِيرِهِ وَإِلَى الْجَنَانِ الشَّطْرُ الْآخَرُ ثُوابًا لِتَأْنِيهِ عَنْ إِفْسَادِ مَا وَقَعَ بِيْدِهِ . وَلَوْ
بَدَأْنَا بِالاعْتَرَافِ لَأَوْسَعْنَا عَطَاءَهُ .

فَقَامَ التاجر مُسْتَحْنِفًا فِي التَّنَاءِ عَلَى الْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ قَدْ عَاوَدَهُ نِشَاطَهُ ،
فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا يُبَيِّنَ فِي الْأَقْطَارِ عِظَمَ مُلْكِكَ وَلَا يُبَيِّنَ فِيهَا أَنَّكَ تَمْلِكُ [١٤٩]
طَيْرَ بِلَادِكَ كَمَا تَمْلِكُ إِنْسَهَا ، فَلَا تَعْتَصِمُ مِنْكَ وَلَا تَؤْذِي جَارِكَ . فَاسْتَضْمَحَكَ
الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ ، وَقَالَ : أَقْصَدُ فِي قَوْلِكَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ ! وَعَجَبَ النَّاسُ
مِنْ لَطْفِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ فِي أَمْرِهِ ، وَحِيلَتِهِ فِي تَفْرِيجِ كُرْبَيْهِ .

الزهرة التاسعة والستون :

قَدِمَ^(١) بعضاً التجار من خراسان ليحجّ ، فتأهّب للحجّ ، وبقي معه من ماله ألف دينار لا يحتاج إليها ، فقال : إن حملتها خاطرت بها ، وإن أودعتها خفت جحّد المودع ، فمضى إلى الصحراء ، فرأى شجرة خرّوع ، فنفر تجاهها ودفعها . ولم يره أحد . ثم مضى إلى الحجّ ، وعاد ، فنفر المكان ، فلم يجد شيئاً ، فجعل يبكي ويلطم ، فإذا سُئل عن حاله قال : الأرض سرقت مالي ! فلما كثر ذلك عليه قيل له : لو قَصَدْتَ عَصْدَ الدُّوَلَة^(٢) ، فإن له فطنة . قال : أو يعلم الغيب ؟ قيل له : لا بأس بقصده .

فقصده فأخبر بقصده ، فجمع الأطباء وقال لهم : هل داولتم في هذه السنة أحداً بعروق الخروع ؟ فقال أحدهم : أنا داولت فلاناً وهو من خواصك . فقال : على به . فجاء ، فقال له : هل تداوين في هذه السنة بعروق الخروع ؟ قال : نعم . قال : من جاءك به ؟ قال : فلان . قال : على به . فلما جاء قال له : من أين أخذت عروق الخروع ؟ قال : من المكان الفلاني . فقال له : اذهب بهذا معك فأره المكان الذي أخذت منه . فذهب معه بصاحب المال إلى تلك الشجرة ، وقال : من ها هنا أخذت . فقال الرجل : ها هنا

(١) وردت هذه القصة بالفاظها تقريباً في كتاب الأذكياء لأبي الفرج ابن الجوزي ص ٥٥ - ٥٦

(٢) أبو شجاع فنا خسرو الملقب عضد الدولة بن ركن الدولة أبي على الحسن بن بويه الديلمي ، أعظم ملوك الدولة البويمية . ولد سنة ٣٣٤ وولي فارس بعد وفاة عممه عماد الدولة ثم تقلب على العراق وانتزعها من يد ابن عممه عز الدولة بختيار بن معز الدولة وضم كذلك الموصل وبلاط الجزيرة ، وهو أول من خطب له على المنابر بغداد مع الخليفة وتلقب بألقاب الملك . وتوفي ببغداد سنة ٣٧٢ . راجع ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان ٤ / ٥٠ - ٥٥ ، رقم ٥٣٢ وما ورد بخاشية هذا الموضع من مصادر .

والله تركت مالى ، فرجعا إلى عصُدِ الدولة ، فأخبراه ، فقال للرجل : هلْمَ المال فهو قبلك ! وتوعده . فأحضر المَال فدفعه عصُد الدولة لصاحبـه . فشكـره ودعـاه ، وانصرف .

الزهرة السبعون :

جلس^(١) الخليفة أبو جعفر المنصور يوماً في أحد متزهاته المشرفة على دِجْلَة ، فرأى رجلاً مهوماً ملهموفاً يحول في الطرقات . فأرسل من أتاه به ، فسأله عن حاله ، فأخبره الرجل أنه خرج في تجارة له فأفاد مالاً ، وأنه رجع بالمال إلى منزله ، فدفعه إلى أهله ، فذكرت امرأته أن المال سُرق من بيتها ، ولم يَرْ نقياً ولا ما يستدل به على أخذه من الدار . فقال له المنصور : مُذْكُمْ تَزَوَّجْتَها ؟ قال : منذ سنة . قال : أَفِيَكِراً تزوجتها ؟ قال : لا . قال : فلها ولد من سواك ؟ قال : لا . قال : فشابة هي أم مُسِينة ؟ قال : بل حدَثَةٌ . فدعا المنصور بقارورة طيبٍ كان يُتَّخَذُ له حادٌ الرائحة غريب النوع ، فدفعها إليه ، وقال له : تطيّبْ من هذا الطيب فإنه يُذَهِّبُ هَمَكَ .

فلما خرج الرجل من عند المنصور قال المنصور لأربعة من ثقاته : ليقعد على كل باب من أبواب المدينة واحد منكم فلن مرّ به فشم منه رائحة هذا الطيب — وأشـمـهـمـ^(٢) منه — فليتأتـنـيـ بهـ .

وخرج الرجل بالطيب ، فدفعه إلى امرأته وقال لها : وَهَبْهُ لـ أمـيرـ المؤمنـينـ . فلما شـتـهـ بـعـثـتـ إـلـىـ رـجـلـ كـانـ تـحـبـهـ ، وـقـدـ كـانـ دـفـعـتـ المـالـ إـلـيـهـ فـقـاتـلـتـ لـهـ : تـطـيـبـ مـنـ هـذـاـ طـيـبـ إـنـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ وـهـبـهـ لـ زـوـجـيـ . فـقـطـيـبـ

(١) وردت هذه القصة نقشـهاـ فـيـ كـتـابـ الأـذـكـيـاءـ لـابـنـ الجـوزـيـ صـ ٤١ـ ، وـكـذـلـكـ فـيـ نـهاـيةـ الأـرـبـ لـلـتـوـيرـىـ ١٥١/٣ـ

(٢) فـيـ الـاـصـلـ : وـأـشـمـهـمـ .

الأمراء من أولاد خلفاء بني أمية بالأندلس في أنسٍ قد طَمَّا به سروره ، وكان صاحب فنصٍ تغلب عليه لَذَّته ، فاستدعي بازِيَا عتيقاً كان كلفاً به ، مشفقاً عليه ، كثير التَّعَهُّدِ له ، فادْبَى إِلَيْهِ ، وجعل يمسح أعطاوه ويعَدِّ قوادمه ، ويرتاح لنشاطه . فسألَه هذا المغنِّي ابن زرياب أن يهبه له إِنْ إِطْرَاهِ إِيَاهُ ، فاستحبَّها من رده ، وأعطاه إِيَاهُ مع ضَنَّهِ به . فدفعه ابن زرياب لغلامه ليُعَجِّلَ به إِلَى مَنْزِلِهِ ، وأَسَرَّ إِلَيْهِ بِسْرَ لم يُطْلَعْ عليه من حَضَرِهِ .

فضى لشأنه ، ولم يلبث به أن جاءه بطَيْفُورٌ^(١) مُغطَّى ، فكشف عنه ، فإذا فيه لون مَصْوَصٍ^(٢) قد اتَّخِذَ له من البارزي بعد ذبحه على ما حده لأهله ، فوضعه بين يدي الْأَمِيرِ الذي كَانَ عندَهُ . وقال له : شاركَنِي يا سيدِي في طعامِي هذا ، فإِنَّه شريف التَّرْكِيبِ ، بدِيم الصناعةِ .

فَلَمَّا رَأَهُ الرَّجُلُ أَنْكَرَ صِفَتَهُ ، وعَافَ لَهُ ، وسَأَلَهُ عَنْهُ ، فَقَالَ : هُوَ الْبَارِزِيُّ الَّذِي كَنْتُ تُعَظِّمُ قَدْرَهُ وَلَا تَصْبِرُ عَنْهُ ، فَقَدْ صَيَّرْتُهُ إِلَى مَا تَرَى . فَفَضَّبَ صاحبُ الْمَنْزِلِ حَتَّى رَأَاهُ فِي أَنْوَابِهِ ، وَفَارَقَهُ حَلْمُهُ ، فَقَالَ لَهُ : قَدْ كَانَ وَاللَّهِ أَيْهَا الْكَلْبُ السَّفِيهُ عَنِّي عَلَى مَا قَدَرْتُهُ وَلَا اهْتَدَيْتُ فِيهِ إِلَّا بِكَبَارِ

(١) في تفتح الطيب : بطيفورية . والصواب ما جاء في الأصل . والطيفور لفظ شائع كات مستخدماً في الأندلس ، وقد دخل إلى اللغة الإسبانية وأصبح من تراجمها اللغوية في صورة Ataifor ، ولهذا اللفظ كما ورد في معجم اللغة الإسبانية الذي وضعه المجمع اللغوي الملكي معنيان :

— الأول : صحن كبير عميق يستخدم لتقديم اللحوم .

— والثاني : مائدة صغيرة مستديرة كان استخدامها شائعاً بين مسلمي الأندلس .

وتتبَّعُ هذا اللفظ واستخدامه في التوصوص العربية يصدق هذين المعنين ، فساق النص الذي يَنْبَغِي أَنْ يكون الطيفور الذي أَعْدَّ فيه لون المصوَصِ هذا من البارزي بالمعنى الأول أي الصحن الكبير العميق . أما بالمعنى الثاني أي المائدة الصغيرة فهو كثير الوزود في مجموعة الوثائق الغرقاتية التي نشرها المهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٦١ بتحقيق الأستاذ سِيكُو دِي لوبيانا . انظر من ٤٩ من القدمة الإسبانية وص ٥٢ من الترجمة الإسبانية (مسرد الألفاظ ذات الدلالة الخاصة)

Luis Seco de Lucena: *Documentos árabe-granadinos*, Instituto (Egipcio) de Estudios Islámicos, Madrid 1961, pp. XLIX, 152.

(٢) المصوَص ، بفتح الميم ، لحم يطبخ في الخل ويطبخ .

[٣٦] المؤثرين لمثله . وما أَسْعَفْتَكَ بِهِ إِلَّا مُعَظَّمًا مِنْ قَدْرِكَ مَا اسْتَصْغَرْتَ مِنْ قَدْرِي ، وأَظْهَرْتَ مِنْ هُوَانِي وَهُوَانِ الشَّنَّةِ ، باسْتَحْلَالِكَ لِسَبَاعِ الطَّيْرِ الْمَهِيّ عَنْهَا ، وَلَا أَدْعُ وَاللَّهُ الْآنَ تَأْذِيبَكَ إِذَا أَهْمَلْتَ أَبُوكَ مُعَلِّمَ النَّاسِ [١٥٣] الْمَرْوَةَ .

فَدَعَا لَهُ بِالسُّوتُ ، وَأَمْرَ بِنَزْعِ قَلْنَسُوْرِهِ ، وَسَاطَ هَامَتَهُ مَائَةً وَافِيَّةً .
فَاسْتَحْسَنَ النَّاسُ فَعْلَهُ ، وَأَبْدَوُا الشَّمَائِتَةَ بِهِ .

الزهرة الثالثة والسبعون :

ذَكَرَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ مُوسَى الْمَادِيَ كَانَ يَوْمًا فِي بَسْطَانِهِ ، وَمَعَهُ أَهْلَ بَيْتِهِ وَبِطَانَةً دُولَتِهِ ، وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى حَمَارٍ ، وَلَيْسَ مَعَهُ سَلاحٌ . فَدَخَلَ عَلَيْهِ حَاجِبَهُ ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْخَوَارِجِ جَاءَ بِهِ أَسِيرًا ، وَكَانَ الْمَادِي حَرِيصًا عَلَى الظَّفَرِ بِهِ ، فَأَمْرَ بِإِدْخَالِهِ بَيْنَ رَجُلَيْنِ قَدْ أَمْسَكَا بِيَدِيهِ .

فَلَمَّا رَأَى الْخَارِجِيَّ الْمَادِيَ جَذَبَ يَدِيهِ مِنَ الرَّجُلَيْنِ الَّذِينَ كَانَا يَمْسَكُانُهُ ، وَاخْتَرَطَ سَيْفَ أَحَدِهِمَا ، وَوَثَبَ نَحْوَ الْمَادِيِّ . وَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مَنْ كَانَ حَوْلَ الْمَادِيِّ مِنْ أَهْلِهِ وَخَاصِّتِهِ فَرَوَا جَمِيعًا ، وَبَقِيَ الْمَادِيُّ وَحْدَهُ عَلَى حَمَارِهِ بِمَكَانِهِ . حَتَّى إِذَا قَرَبَ الْخَارِجِيِّ مِنْهُ وَكَادَ يَعْلُوَ بِالسَّيْفِ قَالَ الْمَادِيُّ : اضْرِبْ عَنْقَهِ يَا غَلامَ ! .

فَالْتَّفَتَ الْخَارِجِيُّ حِينَ سَمِعَ ذَلِكَ ، وَوَظَنَ أَنَّ الْغَلامَ كَانَ مِنْ وَرَائِهِ . فَوَثَبَ الْمَادِيُّ عَنْ سَرْجِهِ ، فَإِذَا هُوَ عَلَى الْخَارِجِيِّ ، وَسَقَطَ الْخَارِجِيُّ تَحْتَهُ . فَقَبَضَ الْمَادِيُّ عَلَى يَدِيهِ ، وَانْتَزَعَ مِنْهُ السَّيْفَ ، فَذَبَحَهُ بِهِ ، ثُمَّ عَادَ إِلَى ظَهَرِ حَمَارِهِ مِنْ فَوْرِهِ ، وَتَرَاجَعَ إِلَيْهِ خَاصَّتَهُ وَأَهْلِهِ وَقَدْ مُلْثُوا رِعَابًا وَحَيَاةً مِنْهُ فَمَا خَاطَبُوهُمْ فِي ذَلِكَ بِحِرْفٍ ، وَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ يَفْارِقُهُ سَيْفًا ، وَلَا يَرْكِبُ إِلَّا الْخَيلَ .

الزهرة الرابعة والسبعون :

لما ثار أهل الربض بقرطبة على الأمير الحكيم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية ، وجاهموا بالمعصية ، وحملوا السلاح عليه وزحفوا في جموعهم إلى باب القصر يقاتلونه ويُسْطُونَ أسلتهم فيه ، وهم كالجراد [١٥٤] المنتشر كثرة ، على الكريهة والإيقاع به ، وأحاطوا بقصره ، فلم يُشكَّ هو ومن معه بأنهم مغلوبون غَرَبَ في بألاء حربه هذه ، عند ما حَيَّ وطيسُها ، وأعْضَلَ خطبُها ، بناءً على من نوادر الصبر والتوطين^(١) [١٨] على الموت ما سمع لأحد من الملوك مثلها ، وذلك أنه في مقامه بالسطح وعند بصره باشتداد الحرب وجثوم الكلب وقمعة السلاح وانتماء الأبطال قال خادم كان واقفاً على رأسه^(٢) : جئني بقارورة غالٰية^(٣) . فكان الخادم شك في طَبِيتَه واتهم سمه ، فتوقف عن المُضيّ لما أمره به^(٤) . فصاح به وأعاد عليه بطلها ، فلما أتاها بها غَشَّى بها رأسه ولحيته ، ولم يملك الخادم نفسه أن قال له : وأيَّةً ساعة طيب هذه^(٥) يا مولاي ، وقد ترى ما نحن فيه ! فقال له : اسكت ، قبحك الله ، وكيف يعرف قاتل الحَكَمَ رأسه من رأس غيره إذا هو حَزَّه ؟ فعجب الخادم ومن حَضَرَه من قوة نفسه وطيبة على المكروره مع إبلاغه في حماية سلطانه . ثم شد على نفسه ،

(١) عند هذا الموضع ينتهي الغرم الواقع في المخطوطة ب والمتمد من الزهرة الثانية والأربعين، مما جعلنا نعتمد في الصفحات السابقة على نسخة ١ وحدها بصفتها أصلًا وحيدًا . وابتداء من هنا حتى آخر الكتاب سوف يكون اعتمادنا على الأصلين معاً .

(٢) ذكرت المصادر الأخرى اسم هذا الخادم ، فابن القوطيه وابن حيان الذي ينقل عنه يذكر أنه باسم « يرنٰت » (ويقابل بالاسبانية Jacinto ومعنه ياقوت) وصاحب الأخبار المجموعة يذكره باسم « بزنٰت » (بالاسبانية Vicente) . انظر الخلاف حول ذلك في كتاب ليون بروفنسال : تاريخ اسبانيا الإسلامية ١٩٠—١٩١ وحاشية رقم ٣ ؛ والحلة السيراء لابن الأبار ٤٦/١ ، حاشية رقم ١ .

(٣) الغالية أخلط من الطيب ، وقد انتقلت هذه الكلمة إلى المعجم الاسباني بنفس صورتها العربية (algalia) وبنفس المعنى .

(٤) هذا اللفظ ساقط من النسخة ١ .

(٥) في ١ : هذا وقد أثبتنا ما في ب .

وَاسْتِلَامُ لِلْحَرْبِ ، وَشَرَّ عَنْ سَاعِدِهِ ، وَرَتَبَ الْكَتَابَ ، وَعَبَّا الرُّدوَّةَ وَكَرْدَسَ الْكَرَادِيسَ ، وَأَخْرَجَ الْجَنْدَ وَالْعَبْدَ ، فِي جَالِدُوهُمْ عَلَى بَابِ الْقَنْطَرَةِ جَلَادًا شَدِيدًا فَانْهَزَمُوا أَعْظَمُ هَزِيمَةٍ ، وَقُتِلُوا مَقْتَلَةً عَظِيمَةً ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا هُوَ مَشْهُورٌ^(١).

الزهرة الخامسة والسبعون :

لَا أَظْفَرَ [الله]^(٢) الْأَمِيرَ الْحَكَمَ بِأَهْلِ الْرِّبْضِ الْقَائِمِينَ عَلَيْهِ بِقَرْطَبَةِ شَاوِرِ فِيهِمْ كَاتِبُهُ فَطَيْسَ بنُ سَلِيَانَ^(٣) وَحَاجِبُهُ عَبْدُ الْكَرِيمِ بنُ مَغِيثٍ^(٤) وَقَاضِيهِ الْفَرْجَ بنَ كَنَانَةَ^(٥)؛ فَأَشَارَ عَلَيْهِ فَطَيْسَ بنُ سَلِيَانَ بِالْإِنْخَانِ فِي الْقَتْلِ وَاسْتِبَاحَةِ الْعَامَةِ وَهَدَمَ الرَّبَّصِ وَتَعْفِيَةَ أَثْرِهِ وَتَحْرِيمَ الْبَنَاءِ فِيهِ مَا كَانَ [١٥٥] لِهِمْ سُلْطَانٌ

(١) عن ثورة الربض انظر ليفي بروفنسال : تاريخ إسبانيا الإسلامية ١ / ١٦٥ - ١٧٠ . وقد وقعت هذه الثورة في سنة ٢٠٢ (٨١٨).

(٢) زيادة يقتضيها السياق . وفي ١ : لَا ظَفَرَ الْأَمِيرَ الْحَكَمَ ..

(٣) أبو سليمان فطيس بن سليمان ، دخل الأندلس في أيام عبد الرحمن الداخل وولى له ولايات عديدة ، وكذلك لابنه هشام ، فلما اعتلى الإمارة الحكم بن هشام أمضاه على الوزارة وأسنده إليه الكتابة وكان له في وقة الربض مقام محمود ، وكانت وفاته في أواخر أيام الحكم أو أوائل أيام عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٠٧ (٨٢٢) . انظر عنه ما كتبناه في تعليقاتنا على الجزء الخامس بإمارة عبد الرحمن بن الحكم من المقتبس لابن حیات من ٧٦ من النسخ والحاشية رقم ١٨٦ من التعليقات (من ٤٨٢) حيث أوردنا قائمة كاملة بالមراجع التي أوردت ذكره .

(٤) عبد الكرييم بن عبد الواحد بن مغيث حاچب الأمیر الحکم وکاتبه وقائدہ ویصفہ الرازی بآنه « أکمل من ولی الحجاۃ لبی مروان » و بعد من أعظم رجالات دولة الأمويين في الأندلس . توفي سنة ٢٠٩ (٨٢٤) في أيام عبد الرحمن بن الحكم . وقد استوفينا الحديث عن المراجع التي أوردت ذکرہ في تعليقاتنا على المجلد الذي أشرنا إليه من المقتبس من ٢٥ تعلیق رقم ٨٢ من ٤٤٤-٤٤٦ .

(٥) الفرج بن كنانة الكلناني الشذووني قاضي الجماعة للأمير الحکم بن هشام . توفي سنة ١٩٨ (٨١٤) . انظر في ترجمه الحشني : كتاب القضاة بقرطبة ، بتحقيق خولييان ريبيرا ، مدرید ١٩١٤ من ٧٦-٧١ ؛ ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس من ٥٨ ؛ ابن الفرضي ، ترجمة رقم ١٠٢٨ ؛ الحيدی : جذوة ، رقم ٧٦٢ ؛ ابن سعد : المغرب ١ / ١٤٦ ؛ ابن الخطیب : أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس من ١٢ ؛ النباھی : المرقبة العليا من ٥٣ ؛ لیفی بروفنسال : تاريخ إسبانيا الإسلامية ١ / ١٤٤ .

بالأندلس^(١) ، وأشار عليه حاجبه عبد الكريم بن مغيث بضد ذلك من الصفح والإبقاء ، وقال له : إن الله قد أحسن إليك بالظفر ابتلاء لك ، فأحسن إلى خلقه بعفوك عنهم ، وأشار عليه قاضيه الفرج بن كنانة بالصفح عنهم ، وقال له : أيها الأمير ، إن قُرْيَشًا حاربت رسول الله صلى الله عليه وسلم وطردته وبالغت في أذاه ، وناصبته العداوة وهو يدعوه إلى المدى ، ثم كان من صفحه عنهم لما أظفره الله بهم ما قد علمته ، وأنت أحق الناس بالاقتداء به لقربتك منه ومكانتك من خلافته في عباده .

فقدَعَ^(٢) ذلك منه [٨ ب] وبذل الأمان لِفَلَّ^(٣) القوم على الجلاء عن أوطانهم بقرطبة ، فأجفلوا في المرب الذي عَلَّقُوا^(٤) الأمان عليه ، ففروا عنها إلى كل جهة ، متفرقين في أقصى الكور وأطراف الغور .

وخرجت منهم ثلاثة طوائف كبار :

الطائفة الواحدة منهم فروا إلى طليطلة ، واعتموها لأجل خلاف أهلها على الخليفة الحكيم ، فاستقروا فيها حتى أوقع بعد ذلك بأهلها وبهم في الجلة^(٥) .

(١) على الرغم مما يذكره المؤلف هنا من أن الأمير الحكم أخذ بشورة حاجبه عبد الكريم بن مغيث وقاضيه الفرج بن كنانة من الصفح عن ثوار الريض فإن الواقع يدلنا على أنه أخذ برأي وزيره فطيس بن سليمان في هدم الريض وتفصية أمره وتحريم البناء فيه ، بل إنه أوصى إلى من ثلاثة من أمراء بي أمية ألا يسمحوا بعودة المباني إلى الريض وظلت وصيته محترمة نحو قرنين من الزمان إذ لم يبدأ في البناء فيه إلا في أيام الحاجب المظفر عبد الملك بن أبي عامر في العقد الأخير من القرن الرابع المجري . انظر المقني لابن حيان بتحقيقنا ، حاشية رقم ٥٧ من ٤٤٨ — ٤٤٩ ، وليفي بروفنسال : تاريخ ٣٨٠ / ٣ — ٣٨١ .

(٢) في ب « قدم » ، وقد أبتنا ما ورد في « ١ » وهو الصواب . يقال « قدع » بمعنى كف ومنع . ولفظ ذلك ساقط من ا .

(٣) في ب « بَلْ » وقد أبتنا ما جاء في « ١ » وهو الصواب .

(٤) في ب « علق » .

(٥) أشار ابن سعيد أيضاً إلى هذه الطائفة التي لحقت بطيطلة وذكر أنهم كانوا مهاجرين من القتيل الذي كان قد لحق بدار الحرب (أي أرض النصارى) ولوه عليهم (انظر المغرب ٤٢ / ١) . كذلك ذكر ابن الخطيب في أعمال الأعلام (ص ١٥) أن أحد أجداده الأولين المعروف بابن وزير كان من بين هؤلاء المهاجرين إلى طليطلة . انظر ما كتبه ابن الخطيب عن أولية بيته (المقري : نفح ٥٠ / ٥) وانظر كذلك ليفي بروفنسال (تاريخ ١٦٩ / ١) .

والطاقة الثانية توجهت إلى العدوة بلاد البربر ، ونزلوا بعدوة الأندلسين من مدينة فاس^(١) ، ومن حين نزولهم بها نسبت إليهم ، فقيل «عدوة الأندلسين» ، وبهم عمرت تلك العدوة وكثير أهلها وتقدّمت ، وكان ذلك سنة اثنين ومائتين وأميرها إذ ذاك القاسم بن الأمير إدريس بن إدريس^(٢) - الوالص إلى المغرب - بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم^(*) . وكان بين بنيانها وبين بنيان مدينة فاس القديمة ثلاثون سنة ، فإن مدينة فاس [١٥٦] بنيت سنة اثنين وسبعين ومائة لما دخل إلى بلاد المغرب جده إدريس[ُ] بن عبد الله المذكور هارباً بنفسه من أبي جفر المنصور^(٣) ، إذ كان قد خرج عليه مع الحسين بن علي [بن الحسين]^(٤)

(١) حول استقرار هؤلاء الأندلسين بتلك العدوة المنسوبة إليهم من مدينة فاس انظر البحث الذي اختص ليف بروفنسال به هذه المسألة في كتابه الإسلام في المغرب والأندلس : Lévi-Provençal: *L'Islam d'Occident*, pp. 1-41.

الأستاذين الدكتور السيد عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلبي ، القاهرة ١٩٥٨ ، المقالة الأولى) وقد عاد بروفنسال إلى الكتابة عن ذلك في تاريخه (١٧٠/١).

(٢) المحقيقة أن المغرب الأقصى كان في ذلك الوقت (سنة ٨١٨/٢٠٢) تحت حكم إدريس الثاني بن إدريس الأول (مؤسس الدولة) بن عبد الله بن الحسن إذ كانت وفاة إدريس هنا في سنة ٢١٣ (٨٢٨) وقد خلفه ابنه محمد الذي اتخذ مدينة فاس عاصمة له ، وولى أخاه القاسم المذكور هنا على البصرة وطيبة . وربما كان المقصود أن القاسم كان يتولى حكم مدينة فاس في ذلك الوقت أخيه محمد الأبيه . (عن القاسم المذكور انظر ترجمته في ابن الأبار : الحلقة السيراء ١٣١/١ وما بعدها ، وتلخيص الدكتور مؤنس في حاشية هذا الموضع) . والحقيقة أن جدول نسب الأسرة الإدريسية وسنوات حكم أمرائها لا يزال فيه اضطراب كثير يحتاج إلى مزيد من التحقيق .

(*) على حلية هذا الموضع في نسخة « ١ » بخط مختلف عن خط النسخ هذا التعليق : « من أخبار الأدارسة ، وفيه تخليط » .

(٣) لهذه العارة أهمية كبرى في تحديد التأسيس الأول لمدينة فاس ، فقد كان الشائع بين المؤرخين (اعتماداً على كتاب رون الفرطاس لابن أبي زرع وغيره) أن الاختطاط الأول لفاس كان على يد إدريس الثاني بن إدريس الأول الحسني . وقد أعاد ليف بروفنسال بحث هذه المسألة في كتابه الذي أشرنا إليه عن اختطاط مدينة فاس واتهى من دراسته إلى أن مؤسس فاس المحقق كان إدريس الأول بن عبد الله بن الحسن ، وأن ذلك كان سنة ١٧٢ (٧٨٩) وقد اعتمد بروفنسال في تأكيد هذه النتيجة على نص للرازي المؤرخ الأندلسي جاء في الحلقة السيراء لابن الأبار (بحث مؤنس ٥٤/١ - ٥٥) وعلى عبارات أخرى لمؤرخين متاخرين . وبما أن النص الآخر صريحاً في تحديد تاريخ اختطاط فاس القديمة بسنة ١٧٢ على يد إدريس الأول كما نرى ، وفي شهادة لصحة ما ذهب إليه ليف =

بن حسن بن الحسن بن على بن أبي طالب رضي الله عنهم ، فُقِتِلَ الحسينُ
فـ وـ قـيـعـةـ فـخـ ، وـ تـفـرـقـ أـصـحـابـهـ (١) ، فـلـجـأـ إـدـرـيـسـ إـلـىـ الـغـربـ فـ خـبـرـ طـوـيلـ ،
فـاجـتـمـعـ عـلـيـهـ الـبـرـبـرـ ، وـقـدـمـوـهـ عـلـىـ أـنـفـسـهـمـ وـبـنـواـ لـهـ مـدـيـنـةـ فـاسـ ، وـكـانـتـ أـجـمـعـةـ
شـعـرـاءـ ، وـلـاـ اـحـتـفـرـتـ أـسـاسـاتـهـ أـلـفـيـ فـيـ بـعـضـهـاـ فـاسـ ، فـسـمـيـتـ مـدـيـنـةـ فـاسـ
بـسـبـبـ ذـلـكـ . وـالـحـدـيـثـ فـيـ مـثـلـ هـذـاـ إـنـ تـتـبـعـ يـطـولـ .

والطاقة الثالثة وكانت طائفة عظيمة ذات عِدَّة وجَلَّى بلغت خمسة عشر ألفاً ركباً البحر من مرسى بَجَانَة^(٢) ، وأصدعوا نحو الشرق حتى أتوا إلى الإسكندرية ؛ وعَارَّهُمْ أهلها فَسَطَّوا بهم سطوةً مُنْكِرَة هزموهُمْ غَبَّهَا^(٣) وبذلوا السيف فيهم فقتلوا منهم وملَكُوكُهَا^(٤) . وكان سبب ثورتهم على أهل الإسكندرية

بروفنسال حول هذا الموضوع . وقد أورد الدكتور أحمد مختار العبادي والأستاذ ابراهيم الكتاني في تعليقهما على النسخ المحمى بتأسيس مدينة فاس من كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب (القسم الثالث الخاص بتاريخ المغرب العربي ، نشر الدار البيضاء سنة ١٩٦٤ من ١٩٨-١٩٩) موجزاً طيناً لآراء لين بروفسال حول هذه المسألة . وقد وافقه في نهاية بحثهما على رأيه .
 (٤) تكميلاً لازمة لصحة الاسم والنسب .

(١) عن وقعة فتح الكائنة في يوم التروية ٨ من ذى الحجة سنة ١٦٩ (١١ يونيو سنة ٧٨٦) وعن مصرع الحسين بن علي فيها انظر تاريخ الطبرى ٤٠٦ وصروح الذهب للسعودى ٢٤٨/٣ واليمقونى ١٣٧ وابن تفري بردى النجوم الزاهرة ٥٩ وأبو الفرج الإسپهانى : مقاتل الطالبيين ، بتحقيق السيد صقر ، من ٤٣١ .

(٢) في ب: بيجاية وهو تحرير، إذ المقصود هو بجاية Pechina التي كانت من أهم مرايى الساحل الاندلسي الجنوبي قبل أن يبني عبد الرحمن الناصر مدينة المرية في سنة ٣٤٤-٩٥٥. وهي الآن قرية تقع على بعد ١٠ كم إلى الشمال من المرية. انظر عنها دائرة المعارف الإسلامية، مادة بقلم ليفي بروفسال ١١٠٩/٣ والدكتور أحمد مختار البادى: مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس ص ٤٧، وكذلك الدكتور حسين مؤنس: المسلمين في جوهر البحر الأبيض من ١٢٣-١٢٦.

(۲) ف ب : و ه ز م و ه م ب ها .

(٤) قام هؤلاء الأنجلسيون الرياضيون باحتلال الاسكندرية ثم جزيرة إقرىطش بقيادة أبي حفص عمر بن شعيب البلوطى (نسبة إلى فص البلوط). انظر حول هذه الماقمة وأحداثها لبني بروفنسال : تاريخ ١٧٢-١٧٣ ؟ وكذلك الدكتور حسين مؤنس : المسلمين في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الغرب الصليبية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، مايو ١٩٥١ ، ص ١٣٧-١٣٨ وما في هذين المصدرين من مراجع .

أن جزاراً منهم ضرب وجهه رجل من هؤلاء الأندلسيين بـكِرْشٍ مُلَوَّثٍ ، فنادى أصحابه ، فامْتَعَضُوا له ، وقاموا على أهل البلد ، فغلبوا به ، وأقاموا به إلى أن صالحهم على الخروج سلماً عنه ابن طاهر^(١) عامل عبد الله [١٩] المأمون بن الرشيد من خلفاء بني العباس بالشرق ، وخيَّرُوهُمْ في الحلول حيث يختارون من جزائر البحر ، ويعلنون على حلولهم بها ، فاختاروا جزيرة إقْرِيَطِش ، وكانت يومئذ خالية من الروم ، فاحتملوا إليها بـكُلُّيَّةِهِمْ وزنوا بها فاعتمرواها ، و جاءهم الناس من كل مكان ، وأقاموا بها إلى حين استيلاء الروم على بيْتِ المَقْدِس^(٢) .

[157] الْزَّهْرَةُ السَّادِسَةُ وَالْسَّبْعُونُ :

ذُكِرَ أَنَّ سَلِيْمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَقْدِمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَنْدَلُسِ

(١) عبد الله بن طاهر بن الحسين ، أحد أكابر القواد ورجالات الدولة في عهد الخليفة المأمون . كان أبوه طاهر بن الحسين واليًا على خراسان وكذلك أخيه طلحة ، واستعلن الأمون أيضًا به في إخداد كثير من الفتن ، فلما نجحت فتنة الأندلسين الذين احتلوا الإسكندرية ندب المأمون لتأمين مصر وإخراج هؤلاء الأندلسين ، فدخل مصر سنة ٢١١ (٨٢٦) واستطاع الوصول معهم إلى اتفاق يجلون بعقتضاه عن البلاد على أن يعيّنهم براً كه على التوجّه إلى أي جزء البحر أرادوا ، فاختاروا جزيرة إقريطيش (كريت) التي كانت من أراضي الدولة البيزنطية ، فاحتلوها في سنة ٢١٢ (٨٢٧) . وعاد عبد الله بن طاهر بعد إنتهاء مهمته إلى بغداد ، وهو رأس الدولة الطاهرية التي حكمت خراسان زمننا . انظر عن ابن طاهر دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٣٢ (مادة بقلم زيتشرتين K. V. Zettersteen والراهن المنشطة هناك) .

(٢) ليس صحيحاً ما يذكره المؤلف هنا من أن المسلمين طلوا في جزيرة إقربيطش حتى استولى الروم على بيت المقدس، وإنما وقع ذلك في سنة ٣٥٠ (٩٦١) حينما هاجم الجزيرة القائد البيزنطي ققفور فوقيس Nicephore Phocas (الذي قدر له بعد ذلك أن يعتلي عرش الإمبراطورية البيزنطية) وكان قد عهد بذلك إلى الملك رومانوس الثاني Romanus II، فافتتح الجزيرة وأعادها إلى الدولة البيزنطية وحمل أميرها عبد العزيز بن حبيب بن عمر (سليل أبي حفص البلوطى فاتح إقربيطش) إلى القسطنطينية أسيراً، فقضى بها نوبة حياته . انظر ليفي بروفنسال : تاريخ إقربيطش ١٧٢ / ١

موسى بن نصير^(١) قال له : يا موسى ، من خلقت على الأندلس ؟ قال : ابني عبد العزيز . قال : ومن خلقت على إفريقيا وطنجة ؟ قال : ابني عبد الله . قال : ومن خلقت على السومن ؟ قال : ابني مروان . قال له سليمان : لقد أنجبت يا موسى ! فقال له : ومن أنجب مني يا أمير المؤمنين ؟ إن ابني عبد العزيز أتي بملك الأندلس للرريق^(٢) ، وأتي ابني عبد الله بملك ميورقة

(١) الخبر الوارد في هذه الزهرة من جنس هذا الأدب الكبير الذي قام فيه الخيال الشعبي بدور فعال والذى أدت إليه مخنة موسى بن نصير هذا القائد العظيم فاتح الأندلس على يد الخليفة سليمان بن عبد الملك بعد عودة موسى إلى المشرق . وبظهور أن ذرية موسى بن نصير في الأندلس من ناحية (من سلالة ابنته عبد العزيز) وفي مصر من ناحية أخرى (من نسل ابنه مروان) قد أسممت بتصيب كبير في ترويج أمثال هذه القصص والأخبار والمحاورات التي تتمثل موسى بن نصير في صورة البطل الشهيد الذى لم تتفتح له في مخنته بطولة الفائقة ، بل والذى أحاطه الخيال الشعبي بهالة من القداسة ونسب إليه كرامات وخوارق تجاوز كل حد معقول . على أنه ينبغي أن ننبه إلى أن هذه الأخبار الأسطورية لها نواة من الحقيقة كما سنرى في هذا الخبر نفسه . وقد ولد موسى بن نصير في سنة ٦٩ (٦٤٠) وولاه عبد العزيز بن مروان على إفريقية سنة ٨٦ (٧٠٦) بعد حسان بن النعan فأكمل فتح المغرب ثم أرسل مولاه طارق بن زياد في سنة ٩٢ (٧١١) ففتح الأندلس ، ثم توجه هو نفسه في السنة التالية إلى هذه البلاد فأكمل فتحها ، على أنه لم يلبث أن استدعي إلى المشرق ، ولكنه لم يصل إلى دمشق إلا قبل وفاة الواليد بن عبد الملك (في ٩٦/٧١٥) بأربعين يوماً ، فلما ولى الخلافة سليمان بن عبد الملك — وكان متغيراً على موسى — أساء لقاءه وقبل فيه وشایات حсадه وما زال الأمر كذلك حتى وفاة موسى في سنة ٩٨ (٧١٧/٧١٦) . (عن شخصية موسى بن نصير التاريخية وأعماله وفتوحه انظر ما كتبه الدكتور حسين مؤنس في « بغرا الأندلس » ص ٤٦ - ١١٠ ولبي بيروقنسال : تاريخ ١/٨ - ٢٩ والراجح الثابتة في هذين المراجعين) . أما الأساطير التي نسبت حول موسى وأبنائه فقد اختصت بها شأنياً كبيراً من بحث سبق لي نشره بالإسبانية عن « مصر والمصادر الأولى للتاريخ الأندلسي » :

M. Makki: *Egipto y los orígenes de la historiografía arábigo-española*, REVISTA DEL INSTITUTO DE ESTUDIOS ISLÁMICOS EN MADRID, 1957, vol. V, pp. 157-248.

وقد ألحقت بهذه الدراسة الفصول الخاصة بالأندلس من « تاريخ » عبد الملك بن حبيب الإليري (ت ٢٣٨ - ٨٥٢) وقت بعده مقارنة بين هذه الفصول وتلك الخاصة بفتح الأندلس من كتاب « الإمامة والسياسة » المنسوب لابن قتيبة ، وقد تبين لي أن هذه الفصول إنما هي من تأليف حميد موسى بن نصير من نسل ولده مروان كان مصرياً معاصرًا لابن حبيب .

(٢) عبد العزيز بن موسى بن نصير ، رافق أباه في حملته على الأندلس ، وهو الذي تولى فتح الشبيبية ولبلة وباجة من بلاد غرب الأندلس ، ثم فتح مالقة والبيدة وتمدير من المنطقة الشرقية ، وعهد إليه موسى بحكم الأندلس عند خروجه إلى المشرق في سنة ٩٥ (٧١٤) وظل والياً على البلاد حتى سنة ٩٧ (٧١٦) حينما اغتيل بأيدي بعض أصحابه في خبر طويل . انظر الدكتور حسين مؤنس :

ومنورقة وصَيْلَيَةٌ وسِرْدَانِيَّةٌ^(١) ، وأئِي ابْنِ مُروانَ بِعَالَكَ الْمَغْرِبِ وَالسُّوسِ الْأَقْصِيِّ^(٢) ، فَهُمْ مُفْتَرَقُونَ فِي الْأَمْصَارِ وَغَيْرِهَا ، فَيَأْتُونَ مِنَ السَّجْبِيِّ بِمَا لَا يَحْصِي . فَنَّ أَنْجَبَ مِنِي ؟ فَقَالَ سَلِيْمانُ : وَلَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَيْسَ بِأَنْجَبَ مِنِي ! فَقَالَ لَهُ مُوسَى بْنُ نَصِيرٍ ، شَاءَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ شَاءَ لَيْسَ فَوْقَهُ شَاءَ^(٣) ، لَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ — وَإِنْ عَظِّمَ — دُونَهُ ، لَأَنَّهُ بِهِ وَعَلَى يَدِيهِ وَمِنْهُ وَعْنَ أَمْرِهِ .

= بَغْرُ الْأَنْدَلُسِ ص ٩٥ — ٩٦ ، ١١١ — ١١٩ ، ١٢٩ — ١٣٥ وَلِيفِي بِرُوفِنْسَالُ : تَارِيخُ ٣٤ — ٣٠ . وَأَمَّا مَا قِيلَ هُنَا عَلَى لِسَانِ مُوسَى مِنْ أَنَّ عَبْدَ الْعَزِيزَ قَدْ أَئِي بِعَالَكَ الْأَنْدَلُسَ لِزَرِيقِ فَهُوَ مَا لَمْ يُؤْيِدْهُ أَئِي مَرْجُ تَارِيْخِي .

(١) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى بْنُ نَصِيرٍ عَهَدَ إِلَيْهِ أَبُوهُ مُوسَى بَعْضَ الْحَمَلَاتِ أَنْتَهَى وَلَايَهُ عَلَى إِفْرِيقِيَّةِ ثُمَّ اسْتَخْلَفَهُ عَلَيْهَا عَنْدَ عُودَتِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ بَعْدَ دُخُولِهِ الْأَنْدَلُسِ فِي سَنَةِ ٩٦ (٧١٤) ، وَحِينَئِذِي وَلَيْزِيدُ بْنُ أَبِي مُسْلِمَ كَاتِبِ الْحَجَاجِ الشَّافِعِيِّ عَلَى إِفْرِيقِيَّةِ سَنَةِ ١٠١ (٧٢٠—٧٢١) أَصْبَحَ مَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى غَيْرُ أَنَّهُ سَرَعَانَ مَا تَعَيَّنَ عَلَيْهِ فَأَبْعَدَهُ وَاسْتَصْنَفَ أَمْوَالَهُ ، فَعَمِدَ عَبْدُ اللَّهِ عَلَى تَحْرِيْصِ الْبَرْبَرِ عَلَى يَزِيدَ حَتَّى قُتِلَهُ حَرَسَهُ سَنَةِ ١٠٢ (٧٢١) وَهُنَا أَمْرُ يَزِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ عَامَهُ عَلَى مَصْرَ بْشَرُ بْنُ صَفَوَاتِ بِالنَّهْوَنِ إِلَى إِفْرِيقِيَّةِ ، فَدَخَلَهَا فِي نَفْسِ السَّنَةِ وُقْتَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى . اَنْظُرْ بَغْرُ الْأَنْدَلُسِ ص ١٥٦ — ١٦٠ أَمَّا مَا يُذَكِّرُ هُنَا عَلَى لِسَانِ مُوسَى مِنْ إِتْيَانِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُوسَى بِعَالَكَ مِنُورَقَةَ وَسِرْدَانِيَّةَ وَصَيْلَيَّةَ فَنَّ الْوَاضِعُ أَنَّهُ لَا صَحَّةَ لِهَذَا مِنَ التَّارِيْخِيَّةِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِهَذِهِ الْجَرَائِفِ الْأَرْبَعِ مَلِكٌ وَاحِدٌ حَتَّى يَأْتِيَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ . وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْخَبَرَ لَيْسَ اخْتَرَاعًا حَضَّاً ، بَلْ لَهُ نَوَاهِهِ مِنَ الْحَقِيقَةِ شَاءَهُ كَشَانُ كَثِيرٍ مِنْ تَلْكَ الْأَخْبَارِ الَّتِي تَضَعَّفَتْ تَفَاصِيلُهَا فِي أَخْيَالِ النَّاسِ تَضَعَّفَهَا إِلَيْهَا ، ذَلِكَ أَنَّا نَعْرِفُ أَنَّ مُوسَى بْنَ نَصِيرٍ وَجْهَ بِالْفَعْلِ إِحْدَى سَرَرِيَّاتِهِ إِلَى جَزِيرَةِ صَقْلِيَّةِ . فَقَدْ ذَكَرَ أَبْنَ عَذَارِيَّ تَفَلَّا عَنِ ابْنِ الْقَطَانِ (الْبَيَانُ الْمَغْرِبِ ٤٢/١) أَنَّهُ عَقَدَ لِعِيَاشَ بْنَ أَخِيلَ عَلَى مَرَاكِبِ اِفْرِيقِيَّةِ فَشَيَّ في الْبَحْرِ إِلَى صَقْلِيَّةِ وَأَصَابَ غَنَّامٌ كَثِيرٌ حَازَهَا فِي مَدِيْنَةِ سَرْقُوْسَةِ . وَهُنَا نَرَى أَصْلَ الْحَبْرِ الَّذِي نَسْجَتْ حَوْلَهُ مَأْثَرَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُوسَى الْمَذَكُورَةِ عَلَى لِسَانِ مُوسَى .

(٢) مُرْوَانُ بْنُ مُوسَى بْنِ نَصِيرٍ هُوَ أَوْفَرُ وَلَدُ مُوسَى نَصِيرِيَا مِنَ الْمَافِرِ الْمَنْسُوبَةِ لِتَلْكَ الْأَسْرَةِ إِلَى درجةِ أَنَّ اسْمَهُ يَقْتَرَنُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْفَتوْحِ الْمَرَافِيَّةِ فِي بَعْضِ قَصْصَيْنَ «أَلْفُ لَيْلَةَ وَلَيْلَةَ» ، وَأَكْثَرُ مَا نَجَدْهُ مِنْ ذَلِكَ فِي تَارِيْخِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ حَبِيبٍ وَفِي تَلْكَ الْقَطْعَةِ الْمَنْسُوبَةِ لِابْنِ قَتِيْبَيَّ مِنْ «الْإِمامَةُ وَالسِّيَاسَةُ» وَهُوَ الَّتِي ذَكَرْنَا أَنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ كِتَابُ لِعَارِكِ بْنِ مُرْوَانَ التَّصِيرِيِّ حَفِيدُ مُرْوَانَ فَسَهُ . وَيُذَكِّرُ فِي هَذِينَ الْمَصْدِرَيْنِ بِالْفَعْلِ أَنَّ مُرْوَانَ هُوَ الَّذِي فَتَحَ السُّوسَ الْأَقْصِيَّ وَأَئِي مِنْهُ «وَهُوَ يَجْرِي الدِّينَا جَرَأَ بِالسَّبِيِّ» (انْظُرْ تَارِيْخَ ابْنِ حَبِيبٍ ، الْقَطْعَةَ الَّتِي أَلْخَنَاهَا بِعَقْلَانَا عَنْ «مَصْرُ وَالْمَصَادِرُ الْأُولَى لِلتَّارِيْخِ الْأَنْدَلُسِيِّ» ، ص ٢٢٤) .

(٣) فِي ١ : شَيْءٌ .

الزهرة السابعة والسبعون :

سأل سليمان بن عبد الملك موسى بن نصير^(١) ، فقال له : ما كُنْتَ تفْرَغُ إِلَيْهِ عِنْدِ خَرْجِكَ إِلَى حَرْبِكَ ، وَمِبَاشِرَةِ عَدُوكَ ؟ قال : الدّعاءُ وَالصَّبْرُ عندِ الْلِقَاءِ . قال : فَأَيَّ الْحَيْلَ رَأَيْتَهَا فِي تِلْكَ الْبَلَادِ أَصْبَرَ ؟ قال : الشَّقْرُ . قال : فَأَيُّ الْأَمْمَ كَانُوا أَشَدَّ^(٢) قَتْلًا ؟ قال : هُمْ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ أَصْفَهُمْ لَكَ ؟ قال : فَأَخْبَرْتَنِي عَنِ الرُّومِ . قال : أَسْوَدُ فِي حَصْوَنِهِمْ ، عِقبَانُ^(٣) عَلَى خَيْوَلِهِمْ ، إِنْ رَأَوْا فُرْصَةً افْتَرَصُوهَا ، وَإِنْ رَأَوْا غَلَبَةً فَأُوْعَالُ^(٤) تَذَهَّبُ فِي الْجَبَالِ ، لَا يَرَوْنَ الْمَزِيْعَةَ عَارِيًّا . قال : فَأَخْبَرْتَنِي عَنِ الْبَرْبَرِ . قال : هُمْ أَشْبَهُ بِالْعَرَبِ لَقَاءً وَنَجْدَةً وَصَبْرًا وَفِرْوَسِيَّةً وَسَمَاحَةً ، غَيْرُ أَنَّهُمْ أَغْدَرُ النَّاسِ لَا وَفَاءً لَهُمْ وَلَا عَهْدًا . قال : فَأَخْبَرْتَنِي [١٥٨] عَنِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ . [٩ ب] قال : مَلُوكُ مُتَرْفُونَ ، وَفُرَسَانُ لَا يَحْكُمُونَ . قال : فَأَخْبَرْتَنِي عَنِ الْأَفْرِنجِ . قال : هَنَالِكَ الْعَدْدُ وَالْمَعْدَةُ ، وَالْمَلْدُ وَالشَّدَّةُ ، وَالبَأْسُ وَالنَّجْدَةُ . قال : فَأَخْبَرْتَنِي كَيْفَ كَانَتِ الْحَرْبُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ؟ أَكَانَتْ لَكَ أَمْ عَلَيْكَ ؟ فقال : أَمَا هَذَا فَوَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا هُزِمَتْ لِرَأْيَهُ^(٥) . قال : فَضَحَّكَ سليمان وَعَجَبَ مِنْ قَوْلِهِ .

الزهرة الثامنة والسبعون :

لما حاصر أبو جعفر المنصور^(٦) ابنَ هُبَيْرَةَ بواسطَةِ خِلَافَةِ أَخِيهِ السَّفَاحِ^(٧)
أُرْسَلَ إِلَيْهِ ابنَ هُبَيْرَةَ : إِنِّي خارِجٌ إِلَيْكَ يَوْمَ كَذَا وَدَاعِيكَ إِلَى الْمَبَارَزةِ ،

(١) وَرَدَ هَذَا الْحِبْرُ أَيْضًا بِنْصِهِ تَقْرِيبًا فِي تَارِيخِ ابْنِ حَبِيبِ الْمَعْقِلِ بِعِقَالِنَا الْمَذْكُورِ مِنْ ٢٣٤ - ٢٣٥ ، وَقَارَنَهُ أَيْضًا عَلَى جَاءَ فِي الْأَمَامَةِ وَالسِّيَاسَةِ ٨٤/٢ وَالْمِيَانَ الْمَغْرِبَ لِابْنِ عَذَارِي الْمَرَاكِشِيِّ ٢١/٢ .

(٢) فِي ١ : رَأَيْتَهَا أَصْبَرَ وَأَشَدَّ قَتْلًا .

(٣) يَزِيدُ بْنُ عُمَرَ بْنِ هُبَيْرَةَ الْفَزَارِيُّ كَانَ مِنْ أَكْبَرِ قَوَادِ آخِرِ خَلْفَاءِ بْنِ أُمَيَّةَ مُرَوَّانَ بْنَ مُحَمَّدٍ وَأَقْدَرَهُمْ . وَكَانَ أَبُو العَبَّاسِ السَّفَاحَ قَدْ وَجَهَ أَخَاهُ أَبَا جَعْفَرٍ الَّذِي وَلِيَ الْخِلَافَةَ بَعْدَ مَتْلَقِبَا بِالْمَنْصُورِ =

فقد يلغى تجبيئك إيمائى . فكتب إليه : يا بن هبيرة ، إنك أسرؤ مُتَّعِّد طورك ، جار في عنان غيتك ، بعده الشيطان ما الله مكذبه ، ويعرب إليك ما الله مباعده ، فرويداً تم الكلمة ويبلغ الكتاب أجله ، ولقد ضربت لك مثلًا في أمري وأمرك : بلغني أن أسدًا لقي خنزيرًا فقال له الخنزير : قاتلني . قال له الأسد : إنما أنت خنزير ، ولست لي بگفو ولا نظير ، ومتي فعلت الذي^(١) تدعوني^(٢) إليه فقتلتك قيل قتل خنزيرًا فلم أعتقد بذلك خرًا ولا ذكرًا ، وإن نالني من قبلك شىء كان سببًا على . فقال له الخنزير : إن أنت لم تفعل رجمت إلى السبع وأعلمتها أنك نكلت عنى وجئت عن قتالي . فقال الأسد : احتمالي كذبك أيسر على من لطخ شاري بدمرك !

النهرة التاسعة والسبعون :

ذكر أن أمية بن عيسى بن شهيد^(٣) وزير الخليفة عبد الرحمن بن

= ليحاصره في واسط عندما اشتعلت ثورة العباسين ضد بني أمية ، فاستمر حصار أبي جعفر لزيد أحد عشر شهراً كان مروان قد قتل في أثنائها . وترددت السفارات بين أبي جعفر ويزيد حتى انعقد بينهما الأمان ، ولكن أبو العباس السفاح ما زال يلح على أخيه حتى قتله . انظر تفصيل الخبر في الضري : تاريخ ٦ / ١٠٤ - ١١٠

(١) في الأصلين : التي ، وهو خطأ ، والصواب ما أبتنا .

(٢) في ب : توعدنى ، وما ورد في أصح .

(٣) في ا : . . . بن أبي عيسى ، والصواب ما أثبنا عن ب ، أمية بن عيسى بن شهيد هو أجل وزراء الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط بين الحكم وأعظم رجال دولته . وكان أبوه عيسى بن شهيد في مثل هذه المكانة من عبد الرحمن الأوسط ، فقد ولـى له الحجابة حتى وفاته (وفاة عيسى) سنة ٢٤٣ (٨٥٧) . أما أمية فقد عهد إليه الأمير محمد بولاية المدينة والوزارة ، واضطلع أمية بقيادة الجيش في بعض المناسبات . ولسنا نعرف على وجه التحقيق متى توفي وإن كـنا نعتقد أن ذلك كان قبل وفاة الأمير محمد في ٢٧٣ (٨٨٦) . انظر عن أمية المذكور ابن القوطية : تاريخ من ٨٥ - ٨٧ ، ٩٤ - ٩٥ ؟ الخشـنى : كتاب القضاة بقرطبة ، طـ. مدرید ص ١٢٩ - ١٣٠ ، ١٤١ ، ١٧١ - ١٧٢ وـ كتاب المقتبس (بتحقيقنا ، طـ. بيروت ١٩٧٣ الجزء الخامس بالأمير محمد ، ص ١٧١ - ١٧٢) . والخـاشـية رقم ٣٤١) أخبار كثيرة جديدة عنه . أما الخبر الوارد هنا فقد أورده ابن القوطية في تاريخ افتتاح الأندلس ص ٩٤ .

الحكم^(١) حضر يوماً بدار الراهن المجاورة - كانت - لباب القنطرة بقرطبة ، ورهائن بنى قسي^(٢) وغيرهم من أبناء الثوار ينشدون شعر عنترة^(٣) أمام مؤدب . فقال [١٥٩] لبعض الأعوان : علىَ بالمؤدب . فلما وصل إلى القصر وفاه المؤدب ، فقال له : لو لا أتى أعدرك بالجهل لأدْبُنك أدبًا موجعًا ، تعمد إلى شياطينَ أبناء شياطين قد شجحَ بهم الخلفاء فتُرَوِّهم شعر عنترة والشعر الذي يزيدهم بصيرة في الشجاعة؟ كف عن هذا ولا تُرَوِّهم إلا خربات الحسن ابن هانى^(٤) وشبهها من الأهزال ومثل شعر عمر بن أبي [١١٠] ربيعة^(٥) وجميل^(٦) وغيرها من أمثاله^(٧) .

(١) كذا في الأصل ، ونظن ذلك وهو فأمية بن عيسى بن شهيد لم يكن وزيراً لعبد الرحمن ابن الحكم ، إذ لم يرد اسمه في قائمة الوزراء التي أوردتها ابن حيان في المقتبس (ط. بيروت ١٩٧٢) من ٢٨ ، ولعل المقصود «وزير الخليفة [محمد بن] عبد الرحمن بن الحكم» .

(٢) بنو قسي من أكبر الأسر الأندلسية التي ملكت التغر الأعلى (سرقسطة وما حولها) في ظل بي أمية منذ القرن الثاني الهجري حتى أوائل القرن الرابع . وهي تنتهي إلى قسي (تعريب الاسم اللاتيني Cassius) قومس (أى كونت) التغر الأعلى في أواخر أيام القوطين . وكان قد لحق بالشام عند فتح المسلمين للأندلس وأسلم على يدي الوليد بن عبد الملك واتسع إلى ولائه . وتعاقب بنو قسي على رئاسة التغر ، وكان أشهرهم موسى بن موسى بن قسي (ت ٨٦٢/٢٤٨) الذي اشتهرت وقائمه وأحداثه في أيام الأميرين عبد الرحمن و محمد . انظر عن بنى قسي ما كتبناه حول موسى بن موسى في تعليقاتنا على الجزء الذي نشرناه من المقتبس ، رقم ١ من ٤٠٣—٤٠٦ .

(٣) عنترة بن شداد العبسي الشاعر الجاهلي المشهور المعروف بشعره الخامس .

(٤) أبو نواس الحسن بن هانى الشاعر العباسى المشهور الذى عرف بخمراته وجوشه (ت بعد سنة ٢٠٠/٨١٥) . انظر الدكتور شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى ، المصر العباسى الأول من ٢٢٠ وما بعدها .

(٥) عمر بن أبي ربيعة الملكى (٢٣—٩٣ / ٦٤٤—٧١٢) شاعر الغزل المعروف من شعراء صدر الإسلام . انظر عنه الدكتور شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى ، العصر الإسلامي من ٣٤٩ وما بعدها .

(٦) جليل بن معمر العذري أشهر شعراء الحب العفيف في العصر الأموي . توفي بمصر في ولاية عبد العزيز بن مروان في أواخر القرن الثاني الهجرى . انظر الدكتور شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى ، العصر الإسلامي من ٣٦٧ وما بعدها .

(٧) في ب : أمثالهم .

الزهرة الشمانون :

حَكَىْ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ الْعَرِيفِ الْكَاتِبُ^(١) عَنِ الْحَاجِبِ حَبْوُسِ بْنِ مَاكْسِنٍ^{*}
ابن زِيرِيْ بْنَ مَنَادِ الصَّنْهَاجِيِّ صَاحِبِ إِلْبِيرَةِ^(٢) قَالَ^(٣) :

(١) أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي المرى (نسبة إلى المرية) المعروف بابن العريف كان من كبار المتصوفة الأندلسية، وسعى به إلى سلطان المغرب والأندلس على ابن يوسف بن تاشفين فأصر ياشخصاه إلى مراكش، وتوفي هناك سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١). انظر في ترجمة حياته ابن خلكان: وفيات الأغان ١٥١—١٥٢؛ ابن بشكتوال: الصلة ، رقم ١٧٦؛ المقري: فتح الطيب ٢٢٩/٣؛ ابن الأبار: معجم أبي على الصدف ، رقم ١٨؛ ابن سعيد: المغرب ٢١١/٢؛ ابن العمام الحنبلي: شذرات الذهب ١١٢/٤؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٤٩؛ مفاخر البربر ص ٧٠؛ ابن الزيارات النادل: التشواف إلى رجال التصوف ، بتحقيق أدولف فور ، الرباط ١٩٥٨ من ٩٦—١٠١؛ السلاوي: الاستقصا ٦٨/٢، ١٨٨؛ أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بطبع زيد الديبايج (على هامش الديبايج المذهب لابن فرحون) ص ٣٠؛ وانظر عنه وعن كتابه «محاسن المجالس» :

Asín Palacios: *El místico Abū-l-Abbās Ibn al-'Arif de Almería y su «Maḥāsin al-maqālis»*, apud Obras Escogidas, I, 219-242.

على أن هذا الخبر الوارد هنا لم يرد في كتاب «محاسن المجالس» فعلمه جاء في كتاب آخر لابن العريف . هنا إذ لم يكن ابن العريف المذكور راوية الخبر شخصا آخر غير الصوفي المشهور .

(٢) حبوس بن ماكسن الصنهاجي كان من كبار القواد البربر الذين استقدمهم المظفر بن المنصور ابن أبي عامر ليعينوه في حربه ، وكان قدومه من إفريقية ودخوله الأندلس مع عميه زاوي بن زيري وفي جملة من أهل بيته . فلما نشب الفتنة في الأندلس بعد انهيار الدولة العاصرية انحاز الصنهاجيون بعد أن خاضوا تلك الفتنة إلى إلبيرية ، وولى أحمرهم زاوي بن زيري حق بده المخروج عن الأندلس والعودة إلى إفريقية لما رأه من كراهية الأندلسية لقومه البربر ، وذلك في سنة ٤١٠ (١٠١٩) ، فصار أحمر مملكته إلى ابن أخيه حبوس بن ماكسن الذي توطن ملكه حتى وفاته سنة ٤٢٩ (١٠٣٨) . انظر حول ولادة حبوس ودولته ابن عذاري: البيان المغرب المزء الثالث ، ابن الخطيب: أعمال الأعلام ، والاحاطة (راجع فهرس هذه الكتب) وانظر كذلك دراسة شاملة حول بني زيري في الأندلس للباحث هادي روبيه إدريس في مجلة الأندلس :

H. R. Idris: *Les zirides d'Espagne*, «Al-Andalus», vol. XXIX, 1964, pp. 39-145.

(٣) لهذا الخبر الجديد عاملاً قيمة كبيرة في تصويره مظهراً من مظاهر سلوك هؤلاء المقاتلين المحترفين من البربر وأفهتم من الفرار ، كما أن فيه تصويراً للمنافسة الشديدة بين الصنهاجيين والزناتيين من طوائف البربر .

لما انحَرَّنا عن الفرنجية يوم المهزيمة بِعَقَبَةِ الْبَقَرِ^(١) — وقتل فيها نحو عشرة آلاف — انتهيت إلى مضيق وعر من قرطبة إلى الزهراء عليه قُنْطَرَةٌ صغيرة لا يعبرها إلا الفارس بعد الفارس ، فأجاد عليها أربعة من الفرسان من أبطال البرابر : اثنين مِنَّا ، وَهَا حُبَّاسَةُ أخِي^(٢) وَحُبَّاسَةُ بْنَ حَمَامَةَ ابْنَ عَصَى^(٣) ، واثنين من زناته : حَمْوَ بْنَ يَصْلَتَنْ ، وَإِبْرَاهِيمَ بْنَ فَلْفَلَ ، وكلاهما من البرازلة^(٤) ، وهم وقوف دونها لا يعبرها أحد منهم ، ويئنهم منازعةً

(١) «عقبة البقر» (بالإسبانية El Vacar) حصن يقع على بعد ٤٠ كيلومتراً إلى الشمال من قرطبة ، على الطريق المتجه إلى طليطلة ، وإلى جوار هذا الحصن وقعت تلك المعركة العنيفة التي يتحدث عنها جبوس بن ماكسن في أول الخبر والتي دارت في ٥ شوال سنة ٤٠٠ (٢٢ مايو ١٠١٠) بين جيش سليمان بن الحكم المستعين وأنصاره من البرابر الصنهاجيين (ومن بينهم زاوي بن زيري وأبا أخيه جبوس وحباسة ابنا ماكسن) ومحمد بن هشام المهدى الذي كان جيش من الأفرنج (من أهل قططونية) يدهه وبناصره . وقد كان النصر حليف البربر في اليد فقتل كثيرون من أنصار المهدى واحد من قادة جيش الأفرنج وهو أرمونقد Ermengaud البرشاوني ، ولكن سليمان المستعين هرب من المعركة ودببت الفوضى في صفوف البربر فانهزموا بعد أن قتل منهم خصومهم مقتلة شديدة (عن هذه المعركة انظر ليفي بروفنسال : تاريخ ٣١٣/٢ والماجر الواردة هناك . وانظر كذلك ديوان ابن دراج القسطلاني ، بتحقيقينا ، ص ٥٤ ، ٦٤ ، ٥٠ ، ١٣ من الفصل الأول من شعره) .

(٢) حباسة بن ماكسن الصنهاجي أخو جبوس راوي الخبر ، كان من أبطال فرسان البربر وأكثراهم إيقاعاً بأهل قرطبة في أحداث الفتنة البربرية ، وكانوا يهابونه هيبة شديدة . وقد حدث في أعقاب إحدى وقائع الفتنة أن تکاثر عليه أهل قرطبة فقتلواه ومثلوا به مشاة شديدة في آخر ذي حجة سنة ٤٠٢ (آخر يوليه ١٠١٢) ، وأوقع أخوه جبوس بعد ذلك انتقاماً رهيباً بقاتله وبأهل قرطبة عاملاً . انظر ابن عذاري : البيان المغرب (راجع الفهرس) وابن الخطيب : الاحداث ، نشر عنان ٤٩٤/١—٤٩٥ . (وانظر في مقتله بصفة خاصة البيان المغرب ١١١/٣ والاحاطة ، الموضع السابق وكذلك ٣١٢—٣١٣ وليفي بروفنسال : تاريخ ٣١٩/٢؛ وروجهي ادريس ص ١٢ — ١٣ من الفصل الأول) .

(٣) لم تواتنا المراجع بشيء عن حباسة بن حمامنة المذكور .

(٤) لسنا نعرف شيئاً كذلك عن هذين الفارسين . وقوله من «البرازلة» يعني من بي بزال ، وهم من بطون زناته خصوم صنهاجة التقليديين ، ويرجع جوازهم إلى الأندلس إلى أيام الحكم المستنصر في سنة ٣٦٦ (٩٧٦) ، على أنه حينما اضطررت ثار الفتنة اضطروا إلى حالة خصومهم الصنهاجيين إزاء كراهية الأندلسيين للبربر أيام الحروب الأهلية الدائرة في الأندلس . وقد اقطعوا بعد ذلك أجزاء من الأندلس أقاموا فيها دويلات صغيرة كان أهمها إمارتهم في قرمونة Carmona . انظر

الزهرة الحادية والشمانون :

لما جاز إلى الأندلس^(٤) زاوي بن زيري بن مناد^(٥) الصُّهَاجِيُّ في مدة المُظْفَرِ عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر ، وكان أبوه المنصور قد التوى في

(١) في الأصل بـ: يا أخي.

(٢) «على مثلها» لم ترد إلا في ا.

(٣) في أ : الزناتيين ، وفي ب : الزناتي ، وكلاهما خطأ .

(٤) ورد مثل هذا الخبر وبقريب من هذه الألفاظ في النكارة لابن سام ، القسم الرابع ٦١ / ٦٢ (نطلاع ابن حبان) .

(٥) زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي : كان أبوه أمير المغرب الأوسط تابعاً للخلافة الفاطمية ، فلما فتح المغز لدرين الله الفاطمي مصر وانتقل إليها استخلف ابنه يوسف بلقين (أخا زاوي) على أفريقية وما وراءها من بلاد المغرب ، فلما توفي يوسف سنة ٣٧٢ هـ خلفه ابنه المنصور ، فاشتبك مع أخيه في حروب أنهزوا فيها عنه ، وكان من بينهم زاوي المذكور ، وحيثئذ كاتب المنصور بن أبي عاصي صاحب الأندلس لكي يلحق به ، فالتوى بالاذن له — كما يذكر التس — حذراً منه إلى أن توفي المنصور العامري في سنة ٣٩٢ هـ (١٠٠٢) وخلفه ابنه عبد الملك المظفر ، وحيثئذ اذن له بالجواز إلى الأندلس هو وطائفة من قومه منهم ابن أخيه جبوس وجحابة ابنها ما كسن اللذان أشرنا إليهما . وكان ذلك على الأرجح في سنة ٣٩٣ هـ (١٠٠٣) وظل زاوي رفيع المكانة في الأندلس إلى أن نشبت الفتنة خاض غمارها على ما ذكرنا ، والتف به الصنهاجيون قومه فولوه زعامتهم وانتخط يغر فاطمة فوطدها ملكة ، حتى بدا لهم ما عاينه من الحروب وما تبيّنه من كراهة الأندلسيين له ولقومه أن يعود إلى موطنها في أفريقية وذلك في سنة ٤١٠ هـ (١٠٢٠) ، فوصل إلى القبروان =

الإذن له في الدخول إلى الأندلس حذراً من دهْيَه وَمَكْرِه وبعد صيته بالعدوة ، فأصرَّ عبد الملك عن ذلك وطلب السمعَة باستخدام مثله ، فادخله يمن معه من إخوته وهم من سعَة النعمة وبعد المهم واستصغار الرغائب فيما يكون عليه أشياهم من أبناء الملوك^(١) ، فبلغ عبد الملك في رفعته منزلته ، وولاه الوزارة أرفع خطط أصحاب^(٢) السلطان بالأندلس ، ووصل إليه الرسول بالصَّكْ في ذلك ، وتوقف لعله أن يصله عليه . فقال له : [١٠ ب] يا هذا ، لو جئتنا بمال لأُسْهِمناك ، وإنما أتيتنا بقطراس هو لك إن شئت ، وكل أمرٍ وما خلِقَ له ، وإنما خَطَّطْنَا الإمارة لا الوزارة ، وأقلَّمنا الرماح ، ومحاقننا الأجساد .

الزهرة الثانية والثمانون :

عبد الرحمن بن معاوية الداخل إلى الأندلس كان يقال له « صَفْر قَرِيش^(٣) » ، وذلك أن الخليفة أبا جعفر المنصور قال لأصحابه وهو ببغداد : أخبروني عن صقر قريش ، من هو ؟ ، قالوا : أمير المؤمنين الذي راضَ الملك ، وسكنَ الزَّرَالَ ، وحسمَ الأدواء ، وأبادَ الأعداء . قال : ما صنعتمْ شيئاً . قالوا : فعاوية بن أبي سفيان . قال : ولا هذا . قالوا : فعبد الملك بن مروان .

= واستقر في كنيف حفيد أخيه العز بن تميم بن يوسف بلقين ، غير أن وزراء العز لم يلبشو أن دسوا له السم بعد قليل من مقدمه ، عن زاوي بن زيري انظر بحث روجيه إدريس الذي أشرنا إليه من ١ — ٢٠ من الفصلة وما أورده من مراجعه .

(١) ينبه ابن الخطيب إلى احتقار زاوي وأصحابه الصنهاجيين لما ظهر الاكرام التي أسبغت عليهم في الأندلس ، فيقول : « فأنزلهم المظفر وأكرمهم إلا أنهم كابدوا مشقة من ذهرهم الذي أصارهم يخدمون بأبواب الملوك من أعدائهم غيرهم » (الاطحة ، نشر عنان ص ٤٤٠) .

(٢) « أصحاب » لم ترد إلا في ١.

(٣) تلقيب أبي جعفر المنصور لعبد الرحمن بن معاوية بـ صقر قريش أصل مشهور دائم ، وأول المصادر التي ذكرته كتاب « أخبار مجموعة » من ١١٨ - ١١٩ وابن عبد ربه في العقد الفريد ٤٨٨/٤ ؛ ثم يكرر التالون ذلك الحبر : ابن الأبار : الحلة السيرة ٣٥/١ ؛ ابن عذاري : البيان المغرب ٥٩/٢ - ٦٠ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الأندلسي من ٩ ؛ المقرى : فتح الطيب . ٣٣٢/١

قال : ولا هذا . قالوا : فَمَنْ يَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قال : عبد الرحمن بن معاوية [١٦١] الذى عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلدًا أَجْمَيًّا مفردًا ، فمَرَّ الأمصار ، وجَنَّدَ الْأَجْنَادَ ، ودَوَّنَ الدَّوَادِينَ ، وَأَقَامَ ملَكًا بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره ، وشدة شَكْيَمَتَه .

الزهرة الثالثة والثمانون :

الأمور التي كانت تَحَارُّ فيها خلفاء بني أمية بالأندلس لا يُنْفِذُونَها إلا عن مشاورَةٍ ثلاثة من الناس ، وهم : قائدُ الجُنْدِ بِسْرَقُسطَةَ قاعدةُ الشَّغْرِ الأَعْلَى^(١) لعظم ذلك الموضع وكُونَه الشَّغْرَ ومَحَلَّ الدِّفاع عن الأندلس ، فلم يكونوا يُقدِّمُونَ له إلا من اشتهرت نجدته وغناوه ، وكان فيه انتهاضٌ بما حُمِّلَ من ذلك الوظيف^(٢) ؛ والقاضى بقرطبة حضرة الخليفة وموضع توفرِ

(١) كان المسلمين في الأندلس منذ أن استقرت دولتهم في ظل بني أمية قد اهتموا بتحصين خطوطهم الدفاعية في المناطق المتاخمة لجيرانهم النصارى فقسموها إلى قسمين رئيسيين : ما يسمى بالشَّغْر الأدنى المتقد من طبلطة في وسط الأندلس إلى ماردة ثم ما يليها غرباً حتى الحيط الأطلسي ، والشَّغْر الأعلى في المنطقة الشمالية حتى جبال البراتات (البيزنطي) وكانت سرقسطة قاعدة لهذا الشَّغْر ، ثم أضافوا بعد ذلك منطقة عسكرية ثالثة هي الشَّغْر الأوسط في منتصف الطريق بين طبلطة وسرقسطة وكان مرکزه مدينة سالم ، وقد برزت أهمية « الشَّغْر الأعلى » وضرورة تحصينه منذ أن تعرض لحملة شارلمان Charlemagne ملك الفرنجة (فرنسا) في أيام عبد الرحمن الداخل سنة ١٦٢ (٧٧٨) وهي الحملة التي منيت بالفشل في رونسفو Roncesvalles (بالإسبانية) وظل بنو أمية منذ ذلك التاريخ يولون منطقة الشَّغْر الأعلى اهتمامهم حتى نهاية دولتهم . عن الشَّغْر الأعلى ومكانته انظر ليفي بروفنصال : تاريخ إسبانيا الإسلامية ٣/٥ وما بعدها ، وكذلك نفس المؤلف : دور الشَّغْر الأعلى في التاريخ السياسي للأندلس في ظل خلافة بني أمية ، في مجلة معهد الدراسات الخاصة بجبل البراتات بسرقسطة : Lévi-Prevençal: *Le rôle de la Marche Supérieure dans l'histoire politique de l'Espagne califienne*, «Revista Pirineos», Zaragoza, núms. 15, 16, 1950, pp. 35-52.

وانظر كذلك الجزء الخاص بالشَّغْر الأعلى من حغرافية العذرى ، بتحقيق الدكتور عبد الغيز الأهوانى ،

نشر معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٦٥ ص ٢١—٧٣ ؛ والترجمة الإسبانية لهذا النص

الجليل بما فيها من تحقیقات ممتازة للمستشرق الإسباني فرناندو دي لاجرانجا بعنوان « الشَّغْر الأعلى في كتاب العذرى » .

Fernando de la Granja: *La Marca Superior en la obra de al-'Udri*, Zaragoza, 1966.

(٢) في الأصلين : الضيف .

العلماء ، لما كان يُحثّتاجُ فيمن يتقَدّمُ لقضائِها من استجاع شروط الكمال وَكَرِيمُ
الخلال وَرسوخِ الْقَدْمَ في العلم والدين^(١) والحكمة^(٢) ؛ وَقَائِدُ الأَسْطُولِ بالْمَرِيَّةِ^(٣)
لأنَّهَا كَانَتْ دَارَ صَنْعَةِ الْإِنْسَانِ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَلَتَوْسِطُهَا فِي بَلَادِهِ ، فَكَانَ فِي
مُدَّةِ بَنِي أَمِيَّةِ قَائِدُ أَسْطُولِهَا^(٤) قَسِيمَ الْخَلِيفَةِ فِي مَلْكَهُ : ذَاكَ مَلِكُ الْبَرِّ ،
وَهَذَا مَلِكُ الْبَحْرِ .

الزهرة الرابعة والشمانون :

كان أهل الأندلس^(٥) من حين استفتاحها إلى مدة الخليفة الحكيم بن

(١) هذه الكلمة ناقصة في بـ .

(٢) يشهد بصحة ما ذكر المؤلف هنا عن مرکز قضاء الجماعة بقرطبة قول ابن سعيد (حسبما ينقل عنه المقرى : فتح ١/٢١٧ - ٢١٨) : « وأما خطة القضاء بالأندلس فهي أعظم الخلط عند الخاصة والعامة لتعلقها بأمور الدين وكون السلطان لو توجه عليه حكم حضر بين يدي القاضي . هذا وضعها في زمات بني أمية » . وحول هذه الخطة انظر تقديم خوليان ريبيرا لترجمته الإسبانية لكتاب القضاة (مدريدي ١٩١٤) ، وليني بروفنسال : تاريخ ٣/١١٧ وما بعدها ، وكذلك من ١٣٦ وما بعدها .

(٣) مدينة المرية Almería مدينة محدثة بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر في سنة ٣٤٤ (٩٥٦-٩٥٥) وهي لها سوراً منيعاً من الصخر وتحتذا الناس فيها محارس وأربطة ثم بنيت فيها دار صناعة وما زالت حتى أصبحت أهم مرکز عسكري وتجاري على ساحل الأندلس الجنوبي . انظر ابن عبد المنعم الحميري : الروض المطار ص ١٨٣ - ١٨٤ ؛ العذرى : جغرافية ص ٨٢ - ٨٦ ؛ وانظر كذلك عن آثارها قاعدة للأساطيل الأندلسية لفيني بروفنسال : تاريخ ٣/١٣٦ ؛ وانظر كذلك الدكتور أحمد مختار العبادي والدكتور السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، بيروت ١٩٦٩ ص ١٧٨ وما بعدها ، وقد اتفق المؤلفان بهذا النص نفسه (ص ١٧٩ - ١٨٠) معتمدين في إيراد مضمونه على ليني بروفنسال : إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ٨٥ - ٨٦ .

(٤) في بـ : أسطولوها ، بالصاد .

(٥) ما يورده المؤلف هنا حول تحول الأندلسيين عن مذهب الأوزاعي إلى مذهب الإمام مالك ابن أنس وانتشار المذهب المالكي بفضل السلطان في الأندلس أمر شائع كثير التداول في كتب التاريخ والفقه ، ولو أنها تختلف حول الأمير الأندلسي الذي انتشرت المالكية برأيه واختياره ، فهي مرة تذكر عبد الرحمن الداخل ومرة ابنه هشام ومرة ثالثة الحكيم بن هشام — كما نرى في هذا النص — والمفيدة هي أنه لا صحة لذلك ، بل كان انتشار المذهب المالكي لأسباب أخرى توسعنا في شرح طروفها في دراستنا عن « التيارات الثقافية المشرقية وأثرها في تكون ثقافة الأندلس » .

M. A. Makki: *Ensayo sobre las aportaciones orientales en la España Musulmana*, páginas 90-94.

وانظر المراجع المستخدمة في كتابة ذلك الفصل .

هشام على رأى الأوزاعي^(١) ومذهبـه ، أقاموا على ذلك مدةً من مائة سنة وعشـر سـنـين ، ثم تحـلـوا عـنـ ذـلـكـ إـلـىـ رـأـيـ مـالـكـ بـنـ أـنـسـ ومـذـهـبـ أـهـلـ الـدـيـنـ ، فـانـتـشـرـ عـلـمـ مـالـكـ وـرـأـيـهـ بـقـرـطـبـةـ [١١] وـعـمـرـ بـلـادـ الـأـنـدـلـسـ ، وـذـلـكـ بـرـأـيـ الـحـكـمـ وـاـخـتـيـارـهـ ، وـكـانـ السـبـبـ فـيـ ذـلـكـ أـنـهـ كـانـ قـدـ رـاحـلـ فـيـ مـدـدـهـ وـمـدـةـ أـيـهـ إـلـىـ الـمـشـرـقـ جـلـهـ مـنـ الـفـقـهـاءـ لـلـحـجـ وـلـظـلـبـ الـعـلـمـ مـنـهـمـ زـيـادـ بـنـ عـبـدـ [١٦٢] الـرـجـنـ الـلـخـمـيـ الـمـعـرـوـفـ بـشـبـطـوـنـ^(٢) وـيـحـيـيـ بـنـ مـضـرـ الـقـيـسـيـ^(٣) وـعـيـسـيـ بـنـ دـيـنـارـ^(٤) وـغـيـرـهـ ، فـسـمـعـوـاـ مـالـكـاـ وـأـخـذـوـاـ عـنـهـ وـعـادـوـاـ إـلـىـ الـأـنـدـلـسـ ، فـوـصـفـوـاـ فـضـلـ مـالـكـ وـسـعـةـ عـلـمـهـ وـجـلـلـةـ قـدـرـهـ وـإـمامـتـهـ لـمـدـيـنـةـ الرـسـوـلـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ وـانـحرـافـ النـاسـ إـلـىـ رـأـيـهـ ، فـانـتـشـرـ رـأـيـ مـالـكـ مـنـ حـيـثـيـ بـالـأـنـدـلـسـ ، وـمـالـ أـهـلـهـ عـنـ رـأـيـ الـأـوزـاعـيـ بـالـكـلـيـةـ .

(١) الـإـلـامـ عـبـدـ الرـجـنـ بـنـ عـمـرـ وـأـلـوـزـاعـيـ (ـوـلـدـ فـيـ بـلـدـ بـلـكـ سـنـةـ ٨٨ / ٨٨ وـتـوـفـ فـيـ بـيـرـوـتـ سـنـةـ ٧٧٤ / ١٥٧ـ) . (ـاـنـظـرـ فـيـ تـرـجـهـ وـكـيـهـ دـائـرـةـ الـعـارـفـ الـاسـلـامـيـةـ ١ / ٥٤٥ـ (ـبـقـلـ فـنـسـنـكـ)ـ) ؟ بـرـوكـلـانـ : تـارـيـخـ الـأـدـبـ الـعـرـبـيـ (ـالـتـرـجـةـ الـعـرـبـيـةـ : دـ. عـبـدـ الـحـلـيمـ الـنـجـارـ)ـ ٣٠٨ـ / ٣ـ وـحـولـ اـنـشـارـ مـذـهـبـهـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ قـبـلـ غـلـبـةـ الـمـالـكـيـةـ عـلـىـ تـلـكـ الـبـلـادـ اـنـظـرـ درـاستـنـاـ المـاـشـرـ إـلـيـهـ فـيـ الـحـاشـيـةـ السـابـقـةـ صـ ٦٤ـ — ٦٧ـ .

(٢) زـيـادـ بـنـ عـبـدـ الرـجـنـ الـلـخـمـيـ «ـشـبـطـوـنـ» تـلـيـدـ الـإـلـامـ مـالـكـ وـأـوـلـ مـنـ أـدـخـلـ موـطـأـهـ إـلـىـ الـأـنـدـلـسـ وـكـانـ أـسـتـاذـ يـحـيـيـ بـنـ يـحـيـيـ الـلـيـثـيـ وـمـوـجـهـ لـلـاـخـذـ عـنـ مـالـكـ . تـوـفـ فـيـ سـنـةـ ٨١٩ـ / ٢٠٤ـ . اـنـظـرـ فـيـ تـرـجـهـ بـحـثـاـنـاـ عـنـ «ـالـتـيـارـاتـ الـقـنـافـيـةـ الـمـشـرـقـيـةـ»ـ صـ ٦٢ـ ، ٦٣ـ ، ٦٤ـ ، ٦٥ـ — ٦٦ـ وـكـذـالـكـ تـلـيـقـنـاـ رقمـ ٤٩٥ـ صـ ٢٢٦ـ عـلـىـ نـصـ كـتـابـ «ـالـمـقـبـسـ»ـ لـابـنـ حـيـانـ بـتـحـقـيقـنـاـ (ـطـ. بـيـرـوـتـ)ـ .

(٣) تـرـجمـ شـهـرـةـ يـحـيـيـ بـنـ مـضـرـ الـقـيـسـيـ فـيـ كـتـبـ الـتـارـيـخـ الـأـنـدـلـسـيـ إـلـىـ سـبـيـنـ : الـأـوـلـ هوـ ماـ يـذـكـرـ مـنـ أـنـ الـإـلـامـ مـالـكـ بـنـ أـنـسـ اـسـفـادـ مـهـ شـيـئـاـ حـولـ تـفـسـيرـ آـيـةـ قـرـآنـيـةـ وـالـثـانـيـ هوـ أـهـهـ كـانـ مـنـ اـسـتـشـهـدـوـاـ فـيـ ثـورـةـ الـرـبـضـ الـأـوـلـيـ سـنـةـ ١٨٩ـ (ـ٨٠٤ـ)ـ وـأـمـرـ الـحـكـمـ الـرـبـضـيـ بـصـلـبـهـ ، وـعـنـ ذـلـكـ مـنـ أـوـلـ مـثـالـ الـحـكـمـ . وـمـعـ ذـلـكـ فـإـنـ دـوـرـهـ الـحـقـيقـيـ فـيـ نـشـرـ الـمـالـكـيـةـ كـانـ مـتـوـاضـعـاـ جـداـ . اـنـظـرـ اـبـنـ الـقـوـطـيـةـ تـارـيـخـ صـ ٥١ـ ؛ اـبـنـ الـفـرـضـيـ ، رقمـ ١٥٥١ـ ؛ الـحـيـدـيـ ، رقمـ ٩٠٢ـ ؛ الـحـشـنـيـ : الـقـضـاـةـ صـ ٦٤ـ ؛ اـبـنـ عـذـارـيـ : الـبـيـانـ ٧١ـ / ٢ـ ؛ الـمـقـرـىـ : فـنـحـ ١ـ / ٣٤٤ـ ، ٩ـ / ٢ـ ؛ لـيـفـيـ بـرـوفـنـسـالـ : تـارـيـخـ ١٤٨ـ / ١ـ وـكـذـالـكـ تـلـيـقـنـاـ عـنـ الـتـيـارـاتـ الـقـنـافـيـةـ صـ ٩٧ـ .

(٤) صـحـةـ عـيـسـيـ بـنـ دـيـنـارـ (ـتـ ٢١٢ـ / ٨٢٨ـ)ـ لـلـإـلـامـ مـالـكـ خـطاـ شـائـعـ تـنـاقـلـهـ كـثـيرـ مـنـ الـمـؤـرـخـينـ الـأـنـدـلـسـيـنـ وـغـيـرـهـ ، الـقـدـماءـ وـالـحـدـيـثـيـنـ ، وـالـصـحـيـحـ أـهـهـ لـمـ يـلـحـقـ الـإـلـامـ مـالـكـ ، وـإـنـماـ نـفـقـهـ عـلـىـ تـلـيـدـهـ الـمـصـرـيـ عـبـدـ الرـجـنـ بـنـ الـقـاسـمـ . اـنـظـرـ حـولـهـ كـتـابـنـاـ عـنـ «ـالـتـيـارـاتـ الـقـنـافـيـةـ»ـ صـ ٩٧ـ ، ١٣٦ـ — ١٣٥ـ ، وـكـذـالـكـ تـلـيـقـنـاـ عـلـىـ نـصـ اـبـنـ حـيـانـ : الـمـقـبـسـ رقمـ ٢٠٣ـ صـ ٤٨٨ـ .

الزهرة الخامسة والثمانون :

كان أهل الأندلس منذ فتحها العرب إلى مدة الخليفة عبد الرحمن بن الحكم دون سكّة^(١)، إنما كانوا يتعاملون بما يُجلب إليهم من دراهم أهل المشرق ودنانيرهم ، فكان المال قليلاً لديهم عديماً عندهم ، ومعولهم على أمان غلَّة أرضِهم من القمح والشعير والكتان والزيت والحرير وسائر الحبوب إلى غلات معادنها وما أشبهها من فوائدها ، يحمله أهل العدوة عنهم في البحر أيام المصيف ، فإذا خذلوا به من عيّنهم ما يتباوزونه في متاجرهم وبيوتهم . أقاموا على ذلك مدة من مائة سنة وخمس وعشرين سنة إلى أن سبق هذا الخليفة عبد الرحمن إلى ضرب الدنانير والدرهم ، فاتخذت بقرطبة السكة ، وقام

(١) هذا الخبر يتفق مع ما يذكره ابن سعيد في كتاب «المغرب في حل المغرب» (٤٦/١) إذ يقول في ترجمة عبد الرحمن بن الحكم قائلاً عن الراري إنه «أحدث بقرطبة دار السكة وضرب الدرهم باسمه ولم يكن فيها ذلك منذ فتحها العرب». ولكننا لا نستطيع مجال من الأحوال أن نقبل هذا الرأي ، إذ كيف يمكن أن نصدق أن أهل الأندلس ظلوا يعتمدون على تلك الدنانير والدرهم المشرقة التي كان يأتي بها إليهم أهل العدوة مائة وخمسة وعشرين سنة؟ وكيف رضيت بهذا الوضع دولة مستقرة قوية مثل بني أمية في الأندلس كانت أولى أمصار الإسلام في نيلها السياسي والاقتصادي عن المشرق؟ مع أن السكة وضرب النقود كانا دائماً من أول مظاهر الاستقلال والاستغناء! ... وفيما يتعلق بضرب النقود في المشرق يذكر أبو الحسن علي بن يوسف الحكم في كتابه «الدودحة المشتبكة في ضوابط دار السكة» (بحقيق الدكتور حسين مؤنس ، مديرية ١٩٦٠ من ٤٧) أن أول من ضرب الدينار والدرهم في الإسلام هو عبد الملك بن مروان ، وقد علق الدكتور مؤنس على ذلك بأنه خطأ وأن النقود الإسلامية أقدم من هذا الخليفة الأموي بكثير. وأئمـا في الأندلس فإنـا فـردـ كذلك هـذا التـاريـخـ الـذـيـ يـحـمـدـهـ المؤـلـفـ هـنـاـ لـبداـيـةـ ضـربـ النقـودـ وـاتـخـاذـ السـكـةـ (وـهـوـ سـنةـ ٨٣٢ـ/ـ٢١٧ـ وـهـوـ معـنىـ قـولـهـ: بـعـدـ فـتـحـ الأـنـدـلـسـ بـعـائـةـ وـخـسـ وـعـشـرـينـ سـنـةـ). وـالـذـيـ نـعـرـفـهـ أـنـ ضـربـ النقـودـ بـدـأـ فـيـ الأـنـدـلـسـ بـعـدـ فـتـحـهاـ بـعـاـلاـ لـأـيـزـيدـ عـلـىـ خـسـ سـنـوـاتـ، فـأـوـلـ عـمـلـةـ نـعـرـفـهاـ هـيـ الـذـيـ ضـرـبـهاـ مـوسـىـ بـنـ نـصـيرـ فـاتـحـ الأـنـدـلـسـ فـيـ طـلـيـطـةـ سـنـةـ ٩٨ـ/ـ٧١٧ـ وـكـانـ دـنـانـيرـ ذـهـبـيـةـ نـقـشـتـ بـالـعـرـبـيـةـ وـالـلـاتـيـنـيـةـ، إـذـ كـانـ عـلـىـ وـجـهـهـ كـتـابـةـ «مـحـمـدـ رـسـوـلـ اللـهـ» تـحـيـطـ بـهـ عـبـارـةـ الشـهـادـةـ مـتـرـجـمـةـ إـلـىـ الـلـاتـيـنـيـةـ وـعـلـىـ ظـهـرـهـ نـجـمـةـ مـثـمـنةـ كـتـبـ عـلـيـهـاـ بـالـلـاتـيـنـيـةـ «ضـربـ فـيـ إـسـبـانـياـ» (انـظـرـ لـيـ بـرـ وـفـسـالـ :ـ تـارـيـخـ ١ـ/ـ٢٦ــ ٢ـ/ـ٢٧ــ ، الـدـكـتـورـ حـسـنـ مـؤـنـسـ :ـ فـيـ الأـنـدـلـسـ صـ ١٠١ــ ١٠١ــ). وـلـمـ يـكـنـ هـذـاـ شـيـئـاـ جـدـيـداـ إـذـ أـنـ مـوسـىـ بـنـ نـصـيرـ كـانـ قـدـ ضـربـ مـنـ قـبـلـ عـمـلـةـ فـيـ اـفـرـيـقـيـةـ سـنـةـ ٩٣ـ (٧١٢ـ)ـ كـانـ أـيـضاـ لـاتـيـنـيـةـ عـرـبـيـةـ. وـانـظـرـ مـاـنـاقـشـةـ لـيـ بـرـ وـفـسـالـ لـهـذـهـ الـقـصـيـةـ فـيـ تـارـيـخـهـ ٤١ـ/ـ٤ــ

[٥٦] ضربها منقوشةً باسمه مُقرَّةً^(١) على عياله ، إلا أنها لم تکثر في مدته ، ولا غلبت على دراهم أهل المدورة . وكان المشير عليه باتخاذ السكة والثیر لذكرها والمادی إلى منفعتها حارث بن أبي الشبل^(٢) .

الزهرة السادسة والثمانون :

ذِكْرَ أَنَّ أَبَا الْقَاسِمِ عَبَّاسَ بْنَ فِرْنَاسَ^(٣) — وَكَانَ عَالَمًا مُتَفَّضًا وَفِيلُوسُوفًا حَادِقًا وَشَاعِرًا مُفْلِقًا وَكَاتِبًا بِلِيفًا وَمُنَجِّمًا مُحَقِّقًا جَيدُ الْأَخْتَرَاعِ كَثِيرٌ [١٦٣] الْإِبْدَاعِ — احْتَالَ بِقَرْطَبَةِ فِي تَطْبِيرِ جُنْتَمَاهِ ، فَكَسَّا نَفْسَهُ الرِّيشَ وَمَدَ لَنْفَسَهُ جَنَاحَتِينِ عَلَى وزْنِ مَعْلُومٍ وَتَقْدِيرٍ قَدَرَهُ ، فَهَبَاهُ لَهُ أَنْ اسْتَطَارَ فِي الْجَوِّ مِنْ نَاحِيَةِ^(٤) الرُّصَافَةِ وَهِيَ عَلَى سَتَةِ أَمْيَالٍ مِنْ قَرْطَبَةِ ، وَاسْتَغْلَقَ فِي الْمَوَاءِ خَلْقَ فِيهِ حَتَّى وَقَعَ مِنْ مَكَانِ مَطَارَهُ عَلَى مَسَافَةِ بَعِيدَةٍ ، وَسَاءَ عَلَى ذَلِكَ مَوْقِعُهُ ، [١١ ب] لَمَا تَأْذَى مِنْ عَجْبِ ذَنْبِهِ ، إِذَا لَمْ يَحْسِنِ الْاحْتِيَالَ فِي وَقْوَعِهِ وَلَمْ يَقْدِرْ أَنَّ الطَّائِرَ إِنَّمَا يَقْعُدُ عَلَى زِمَّكَاهُ ، فَلَهَا عَنْ ذَلِكَ^(٥) . وَقَدْ كَانَ أَفْزَعَ مِنْ

(١) في ب : معزرة .

(٢) عن حارث بن أبي الشبل متولى دار السكة أيام عبد الرحمن بن الحكم انظر ليلى بروفنسال : تاريخ ٢٥٧/١ . وكذلك نفس المؤلف : إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر من ٧٥ ، حاشية ٢ .

(٣) أبو القاسم عباس بن فرناس بن ورداس التاكري (ت ٢٧٤/٨٨٧) انظر في ترجمته وأخباره المقال الجيد الذي كتبه عنه الأستاذ إلياس تيريس سادابا في مجلة الأندلس :

Elías Terés Sádaba: 'Abbās b. Firnās, «Al-Andalus», vol. XXV, 1960, pp. 239-249.

وفي هذا المقال قائمة مستوفاة بالمصادر ، على أن هناك أخباراً كثيرة عنه في المقتبس (بحقينا ، ط. بيروت) وكثير منها جديد لم يكن يعرف من قبل . انظر من ١٢٤ ، ٢٧٩ - ٢٨٧ والخاتمة رقم ٢٧٩ ص ٥١١ وما ورد فيها من مصادر .

(٤) في ب : نحو .

(٥) خبر تطبير عباس بن فرناس لنفسه ذاتئ تداولته الكتب ، انظر المقرى : فتح ٣/٣٧٤ ، ابن سعيد : المغرب ١/٣٣٣

عَيْنَ مَطَارَةَ مِنْ أَهْلِ قُرْبَةِ ، فَكَثُرَ تَحْدِثُهُمْ عَايَنُوهُ مِنْهُ وَلَا يَعْلَمُونَ شَانَهُ^(١) .

الزهرة السابعة والثمانون :

قال الأمون لبعض ولده وقد سمعه يلحن في كلامه : ما على أحدكم أن يتعلم العربية ، فيقيم بها أوده ، ويزيّن مشهدَه ، ويَفْلَحُ حُجَّاجَ خَصْمِه ، ويُصَحِّحَ كِتَابَ حُكْمِه ، ويَدْلُكُ بَلْسَ سُلْطَانَه ، بظاهر بيانه ؟ أيسِرُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لسانَ كَلْسَانَ عَبْدِهِ أَوْ أَمْتَهِ فَلَا يَزَالُ الدَّهْرُ أَسِيرًا لِّكِتَابِهِ ؟ .

الزهرة الثامنة والثمانون :

كتب الكاتب البليغ أبو عبد الله بن عبد العزيز بن عياش التّحبيّ البرشاني^(٢) كتاباً عن الخليفة يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن فشأن يهودي ، فقال فيه «يحمل على البر والكرامة» فقال له الخليفة يعقوب

(١) من مظاهر تحدث الناس عن ذلك بيت قاله معاصر عباس : مؤمن بن سعيد القسيسي القرطي :

يَطْمَعُ عَلَى الْعَقَاءِ فِي طِيرَانِهَا إِذَا مَا كَسَا جَثَانَهُ رِيشَ قَشْعَمَ
(اقرأ نفح الطيب والمغرب في الموضعين المذكورين في الحاشية السابقة) . وقد تحدث إلياس تيريس
أيضاً عن صدى هذه المحاولة في الأدب الإسباني . انظر مقاله « حول مطار عباس بن فرناس » في
مجلة الأندرس :

Elias Terés Sádaba: *Sobre el «vuelo» de Abbás ibn Firnās*, «Al-Andalus», vol. XXIV, 1964, pp. 365-369.

(٢) أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عياش التّجبي (والبرشاني نسبة إلى برشانة Purchena من عمل المريña) . ولد سنة ٥٥٠ (١١٥٥) أخذ عن الشهيلي وبنج في الكتابة . استكتبه يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن سلطان الموحدين سنة ٥٨٦ (١١٩٠)
وتوفي براكش سنة ٦١٨ (١٢٢١) . انظر في ترجمته ابن الأبار : التكلمة رقم ٣٢٠ / ١ ، ٩٥٢ — ٣٢١ (ط. كوديرا) رقم ١٥٩٦ — ٦٠٥/٢ (ط. عزت العطار) ؛ إعتاب الكتاب رقم ٧٣ ص ٢٣٠ — ٢٣٥ ؛ وعبد الواحد المراكشي : المعجب ، ط. محمد سعيد العريان ص ١٩٠ — ١٩١ ، ٢٢١ ، ٢٢٨ — ٢٣٩ ؛ صفوان بن إدريس : زاد المسافر من ٩٤ ؛ ابن سعيد المغرب ٨١/٢ — ٨٢ ؛ ابن الخطيب : الاحاطة ٤٨٢/٢ — ٤٨٧ ؛ وهناك رسائل بقلمه في «مجموع رسائل موحدة» أرقام ٣٥ — ٣٧ .

المنصور : من أين يجوز لك هذا ؟ تقول في كافر «يحمل على البر والكرامة» ؟
 قال : ففكرت ساعة وعلمت أن الانفصال عنه يلزمني ، فقلت : يا مولانا ،
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا أتاكم كريم قوم فاكرموه» وهو
 عامٌ في الكافر وغيره . قال : نعم ، هذه الكرامة ، فالمبرأة من أين أخذتها ؟
 فسكت ولم أجده جواباً . قال : فقرأ المنصور أعود بالله من الشيطان الرجيم ،
 بسم الله الرحمن الرحيم ، [164] «لا ينهاكم الله عن الدين لم يقاتلوك في الدين
 ولم يُخْرِجُوك من دياركم أَنْ تَبْرُوْهُمْ ... الآية^(١)» . قال : فسررت
 بذلك وشكرته^(٢) .

الزهرة التاسعة والشمانون :

دخل أبو دلامة^(٣) على المهدى فأنسده أبياتاً أُعِجِّبَ بها ، فقال له :
 سل يا أبا دلامة واحتكم وأفروط ما شئت ! قال : كلب يا أمير المؤمنين
 أصطاد به . قال : قد أمرنا لك بكلب ، وها هنا بلغت هميتك ، وإلى
 هنا انتهت هميتك ؟ قال : لا تعجل على يا أمير المؤمنين ، فإنه بقي على .
 قال وما بقي عليك ؟ قال : غلام يقود الكلب . قال : قد أمرنا لك بغلام .
 قال : وخادم تطبخ لنا الصيد . قال : وخادم تطبخ لك الصيد . قال : ودار

(١) القرآن الكريم ، سورة المتحنة ، آية ٨ .

(٢) ورد هذا الخبر في ترجمة ابن عياش في الإحاطة (٤٨٤/٢ - ٤٨٥) وقد نقله ابن الخطيب عن ابن خيس الذي يسند روايته لخاله أبي عبد الله بن عسكر (صاحب تاريخ مالقة) .

(٣) أبو دلامة زند بن الجون الكوفي مولى بنى أسد ، أدرك آخر زمن بي أمية واتصل بأبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور ، وكانوا يستطيبون مجالسته لفكاهته ونوازره . انظر في ترجمته ابن العتر : طبقات الشعراء ص ٤٥ - ٦٢ وابن قتيبة : الشعر والشعراء من ٧٧٦ و تاريخ بغداد ٤٨٨ ؛ أبو الفرج الإصفهانى : الأغانى ١٠/٢٣٥ وما بعدها . وذكره كثير في كتب الأدب .

هذا وقد وردت القصة المثبتة هنا في الأغانى ١٠/٢٣٦ - ٢٣٧ . وفي الشعر والشعراء ص ٧٧٦ وفي نهاية الأربع للنويرى ٤/٣٧ - ٣٨ . على أن النويرى جعلها مع السفاح أو المنصور لا المهدى ، وهو شيء نسبعده إذ كان هذان الخليفتان أكثر جدأً من ذلك .

نَسْكُهَا . قَالَ : وَدَارَ تَسْكُنَهَا . قَالَ : وَجَارِيَةٌ آتَى إِلَيْهَا . قَالَ : وَجَارِيَةٌ تَأْوِي إِلَيْهَا . قَالَ : بَقِيَ الآنِ الْمَعَاشُ . قَالَ : قَدْ أَقْطَعْنَاكَ^(١) أَلْفَ جَرِيبَ عَاسِرَةَ وَأَلْفَ جَرِيبَ غَامِرَةَ . قَالَ : وَمَا الْغَامِرَةُ ؟ قَالَ الَّتِي لَا تُعْمَرُ . قَالَ : أَنَا أَقْطَعُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خَمْسِينَ أَلْفًا فِي فِيافِي [١٢] بْنَ أَسْدَ . قَالَ : قَدْ جَمَلْنَاهَا لَكَ عَامِرَةً كُلَّهَا . فَقَبَّلَ يَدَهُ وَانْصَرَفَ .

الزهرة التسعون :

قَالَ سَلَمَةُ بْنُ سَعِيدَ^(٢) : كَنَا عَدْ مُعاوِيَةَ بْنَ أَبِي سَفِيَّانَ ، فَقَالَ : وَدِدْتُ لَوْ أَنْ عَنْدَنَا مِنْ يُحَدِّثُنَا عَمَّا مَضَى مِنَ الزَّمَانِ هُلْ يَشْبَهُ مَا نَحْنُ فِيهِ أَمْ لَا ؟ قَيلَ^(٣) لَهُ : بِحَضْرَمَوْتَ رَجُلٌ قَدْ أَتَتْ عَلَيْهِ ثَلَاثَةَ سَنَةَ . فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مُعاوِيَةَ فَأْتَى بِهِ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَجْلَهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : مَا اسْمُكَ ؟ قَالَ لَهُ : أَمْدُ^(٤) بْنُ أَبْدَ . قَالَ لَهُ : كَمْ أَنْتِ عَلَيْكَ مِنَ السَّنَينِ ؟ قَالَ ثَلَاثَةَ

(١) فِي بِ : أَقْطَعْنَا لَكَ .

(٢) هَذَا الْجَبَرُ نَوْذِجُ لَكَثِيرٌ مِنَ الْأَخْبَارِ الْمُشَابِهَةِ الَّتِي تَرَدُ فِي رِوَايَاتِ الْقَصَاصِ وَالْأَخْبَارِيْنِ حَوْلَ بَعْضِ الْمُعْرِمِينَ ، وَهِيَ أَخْبَارٌ بَيْنَهُنَّ الْوَضْعُ وَالصَّنْفُ ، وَيَتَضَعَّ هَذَا حَتَّى فِي أَسْمَاءِ مِنْ تَنْسِبُ إِلَيْهِمْ تَلْكَ الْأَخْبَارِ ، مُثْلِ أَسْمَ « أَمْدُ بْنُ أَبْدَ » الَّذِي كُوْرَ فِي هَذِهِ الْزَّهْرَةِ . عَلَى أَنْ هَذِهِ الْأَخْبَارِ قِيمَةُ فِي بَيَانِ تَصْوِيرِ أَوْلَئِكَ الْقَصَاصِ وَالْأَخْبَارِيْنِ لِأَحْوَالِ مَا مَضَى مِنَ الزَّمَانِ . وَالطَّرِيفُ أَنَّ مُعْظَمَ أَوْلَئِكَ « الْمُعْرِمِينَ » الْأَسْطُوْرِيْنِ مِنْ أَهْلِ الْيَمِنِ ، وَأَنْ كَثِيرًا مِنْ أَخْبَارِهِمْ مُرْتَبَطٌ بِذِكْرِ الْحَمِيلَةِ الْأُولَى مُعاوِيَةَ بْنَ أَبِي سَفِيَّانَ . أَمَّا الْجَبَرُ الْوَارِدُ هَذِهِ فَقَدْ رَأَيْنَا مَا يَشْبَهُهُ فِي كِتَابِ « الْمُعْرِمِينَ » لِأَبِي حَاتِمِ السِّجِسْتَانِيِّ (النَّشُورُ مَعَ كِتَابِ الْوَصَايَا لِأَبِي حَاتِمِ أَيْضًا ، بِتَحْقِيقِ الْأَسْتَاذِ عَبْدِ النَّعْمَ عَامِرَ ، الْقَاهِرَةِ ١٩٦١) . فِي هَذَا الْكِتَابِ خَبَرَانِ أَحَدُهُمَا عَنْ مَعْرِمٍ مِنْ جَرَمٍ (ذُكْرُ فِي حَاشِيَةِ الْأَصْلِ الْمُخْطُوطِ أَنَّ عَبِيدَ بْنَ شَرِيْبَةِ الْجَرَمِيِّ) وَمُحَاوِرَةً لَهُ مُعاوِيَةَ بْنَ أَبِي سَفِيَّانَ (ص ١٠—١١) ثُمَّ قِصَّةُ أُخْرَى تَرَوِيُّ عَنْ عَبِيدَ بْنَ شَرِيْبَةِ أَيْضًا وَمُحَاوِرَةً أُخْرَى لَهُ مُعاوِيَةَ (٥٠—٥٢) ، وَفِي هَاتِينِ الْمُحَاوِرَتَيْنِ تَفَاصِيلٌ تَنَقَّلُ مَعَ مَا نَسَبَ هُنَّا لِأَمْدِ بْنِ أَبْدَ ، وَإِنْ كَانَ الرِّوَايَاتُ هُنَّا كَتَنَّ تَخَلَّفَانَ عَمَّا نَجَدَهُ هُنَّا فِي تَفَاصِيلِ أُخْرَى . وَعَنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْقَصَصِ الْأَسْطُوْرِيَّةِ لِتَارِيْخِ الْيَمِنِ الْقَدِيمِ اَنْظُرْ دَرَاسَةَ فَرَاتِرَ رُوزَتَالَ عَنْ « عِلْمُ التَّارِيْخِ عَنْدَ الْمُسْلِمِيْنَ » ، تَرْجِمَةُ الدَّكْتُورِ صَالِحِ أَحْمَدِ الْعَلِيِّ ، بَغْدَاد١٩٦٣ ، ص ٢٥٨—٢٥٩ .

(٣) فِي بِ : فَقَالَ .

(٤) فِي بِ : أَسْدَ ، وَالْأَسْمَ كَمَا وَرَدَ فِي أَوْفَقِ الْسِيَاقِ .

سنة . ثم قال له : حدثنا عما مضى من الزمان ، هل يشبه ما نحن فيه اليوم ؟ فقال : نعم ، كأنه ما ترى : ليل يحيى من ها هنا ونهار يحيى من ها هنا ^(١) ويذهب [١٦٥] من ها هنا . قال : فأخبرني عن أعجب ما رأيت . قال : رأيت الظَّعِينَةَ تخرج من بلاد الشام حتى تأتي مكة لا تحتاج إلى طعام ولا إلى شراب ، تأكل من النار وتشرب من العيون ، ثم هي الآن قُرْبَةً كما ترى ^(٢) . قال : فأخبرني عن خير المال . قال : عَيْنٌ حَرَارَةٌ ، في تُرْمِيَةٍ حَوَارَةٍ . قال : ثم ماذا ؟ قال : فرس في بطئها فرس تتبعها فرس . قال : فأين أنت عن الدينار والدرهم ؟ قال : حَرَانٌ إِنْ أَخْذَتْ مِنْهَا نَفْسًا وَإِنْ تَرْكَتْهَا لَمْ يَزِدَا . قال : فأين أنت عن الغنم والإبل ؟ قال : ليسا مال مثلك ، إنما هو مال من شهد لها بنفسه . قال : فأين أنت عن الرقيق ؟ قال : عَيْنٌ مُسْتَفَادٌ ، وَغَبَطٌ بِالْأَوْتَادِ ^(٣) . قال : ألك حاجة ؟ قال : نعم ، تَرُدُّ عَلَى شَبَابِي . قال : لا أقدر ! قال : فُتَنَجِّيَنِي مِنَ النَّارِ وَتُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ . قال : لا أقدر . قال : فلا أرى عندك دنيا ولا آخرة ! رُدَنِي إِلَى بلدِي . فأمر به فَرَدَ إِلَى بلدِه .

النهرة الحادية والتسعون :

كان بُرهان الدين البَلْخِيُّ ^(٤) يُضْرِبُ بِهِ المثلُ فِي الْعِلْمِ وَالْإِزْهَدِ ، وَكَانَ قد اختار سكنى دِمَشْقَ وَيَقُولُ : أَتَذَكَّرُ بِهَا جَنَّةَ الْفِرْدَوْسِ فَيَنْهَا هُوَ يَدْرِسُ

(١) « ونهار يحيى من ها هنا » لم ترد في بـ.

(٢) يبدو من هذا الحديث وأمثاله في كتب الأدب العربي القديم أن العرب كانت لديهم ذكريات عن ماضي بلادهم القديم تصورها أقل جديا وأكثر خصوصية وميها ورعا ما عرفوها في جاهليتهم المتأخرة ، وهو تصور تصدقه الأبحاث والمكتشفات الأثرية .

(٣) في ا : كالآوتاد .

(٤) أبو الحسن علي بن الحسن بن محمد بن جعفر أو أبو جعفر البَلْخِيُّ الْوَاعِظُ الْرَّاهِدُ الشَّهِيرُ بِبُرهانِ الدِّينِ الْبَلْخِيِّ . نَفَقَهُ بِيَخْارِي وَبِرَعَ فِي الْفَقَهِ وَالْحَدِيثِ فِي بِلَادِ مَا وَرَاءِ النَّهْرِ ، وَدَرَسَ بِحَلَبِ وَدِمَشْقِ . وَجَعَلَتْ لَهُ دَارُ الْأَمِيرِ طَرَخَانَ بِدِمَشْقَ مَدْرَسَةً سَنَةَ ٥٢٠ (١١٢٦) ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ درَسَ بِهَا . وَإِلَيْهِ تَنْسَبُ الْمَدْرَسَةُ الْبَلْخِيَّةُ . وَسَفَرَ بَنْ نُورُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ زَنْكَى هُوَ وَأَسَدُ الدِّينِ شِيرْكُوه =

يدرس بمدرسة المسجد الأعظم ويَعِظُ الناس إذ وصل إليه من أبلغه عن السلطان محمود بن زنكي^(١) ما لم يَحْمِلْهُ . فقال — والناس يسمعون — : ما يبني وبين ابن زنكي^(١) إلا هذه السجادة ! ورفع سجادته المرقعة على كتفه واستوى خارجاً عن المدينة . قالوا : ولم يُخَالِفْ وراءه ما يُتَشَوَّفُ إليه . فيبلغ الخبر السلطان محموداً ، فعَظَ عليه ، فركب وسار حتى لقاه على أميال ، فترجَّلَ وجاء إليه بنفسه وقال : [ب ١٢] هكذا يكون يا برهان الدين ؟ فقال له برهان الدين : أستقدرُ عَلَى سلطانك ؟ فقال : لو كان ذلك ما خرجت لك في هذه الحال !وها أنا أرَغُبُ إليك في الرجوع ، فإن رجعت لي أحسنت^(٢) ، وإن لم [١٦٦] ترجع لم أشتَكِ منك إلا الجفاء ، ولا أعلم ذنباً أستحقه به . فذكر له ما بلغه عنه . فأقسم أنه كذب . فقال : أرجع إذن بشرط ألا يعاقب الناقل . قال السلطان : بل بشرط ألا يُعرَفَ من هو . فتصاحفاً ورجعاً راجلَيْن حتى أدخلَه المدرسة ، وحيثئذ ركب إلى قصره .

الزهرة الثانية والتسعون :

أوصى عبد الملك بن مروان بنبيه ، فقال^(٣) : يا بني إن شرف الدنيا في ثلاثة : الشجاعة ، والمال ، والعلم ، فلا يخلوَنَ أحدكم من أحدها ، ومن

— وين مجير الدين صاحب دمشق وذلك حينما قام نور الدين بمحاصراها . وتوفي سنة ٥٤٨ (١١٥٣) . انظر في ترجمته ابن أبي الرواء القرشي : الجواهر المضية في طبقات الحنفية ، ط . حيدرabad سنة ١٣٢٢هـ — ٣٥٩/١ . ابن العاد الحنبلي : شذرات الذهب ٤/٤٤ ؛ ابن تفري بردي : التجوم الظاهرة ٣٠١/٥ ؛ العاد الاصبهاني : خريدة القصر ، الجزء الأول من قسم شعاء الشام ، بتحقيق د . شكري فيصل ٣٠٧—٣٠٩ وراجع الماشية في هذا الموضوع .

(١) في ب : زنكي . والسلطان نور الدين محمود بن زنكي توفي سنة ٥٦٩ (١١٧٤) . انظر عن حياته وأعماله الكتاب القيم الذي أفرده له الدكتور حسين مؤنس بعنوان «نور الدين محمود : سيرة مجاهد صادق» القاهرة ١٩٥٩ .

(٢) في ب : «حسبت» .
(٣) هناك وصية لعبد الملك بن مروان لبنيه قربة الشبه بما ورد هنا — وفيها أيضاً وصية للخلفية الاموية لبنيه بالحجاج الثقفي — في كتاب المصايف لأبي حاتم السجستانى المشور مع كتاب المعمرين له أيضاً ، بتحقيق الاستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦١ (ص ١٦٠—١٦١) .

استطاع كلها فقد انقادت له الدنيا بِزَمَانِهَا ، وأعْطَته قيادَهَا ، ومن خلا منها فهو في عدد البهائم التي لا تُذَكَّر بخصلَةٍ ولا تُنْسَبُ إلى مَزِيزَةٍ ، أوصيكم بتقوى الله فإنها غنية باقية ، وجنة واقية ، فالتفوى خير زاد ، وأفضل ما قدَّم في المعاد ، وهو أحسن كهف ، وليعطف الكبير منكم على الصغير ، ول يعرف الصغير حق الكبير ، مع سلامه الصدور ، والأخذ بجميل الأمور ، وإياكم والبني والتحاسد ففيهما هَلَكَ الملوك الملاصون ، وذوو العز الممکون . يا بَنَى ، أخوكم مَسْلَمَةً نابكم الذي عنه تَفَرَّقُونَ ، وَمَجَنَّكُمُ الَّذِي بِهِ تَسْتَحِنُونَ ، اصدروا عن رأيه ، وأكرموا الحاجاج فإنه الذي وَطَّا لكم هذا الأمر . كونوا أولاً أَبْرَاراً ، وفي الحرب أَحْرَاراً ، ولالمعروف منارا ، والسلام .

الزهرة الشائعة والتسعون :

أوصى الخليفة الحكم بن هشام^(١) بن عبد الرحمن بن معاوية ابنه لما فَوَّضَ الأمْرَ إِلَيْهِ وَوَلَاهُ عَهْدَه^(٢) فقال : يا بَنَى ، طِبِّ نفساً بما يصير إِلَيْكَ

(١) لابد أن الأمير الحكم عهد بهذه الوصية حينما اشتد به المرض في أواخر سنة ٢٠٦ هـ (أبريل ٨٢٢). ويدرك ابن عذاري (بيان ١/٧٧) أن الأمير الحكم عقد البيعة يوم الأربعاء ١١ من ذى الحجة أى ثانٍ يوم عيد الأضحى (٧ مايو ٨٢٢) لابنه عبد الرحمن ثم من بعده لابنه الآخر المغيرة ، وذلك بعد أن استبعد عن ولاية العهد ابنه الأكبر هشاما حينما بلغه أنه كان يتمتع موته حتى يرثه . (انظر ليفي بروفنسال : تاريخ ١٩٠/١).

(٢) لم يرد في المراجع الاندلسية القدية شيء عن هذه الوصية التي تعد وثيقة على أعظم جانب من القيمة والخطر ، إذ هي أشبه بدسّتور الحكم وضعه الأمير الحكم لابنه عبد الرحمن . والمؤرخ الوحيد الذي أشار إلى وجودها هو الاستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه « دولة الاسلام في الاندلس » الطبعة الرابعة ، نشر مكتبة الماتنجي بالقاهرة ١٩٧٩ ، ص ٢٤٨ ، إذ نقل هذه الوصية عن مخطوطة « المقتبس » لابن حيان ، القطعة الخاصة بamarق الحكم وعبد الرحمن ، وهي قطعة كانت لدى المستشرق الراحل ليفي بروفنسال ، ولم يعرف عنها شيء بعد وفاته ، وبيني أن تكون هذه القطعة المنشية قد ضاعت إلى غير رجعة ، ويزيدنا هذا تقديرأً لفضل الاستاذ عنان الذي احتفظ لنا بنسخ تلك الوثيقة ، وقد ذكر في تعليقه عليها (حاشية رقم ٤) أنها وردت في مخطوطة ابن حيان بروابطين مختلفتين للرازي وبلماوية بن هشام الشيبني ، إلا أنه خاطئها ونسق بينها ، مما جعلنا لا نعرف الآن على أي =

من سلطانى ، وانبسط منه كيف شئت ، فقد مهدت لك الملك ، ووطأت^(١) لك الدنيا ، وذلت لك الأعداء ، وأمنت عليك الاختلاف والمنازعة ، فأولى الأمور بك وأزيئها لك حفظ أهلك ، ومراعاة عشيرتك ، ثم الذين يلوهم من مواليك ، فهم أولياؤك حقا ، وأنصارك صدقأ ، ومشاركوك في حلوك ومراكك ، فبهم أنزل ثقتك ، وإياهم واس من نعمتك ، وإن رأيت فيمن يرتقي من صنائعك^(٢) رجالا لم تنهض به سابقة ويشف بخصلة وتطمح به نفس وهمة فاعنه [١١٣] واختبره وقدمه واصطنه ، ولا يربنك خمول أوّلئاته ، فإن أول كل شرف خارجية^(٣) ، ولا تدع مجازة المحسن بإحسانه ، ومعاقبة المسيء بإساءته ، فإنك عند التزامك لهذين ووضعك لها مواضعهما يرثب فيك ويُرثب منك ، وملائكة ذلك كله أن تتقى الله ما استطعت وتعدل في أحکامك ، وتتخير من حکامك ، وإلى الله أكلك وإياه^(٤) أستحفظك ، فقد هان الموت على إذ خلفني مثلك .

= رواية من الروايتين اعتمد مؤلف « الزهارات » ، وعلى كل حال فإن التشابه بين نص « الزهارات » والنص الذي أورده الأستاذ عنان يؤكّد صحة هذه الوثيقة وكونها مقتولة عن أصل قديم ثابت ، لعله « المقتبس » لابن حيان .

(١) في ب : ووطدت .

(٢) في ب : صنائعك .

(٣) الخارجى هو الذى يخرج وبشرف بنفسه من غير أن يكون له قديم . قال كثير عزة :

أبا مروان لست بخارجي وليس قديم مجدك باتصال

والخارجية هي الحيل التي لا عرق لها في الجودة فتخرج سوابق . (انظر لسان العرب تحت المادة) ، فعنى الخارجية هنا السبق والبروز بغير قديم .

هذا وقد اتبع عبد الرحمن بن الحكم ذلك المبدأ الذي وصاه به أبوه : مبدأ اصطدام بعض الرجال دون نظر إلى خمول أوليائهم ، مما نرى له شاهداً في فعله بمحمد بن سعيد الزجالي (انظر ترجمة الزجال في القصيدة التي نشرناها من « المقتبس » لابن حيان ، ص ٣٢ وما بعدها) .

(٤) « أكلك وإياه » ناقصتان في ب .

الزهرة الرابعة والتسعون :

لما حضرت الوفاة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال ^(١) : أدعُ لى بَنِي . فدعاهم وكانوا اثني عشر ، فلما نظر إليهم دمعت عيناه وقال : يا بَنِي ، بأبى ^(٢) من أتركم فقراء ! فقال له مسلمة بن عبد الملك : وما يمنعك أن تغشِّيهم ؟ فوالله لا يرد ذلك بعده أحد ! فقال له : يامسلمة ، ما كنت تحررْتُ فيه ^(٣) في الدنيا ، أفالصل به في الآخرة ؟ بَنِي رجالان : إما طائع وإما عاص ، فإن يكن طائعاً فالله يرزقه من حيث لا يحتسب ، وإن يكن عاصياً فلست أعين على عصيانه . ثم قال لهم : يا بَنِي ، أترضون أن تكونوا أغنياء في الدنيا ويدخلن أبوكم النار على ذلك في الآخرة غداً ^(٤) ؟ قالوا : لا ! قال لهم : أرجو ألا تلقوا ^(٥) امرأ ^(٦) إلا وهو محبٌ فيكم لأنه ما ناله أبوكم بشر ، اذبهوا عصموكم الله ، رزقكم الله ، لا أفرقكم الله . فلم ير أحد من ذريته وهو فقيرٌ قط .

الزهرة الخامسة والتسعون :

وَقَعَ المَعْصَمُ بِاللَّهِ أَبُو يَحْيَى بْنُ مَعْنَ بْنِ صَادِحٍ التِّجِيَّبِيِّ صَاحِبِ الْمَرِيَّةِ ^(٧)

(١) ورد مثل هذا الخبر في العقد الفريد لابن عبد ربه (٤٤٠ - ٤٣٩) مع بعض الفروق ، إذ لم يرد فيه ذكر للحوار بين عمر ومسلمة بن عبد الملك . وكذلك في كتاب « الوصايا » لأبي حاتم السجستانى ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) في أ : بأبى تركتمهم ، وفي ب : من أتركم .

(٣) في أ : به . والمقصود ما كنت تخرجت فيه .

(٤) « غداً » ناقصة في ب .

(٥) في أ : أرجو أنكم لا تلقون امرأً .

(٦) في الخبر الوارد في العقد (٤٤٠ / ٤) : « إنكم لا ترون على مسلم ولا معاهد إلا و لكم عليه حق واجب إن شاء الله ». =

(٧) أبو يحيى محمد بن معن بن صادح من ملوك الطوائف صاحب مدينة المرية ، حكمها بعد وفاة أبيه سنة ٤٤٣ (١٠٥١ - ١٠٥٢) حتى دخول المرابطين عليه بلده في ٤٨٤ (١٩٠١) .

فِي رُقْمَةٍ مِنْ أَلْحَانِهِ فِي الْمَرْيَدِ مِنْ أَوْعَالٍ^(١) الْجَنْدُ الْمَرْتَقِينَ مِنْ دِيَوَانِهِ^(٢) :
 «أَنْتَ عَالَةٌ لَا آلَةٌ ، وَمَؤْنَةٌ لَا مَعْوَنَةٌ ، وَ«إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ
 مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا»^(٣) .

وَوَقَعَ الْخَلِيفَةُ النَّاصِرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ عَلَى كِتَابٍ عُثْرَةٍ عَلَيْهِ بِقَرْطَبَةِ
 دَسَّهُ إِلَى حَضْرَتِهِ أَمِيرُ إِفْرِيقِيَّةِ مَعَدُّ بْنِ إِسْمَاعِيلِ الشَّيْعِيِّ^(٤) إِذَا كَانَتْ بِيَنْهَا
 مَنَافِقَةٌ وَعِدَاوَةٌ أَخْشَى فِيهِ السُّبُّ وَأَكْثَرُ الدَّمَّ : «يَا هَذَا ، عَرَفْتَنَا فَسَبَّبْتَنَا ،
 وَجَهْلَنَاكَ نَحْنُ فَأَمْسَكْنَا عَنْكَ» لَمْ يَزِدْهُ عَلَى هَذِهِ كَلِمةٍ وَاحِدَةٍ^(٥) . قِيلَ :

— انتظر في أخباره كتاب التبيان (مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين) تحقيق ليفي بروفنسال (في
 مواضع عديدة . راجع الفهرس) ؛ ابن خاقان : قلائد العقيان ص ٤٧—٥١ ؛ عبد الواحد المراكشي :
 العجب ص ١٣٥—١٣٧ ؛ ابن الأبار : الحلة السيراء ٢/٧٨—٨٨ ؛ ابن سعيد : المغرب
 ٢/١٩٥—١٩٨ ؛ ابن سام : النخبة ١—٢/٢٤٢—٢٢٦ ؛ ابن دحية : المطرب ص ٣٤—
 ٣٨ ؛ ابن خلكان وفيات الأعيان ٤/١٣٦—١٣١ ؛ ابن عذاري : البيان ١٦٨/٣ ، ١٧٤ ،
 ١٩٢ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٩٠—١٩٢ ؛ المقري : نفح (في مواضع عديدة ولا سيما
 في المجلد الثالث) ؛ وانتظر برتوليفي : ملوك الطوائف Prieto y Vives: *Los reyes de Taifas*, Madrid, 1926, pp. 61-62.

(١) جم وغل (فتحة فسكون) والوغل هو الضعيف الساقط المقصري في الأشياء .

(٢) يتحقق هذا المثير في دلائله مع ما يلح عليه المؤرخون من إخلاص المعتصم بن صادح إلى الدعوة
 وعزوفه عمّا نسب فيه أمثلة من ملوك الطوائف من فتن وحروب .

(٣) القرآن الكريم ، سورة الإنسان ، آية رقم ٩ .

(٤) هو المعز الدين الفاطمي رابع الخلفاء الفاطميين ولد بالهداية سنة ٣١٨ أو ٣١٩—٩٣٠
 ٩٣١ ، وولي الخلافة بعد موت أبيه سنة ٣٤١ (٩٥٢) ودخلت جيوشه مصر بقيادة جوهر الصقلي

سنة ٣٥٨ (٩٦٩) وانتقل هو إلى مصر بعد ذلك في ٣٦٢ ، وفيها توفي سنة ٣٦٥ (٩٧٥) .

(٥) أورد المقري في النفح (٣/٥٥٨) والعالي (بيتيمة الدهر ، نشر الشيخ محي الدين عبد
 الحميد ، القاهرة ١٩٥٦ ، ١٩٥٦/١ ، ٣١٠) كتاباً شبّه بهما : «أَمَا بَعْدُ ، فَإِنَّكَ عَرَفْتَنَا فَهُجُوتَنَا وَلَوْ عَرَفْتَنَا
 لَأَجْبَنَاكَ» إِلَّا أَنَّهُ نَسَبَهُ إِلَى «المرواني صاحب الأندلس» دون تحديد إلى «نزار العبيدي» ، وَنَزَار

هذا هو الخليفة الفاطمي المعزيز بالله بن المز ، ولو صح ذلك فلا بد أن يكون الخليفة المرواني المشار
 إليه هو الحكم المستنصر لا عبد الرحمن الناصر ، كما جاء في الخبر هنا . ويبدو لنا أن ما ساقه صاحب

الزهارات أصح ، لا سيما إذا ذكرنا أن الحكم المستنصر كان مقتعمًا بصحة نسب الفاطميين ، بل إنه سجل
 ذلك في تأليف له حول أنساب الطالبيين والعلوبيين القادمين إلى المغرب (انظر ابن عذاري : البيان

١٥٨/١ وأفضل دراستنا عن «التشيع في الأندلس» ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في
 مصر ، المجلد الثاني ١٩٥٤ ص ١٢٥) .

فكان هذا أبلغَ ما كُتِبَ في معناه ، وفيه إشارة إلى أنه مُدعٍ في نَسْبِه وأنه مجهول غير معروف ، ومن لا يُعرفُ لا تُعرفُ مناقبُه ولا مثالبه .

وَوَقَعَ [١٣ ب] الأمير ذو الرياستين عبد العزيز بن الناصر عبد الرحمن بن المنصور محمد بن أبي عامر المَعَافِرِيُّ^(١) في كتاب ورد عليه من الأمير مجاهد العاصي صاحب دانية^(٢) ومولى جده قال فيه منه^(٣) : [من الكامل]

سَبَّتْ نِزَارَ عَبِيدُهَا فَعَذَرْهَا شِيمُ الْعَبِيدِ مَسَبَّةُ الْأَحْرَارِ

ووقع ابراهيم بن العباس الصولي^(٤) وزير التوكّل في ظهر كتاب ورد من بعض العمال بدم رجل ومدح آخر ، فقال : «إذا كان للمحسن من الحق ما يُقْنَعُه ، وللمسيء من النكال ما يَقْمَعُه ، بذل المحسن الحق عليه رغبة ، وانقاد المسيء للحق عليه رهبة» . قال : فوثب الناس عليه يقبلون يَدَيه .

(١) عبد العزيز بن عبد الرحمن (شنجول) بن المنصور بن أبي عامر الملقب بالمنصور ذي السابقتين (لا الرياستين كما جاء في النص هنا) هو حفيد الحاجب المشهور المنصور بن أبي عامر ، اجتمع على تقيده صقالبة شرق الأندلس في بلنسية في سنة يضطرب فيها المؤرخون بين ٤١٧ و ٤١٢ و ١٠٢٦ و ١٠٢١) . وقد طالت إمارته في بلنسية حتى ٤٥٢ (أواخر ١٠٦٠ أو أوائل ١٠٦١) انظر ابن عذاري : البيان ٣/١٦٤—١٦٥ ؛ ابن الخطيب : أئمَّال من ٢٢٤ ؟ وبريلو فينس : ملوك الطوائف من ٣٩—٤١ .

(٢) أبو الجيش مجاهد بن عبد الله العامري أكبر ملوك الطوائف من الموالي الصقالبة العامريين في شرق الأندلس ، استقل بحكم دانية وجزر البليار منذ الفتنة في نحو سنة ٤٠٠ (١٠٩١) ، حتى وفاته في ٤٣٦ (١٠٤٥) .

(٣) ذكر ابن سعيد (المغرب ١/٣٣٢) والمقرى : نفح (٤/١٢٢) أن مجاهداً كان قد كتب إلى المنصور عبد العزيز رقعة لم يضمها غير بيت الخطبئة :

دع المكارم لا ترحل لبغتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى
 فأغضبته وأقامته وأقعدته حتى حضر وزيره وكاتبته أبو عامر ابن الشاكرى فكتب عنه :

شتمت مواليها عبيد نزار شيم العبيد شتبة الأحرار

(٤) ابراهيم بن العباس الصولي الكاتب المشهور كتب للمعتصم والواثق والمتوكل عاش بين سنى ١٧٦ و ٢٤٣ (٨٥٧—٧٩٢) . انظر في ترجمته وآثاره بروكلان : تاريخ الأدب العربي (الترجمة العربية) ٢/٤٢—٤٣ .

ووْقَمْ سَلِيَّانَ [١٦٩] الْمُسْتَعِينَ^(١) بْنَ الْحَكْمَ بْنَ سَلِيَّانَ بْنَ النَّاصِرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنَ مُحَمَّدٍ عَلَى كِتَابِ رَفِعَهُ إِلَيْهِ أَبُو القَاسِمِ بْنَ مُقْدَمَ^(٢) يَشْكُوُ إِلَيْهِ ضَيْقَ حَالَةِ ، وَكَانَ مَعَهُ فِي مَحَلِّهِ فِي تَحْوِلَهِ مَعَ الْبَرِّ بِالْأَنْدَلُسِ بِشِعْرٍ أَوْلَهُ^(٣) :

[من بحر الوافر]

أَهْلُ تَرْضَى لِعَبْدِكَ أَنْ يُذَالَّا وَأَنْ يَبْقَى عَلَى الدُّنْيَا عِيَالًا

فَبَعْثَ إِلَيْهِ بِصَلَةٍ وَكَسُوَّةٍ وَوَقْمٌ عَلَى ظَهَرِ كِتَابِهِ : [من الوافر]

مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَبْقَى عِيَالًا وَأَنْ نُرْضَى لِمُلْكِكَ أَنْ يُذَالَّا
وَكَيْفَ وَأَنْتَ مُنْقَطِعٌ إِلَيْنَا وَقَدْ عَلَقْتَ يَدَكَ بَنَاءً حِبَالًا
وَهَاءِكَ مِنْ نَوَافِلِنَا يَسِيرًا وَلَكُنَا أَنْتَقَيْنَا حَلَالًا

ووْقَمْ زَاوِي بْنُ زَيْرِي بْنَ مَنَادِ الصَّنْهَاجِيَّ^(٤) كَبِشُ الْحَرْبِ وَمَهْوُنُ الْكَرْبُوبِ عَلَى رَقْعَةِ خَاطِبِهِ بِهَا الْمَرْتَضَى بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ بْنِ مُحَمَّدٍ^(٥) لَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ بِجُنْدِهِ غَرَّنَاطَةَ بِالْعَسَارِ الْكَثِيرَ وَالْجَنُودِ الْوَافِرَةِ مِنْ الْمَوَالِيِّ الْعَامِرِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَمْرَاءِ الْأَنْدَلُسِ وَوِجْهَهُمْ كَانَ

(١) سليمان المستعين من خلفاء الفتنة البربرية مات في سنة ٤٠٠ (١٠١٠) على محمد بن هشام المهدي وثبت بين الفريقيين حروب هائلة تدواولا فيها الخلافة حتى قتل سليمان على يد على بن حمود الحسني سنة ٤٠٧ (١٠١٦).

(٢) في الحلة السيراء (١١/٢) : . . . بن مقدام ، ولقبه هناك بالقاضي.

(٣) ورد الخبر والأيات كاسبيق أن ذكرنا في الحلة السيراء لابن الأبار ١١/٢ - ١٢

(٤) عن زاوي بن زيري الصنهاجي انظر ما سبق أن كتبناه في الحاشية رقم ٢ من

(٥) عبد الرحمن بن محمد المرواني الملقب بالمرتضى . كان قد جلأ في سنوات الفتنة البربرية إلى بلنسية حيث قام بأمره خيران العامري صاحب الرية ومنذر بن محيي التجبي صاحب سرقسطة في سنة ٤٠٧ (١٠١٧) . وفي العاشر من ذي الحجة سنة ٤٠٨ (٢٩ ابريل ١٠١٨) بباباهم على الخلافة العلوى بها القاسم بن حمود الحسني . إلا أن المرتضى عرج بمشورة منذر وخيران على غرناطة لخمارية البربر بها . وكان على غرناطة زاوي بن زيري الصنهاجي ، فخرج الصنهاجيون فأوقعوا به هزيمة منكرة قتل فيها ومزق جيشه وذلك في سنة ٤٠٩ . انظر ليفي بروفنسال : تاريخ ٣٢٨/٢ والراجع المذكورة .

معهم من النَّصَارَى الْأُفْرَنجِينَ يَدْعُوهُ فِيهَا إِلَى الطَّاغِيَةِ وَيُجْهِلُ مَوْعِدَهُ إِنْ فَاءَ إِلَيْهَا . فَوْقَ زَاوِي عَلَى ظَهِيرَ رُقْمَتِهِ : « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لَا أَبْعُدُ مَا تَعْبُدُونَ . . . إِلَى آخِرِ السُّورَةِ »^(١) ؛ فَلَمَّا بَلَغَتِ الْمُرْتَضَى أَعْدَادُ عَلَيْهِ كِتَابَ وَعِيدٍ وَتَهْدِيدٍ ، فَلَمَّا قَرَأَهُ زَاوِي بْنُ زِيَّرٍ وَقَعَ عَلَى ظَهِيرَهُ : « أَهَمَّكُمُ التَّكَاثُرُ ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ، كَلَّا سُوفَ تَعْلَمُونَ »^(٢) [١٤] لَمْ يَزْدَهِمْ [١٤] عَلَى هَذَا شَيْئًا ؛ فَازْدَادَ الْمُرْتَضَى غَيْظًا ، وَنَاسَبَهُ الْقَتَالُ ، فَاقْتَلُوا أَيَّامًا خَارِجَ غَرْنَاطَةَ ، وَزَاوِي يُحَكِّمُ التَّدْبِيرَ وَالْمَقْدَارَ يَسْاعِدُهُ إِلَى أَنْ اهْزَمَ عَسْكَرَ الْمُرْتَضَى وَكَانَ فِيهِ وَجْهٌ الْأَنْدَلُسِ وَجْلًا أَمْرَائِهَا ، فَطَارُوا عَلَى وَجْوهِهِمْ مُسْلِمُوْهُمْ وَإِفْرَنجُهُمْ لَا يَلْوِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ، وَصُرِعَ الْمُرْتَضَى [١٧٠] فِي صَنْكِ تَلْكِ الْمَصَايِقِ ، وَهُوَ يَرُومُ الْفَرَارَ إِلَى وَادِي آش^(٣) ، وَوَقَعَ الْبَرَابِرُ مِنْ صَنَاهَاجَةِ وَمِنْ كَانَ مَعَهُمْ بَغْرَنَاطَةَ مِنْ نَهْبِ تَلْكِ الْمَحَلَّاتِ عَلَى مَا لَا كِفَاءَ لَهُ اتسَاعًا وَكَثْرَةً ، وَحِيزَتْ فَسَاطِيطُ الْأَسْرَاءِ وَمَضَارِبُ الرَّؤْسَاءِ الَّتِي كَانُوا يَتَبَاهُونَ بِهَا إِذْ كَانُوا قَدْ تَنَاهَغُوا^(٤) فِي الْمَبَاهَةِ ، وَجَاءُوا بِجِهَةِ مِنْ لَا يَشْكُ فِي الظَّفَرِ ، فَسَاقُوا مَعَ أَنفُسِهِمْ رَفِيعَ الْخُلُّيَّةِ وَفَاخِرَ الزِّينَةِ وَفِي أَشَكٍ^(٥) الْعُدَّةِ وَأَوْفَى الْعَدَدِ . وَأَوْلَى مِنْ انْجَازِ مِنْ عَسْكَرٍ مِنْذُرٍ بْنُ يَحْيَى التُّجَيِّبِيِّ صَاحِبِ الْبَلْسِيَّةِ وَدَانِيَّةِ^(٦) ، ثُمَّ

(١) سورة الكافرون . هذا وقد ورد ذكر هذه المكانتية في ابن بسام : النَّخِيرَةِ ق . ١—٣٩٧—٣٩٨ (نَقْلاً عن ابن حيان) وفي البيان المُرْبِّ / ٣—١٢٥ / ١٢٦ ، وفي الإحاطة لابن الخطيب (ط. عَنَان) / ١ / ٥٤٤ ؛ وقد ورد توقيع زيري الثاني فقط في كتاب البيان (مذكرة الأمير عبد الله بن بلقين) ص ٢٢—٢٣ .

(٢) سورة الشكّار .

(٣) وَادِي آش Guadix تَقْعِدُ عَلَى مَسَافَةِ ٥٣ كِمْ . شَمَالُ شَرْقِ غَرْنَاطَةَ . اَنْظُرْ دَائِرَةَ الْمَعَارِفِ الْإِسْلَامِيَّةِ (٢/٧٨٩) ، مَادَةَ بَقْلَمِ زَابِيُولَدَ .

(٤) فِي ١ : تَنَاهُوا ، وَفِي بَ : كَانُوا يَتَبَاهُونَ ، وَهُوَ أَجْودُ وَمَعْنَاهُ تَنَافَسُوا .

(٥) فِي ١ : أَشَدَ .

(٦) أَخْطَأَ الْمُؤْلِفُ هُنَا إِذْ ذَكَرَ أَنَّ مِنْذُرَ بْنَ يَحْيَى كَانَ صَاحِبَ الْبَلْسِيَّةِ وَدَانِيَّةِ ، وَإِنَّمَا كَانَ صَاحِبَ سَرْقَسْطَةَ وَالْمَغْرِبَ الْأَعْلَى . وَكَانَ مِنْذُرُ وَالْيَا عَلَى تَطْلِيَةِ أَوْلَا فِي سَنَةِ ٣٩٦ (١٠٠٦—١٠٠٥) فِي أَيَّامِ عَبْدِ الْمُلْكِ الْمَظْفُرِ بْنِ الْمُنْصُورِ الْعَلَمِيِّ . ثُمَّ عَيَّدَ إِلَيْهِ سَلِيمَانَ بْنَ الْحَكْمِ الْمُسْتَعِنِ بِوَلَايَةِ سَرْقَسْطَةِ =

اقلع بعده الأمير خيران العاصري صاحب المزية ثم انتقل بعده (١) الأمير سليمان بن هود الجذامي صاحب سرقة والشفر الأعلى (٢) بنى كان معه من الناس ومن مداد الفرنجية ؟ وصبر العاصيون حول المرتضى قليلا حتى استحرر القتل فيهم وصرع كثير ؟ وجرت بهذه الواقعة (٣) على جماعة الأندلس مصيبة أنسنت ما قبلها ، ولم يجتمع لهم جمع بعد ، وأفتروا بالإدبار ، وباءوا بالصغار ، والأمر لله من قبل ومن بعد .

الزهرة السادسة والتسعون :

حکی أن شقیقاً البَلْخی (٤) قال يوماً لحاتم (٥) : منذ کم صحبتني يا حاتم ؟ قال : منذ ثلاثة وثلاثين سنة . قال شقيق : فإذا تعلمتَ مني في هذه المدة ؟

= سنة ٤٠٠ ، وبقي حاكماً للشفر الأعلى كله حتى وفاته سنة ٤١٢ (١٠٢١—١٠٢٢) . (انظر العذري : جغرافية ص ٤٨) . أما بلندية في ذلك الوقت فقد كانت تحت حكم الخصيين الصقلبيين مبارك ومظفر العاصيين ، وأما دانية فقد كانت تحت حكم مجاهد بن عبد الله العاصري .

(١) من «الأمير خيران» . حتى «... بعده» ناقص في بـ .

(٢) لم يكن سليمان بن هود الجذامي في ذلك الوقت أميراً على سرقة كما سبق أن أشرنا إلى ذلك في الحاشية السابقة ، بل كانت إمارته لا تتجاوز لاردة وقطيلة من مدن الشفر الأعلى ، وكان تابعاً لمنذر التجبي . وقد طال عمره حتى إذا قتل منذر بن يحيى بن منذر صاحب سرقة والشفر في سنة ٤٣٠ (١٠٣٨) دخل سليمان سرقة وآل إليه حكم الشفر الأعلى كله ، وأسس فيه دولة بني هود التي ظلت تحكم هذه الجهة حتى سقوط سرقة في يد الملك النصراوي الأذفونش (ألفونسو الملقب بالحارب ، ملك أرغون) سنة ٥١٢ (١١١٨) .

(٣) في ا : الواقعة .

(٤) أبو علي شقيق بن ابرهيم الأزدي البَلْخی صاحب ابرهيم بن ادهم ، من أكبر مشائخ الصوفية . توفي سنة ١٥٣ (٧٧٠) . انظر ترجمته في طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ، بتحقيق الأستاذ نور الدين شربية ، ص ٦٦—٦١ ، والراجح المذكورة في حاشية ذلك الموضع .

(٥) هو أبو عبد الرحمن حاتم بن عنوان الأصم البَلْخی ، أحد من اشتهروا بالزهد والورع وله كلام مدون في التصوف . أخذ عن شقيق البَلْخی وقدم بغداد في أيام أمد بن حنبل (ت ٨٥٥/٢٤١) واجتمع به (انظر السلمي : طبقات الصوفية ص ٦١ ، ٦٣ ، ٩١ ، ٩٧—٩١ ، ١٠٣ ، ١٤٦ والراجح المذكورة هناك) . وانظر بصفة خاصة تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، ترجمة رقم ٤٣٤٥—٤٣٤٦ . أما الخبر الوارد هنا فقد جاء في حلية الأولياء لأبي نعيم الإصبهاني (٨—٧٩/٨) ولكن بتفاصيل مختلفة بعض الاختلاف . فعدد المسائل في الحلية ست بدلاً من الثمان التي جاءت في الزهارات .

فقال : ثمان مسائل . فقال شقيق : إِنَّا لِهُ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، ذهب عمرى معك يا حاتم ! فقال : يا سيدى ، ما تعلَّمتُ غيرها ولا أُحِبُّ الْكَذِبَ ! فقال شقيق : اذْكُرْ هذه المسائل حتى أسمعها . فقال حاتم : نعم يا سيدى . إنى نظرت فرأيت كل واحد من هذا الخلق يُحِبُّ محبوبًا فهو مع محبوبه إلى القبر ، فإذا وصل إلى القبر فارق محبوبه ، فجعلت [١٧١] الحسنات محبوبى فإذا دخلت قبرى دخل معى محبوبى . قال : أحسنت يا حاتم ، فما الثانية ؟ قال : نظرت في قول الله عز وجل «وَأَمَا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىٰ [١٤ بـ] النَّفْسَ عَنِ الْهَوْىٰ ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ»^(١) فعلمت أنه الحق ، فأجهدت نفسي في دفع الهوى حتى استقررت على طاعة الله تعالى . قال : أحسنت يا حاتم ، فما الثالثة ؟ قال : نظرت إلى هذا الخلق ، فرأيت كلَّ مَنْ عَنْهُ شَيْءٌ لَهُ خَطَرٌ يَحْفَظُهُ وَيَخْلُ بِهِ ، فرأيت الله تعالى يقول «مَا عَنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عَنْ دُنْلَهُ بَاقٍ»^(٢) فخرجت عما وقع إلى من ذلك ابتغاء ثواب الله . قال : أحسنت يا حاتم ، فما الرابعة ؟ قال : رأيت كل واحد من هذا الخلق يَرْجِعُ إلى حَسَبِ وَنَسَبِ ، فرأيت الله تعالى يقول «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَنْدَ اللَّهِ أَنْتُمْ»^(٣) فاعملت نفسي في التَّقْوَى حتى أكون عند الله كريماً . فقال : أحسنت يا حاتم ، فما الخامسة ؟ قال : رأيت هذا الخلق يَطْغَى بِعَصْبُهُمْ عَلَى بَعْضِ ، وَيَلْعَنُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا ، وأصل هذا الحسد كله ، فرأيت الحسد^(٤) واجتنبتُ الخلق ، وعلمت أنَّ الْقِسْمَ مِنْ عَنْ دُنْلَهُ بَاقٍ . قال : أحسنت يا حاتم ، فما السادسة ؟ قال :^(٥) رأيت هذا الخلق يبغى ببعضهم على بعض ويقاتل

(١) سورة النازعات ، آية رقم ٤٠ .

(٢) سورة النحل ، آية رقم ٩٦ .

(٣) سورة الحجرات ، آية رقم ١٣ .

(٤) كنا ، ولا معنى لها ، وربما كان الصواب «فرميت» ، أو «فطرحت الحسد» وهكذا جاء في حلبة الأولياء (٨٠/٨) .

(٥) زيادة يقصدها السياق .

بعضهم بعضاً ، فرأيت الله تعالى يقول «إن الشيطان لكم عَدُوٌّ فاتَّخِذُوه عَدُوًّا^(١)» فعادَ يُتَهَّمَ وَحْدَهُ واجهَدتُ فِي أَخْذِ حِذْرِي مِنْهُ ، لأنَّ الله تعالى قد شهدَ عَلَيْهِ بِالْعِدَاوَةِ ، فتركتُ عِدَاوَةَ الْخَلْقِ . قال : أَحْسَنْتِ يَا حَاتِمَ ، فِي السَّابِعَةِ ؟ قال : رأيتَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذَا الْخَلْقِ يَطْلَبُ هَذِهِ الْكِسْرَةَ ، فَيَبِيلُ نَفْسَهُ وَيَدْخُلُ فِيهَا لَا يَكُلُّ ، فرأيتَ الله تعالى يقول «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا^(٢)» فَعَلِمْتُ أَنِّي أَحَدُ مَنْ هَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ، [١٧٢] فَاشتَغَلْتُ بِمَا اللَّهُ عَلَىٰ وَتَرَكْتُ مَالِي عَنْهُ . فقال : أَحْسَنْتِ يَا حَاتِمَ ، فِي الثَّامِنَةِ ؟ قال : رأيتَ هَذَا الْخَلْقَ مَتَوَكِّلِينَ هَذَا عَلَى صَبْعَتِهِ وَهَذَا عَلَى تِجَارَتِهِ وَكُلُّ مَخْلُوقٍ مَتَوَكِّلٌ عَلَى مَخْلُوقٍ ، وَرَأَيْتَ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ «وَمَنْ يَتَوَكَّلْنَا عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ^(٣)» فَتَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبِي . فقال شَقِيقٌ : يَا حَاتِمَ ، وَفَقِيكَ اللَّهُ ، فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي عِلْمِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَالْفُرْقَانِ ، فَرَأَيْتَهُ يَدُورُ عَلَى هَذِهِ الْمَسَائِلِ ، فَمَنْ أَسْتَعْمَلُهَا فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْكِتَابُ الْأَرْبَعَةِ .

الزهرة السابعة والتسعون :

حَسِّكَى عَنْ مَعْرُوفِ الْكَرْخِي^(٤) أَنَّهُ جَلَسَ يَوْمًا عَلَى شَاطِئِ دَجْلَةِ وَحَوْلَهُ جَمَاعَةٌ [١٥] مِنْ تَلَامِذَتِهِ إِذْ نَظَرُوا إِلَيْهِ قَوْمًا^(٥) يَأْزِيْهِمْ يَتَغَنَّمُونَ بِالْعُودِ ، وَيَتَعَاطَوْنَ

(١) سورة فاطر ، آية رقم ٦ .

(٢) سورة هود ، آية رقم ٦ .

(٣) سورة الطلاق ، آية رقم ٣ .

(٤) أبو محفوظ معروف بن الفيرزان أو فيروز الكرخي (نسبة إلى كرخ بغداد) . كان أحد مشاهير الزهاد والصوفية . توفي سنة ٢٠٠ (٨١٥—٨١٦) كما ذكر الخطيب البغدادي أو بعدها بقليل . انظر ترجمته في تاريخ بغداد رقم ٧١٧٧ ، ٧١٣ ، ١٩٩/١٣—٢٠٩ ؛ السلمي : طبقات الصوفية ص ٣٦٨—٣٦٠/٨ ؛ حلية الأولياء ٩٠—٨٣ ؛ والراجع الأخرى المذكورة في حاشية هذا الموضع من نشرة شربة طبقات الصوفية .

(٥) في ب : قومهم ، وقد اختزنا القراءة الواردة في ا .

ماء العنتود . فقالوا : أيها الأستاذ ، ألم ترى اجتراء هؤلاء على الله ؟ أدع الله عليهم . فقال معروف : اللهم كلامك فرّحهم في الدنيا ففرّحهم في الآخرة . فقالوا : سألك أن تدعوا عليهم فدعوت لهم ! قال : نعم ، إن الله فرّحهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا .

الزهرة الثامنة والتسعون :

خرج الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ذات ليلة ، فنظر إلى النجوم تزهُر ، فحمد الله وسبَّح واعتبر ، ثم قال في آخر كلامه : اللهم لا تُخوِّجي إلى أحد من خلقك ! فسمعه أبوه رضي الله عنه ، فقال : أطلب من الله شيئاً لم يُعْطِه الصَّفَوةُ من أئيائه ؟ إنما قل : اللهم لِّين لى قلوب عبادك .

الزهرة التاسعة والتسعون :

كان سعد بن عبدة^(١) رضي الله عنه يدعو بهذا الدعاء : اللهم إله لا شرف^[173] إلا بفعال ، ولا فعال إلا بمال ، ولا مال إلا من رزقك ، فارزقني من فضلك رزقاً كثيراً طيباً واسعاً^(٢) مباركاً فيه تبلغني به شرف الدنيا والآخرة^(٣) .

(١) اقتباس المؤلف هنا شيئاً من كلام الصحابي المعروف سعد بن عبدة الأنصارى الغزرجى وهو يصرف على الاتهاء من كتابه يرجع إلى التبرك بذلك هذا الصحابي الجليل الذى كان ملوك بني الأخر الغرناطيون ينحدرون من نسله كما هو معروف وسوف يكرر المؤلف في خاتمة الكتاب إشارة إلى ذلك في حديثه عن السلطان محمد الغنى بالله إذ سيطلق عليه لقب « سلاة سيد الأنصار » .

(٢) هذه الكلمة ناقصة في ب .

(٣) وجدنا شيئاً بهذا الدعاء ، إلا أنه جاء منسوباً إلى أحد الأعراب عند الكعبة . وهذا نصه كما نص عليه ابن عبد ربه في العقد الفريد (٤٢٣/٣) : « اللهم لا شرف إلا بفعال ولا مال إلا بمال ، فأعطني ما أستعين به على شرف الدنيا والآخرة » .

الزهرة المانة :

قيل لأعرابي : أتَخْسِنَ أَنْ تَدْعُوَ رَبَّكَ ؟ قَالَ نَعَمْ . قَيلَ : فَادْعُ . قَالَ : اللَّهُمَّ إِنْكَ أَعْطَيْنَا الْإِسْلَامَ مِنْ غَيْرِ أَنْ نَسْأَلَكَ ، فَلَا تَحْرِمْنَا الْجَنَّةَ وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ .

* * *

فَسَأَلَ اللَّهُ الْعَظِيمُ ، رَبِّ الْعَرْشِ الْكَرِيمُ ، أَلَا يَحْرِمُنَا الْجَنَّةَ وَنَحْنُ قَدْ سَأَلْنَاهُ (١) ، وَرَجُونَا فَضْلَهُ وَأَمْلَنَاهُ (٢) ، كَمَا لَمْ يَحْرِمْنَا فِي هَذِهِ الْجِزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ جَنَّةَ الدُّنْيَا وَسَوْغَنَا فِيهَا رَفَاهِيَّةَ الْعِيشِ وَطَيْبَ الْحَيَاةِ ، فَصَرَنَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ هُوَ قَيْرَوَانُ الْأَمْصَارِ ، وَعَصَرَنَا فِيهِ بِفَضْلِ اللَّهِ هُوَ خَيْرُ الْأَعْصَارِ ، وَطَاعَنَا فِيهِ مُفْتَرَضَةً عَلَيْنَا وَنِعْمَ الْاَفْتِخَارُ ، لِسَلَالَةِ سِيدِ الْأَنْصَارِ ، فَانْتِهِياتُ عِنْدَنَا مَوْفُورَةُ ، وَالْأَرْزَاقُ مُسْتَدِرَّةُ (٣) ، وَالْمِنَّةُ (٤) دَائِمَةٌ بِحَوْلِ اللَّهِ وَمُسْتَمِرَّةُ ، وَكَلْمَةُ الْإِسْلَامِ فِيهَا ثَابَتَةٌ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَمُسْتَقِرَّةٌ ، وَرَعِيَتْهَا فَاقَتْ (٥) رِعَايَا الْمُلُوكِ فِي الثَّرَاءِ وَالسُّعَةِ ، وَاغْتَبَطَتْ بِالْأَسْتِدْرَاءِ فِي كُنْفِ الْأَمْنِ (٦) وَالدُّعَةِ ، فَفَقَسَتِ الْعِمَارَةُ ، وَحَسُنَتِ الشَّارَةُ ، وَنَمَتِ الْمَكَابِسُ ، وَفَرَّهَتِ (٧) الْمَرَاكِبُ ، وَعَزَّزَتِ الْجَوَانِبُ ، وَتَرَّبَّتِ الْمَرَازِبُ ، وَأَجْزَلَتِ الْمَوَاهِبُ ، وَخَفَّتِ (٨) النَّوَائِبُ ، وَتَأْلَفَتْ عَلَى

(١) فِي بِ : أَرْسَلَنَا .

(٢) فِي بِ : وَأَمْلَنَا .

(٣) كَذَا فِي ا ، وَفِي بِ : مَسْتَوْرَةُ ، وَالْأَوَّلُ أَصْحَاحٌ .

(٤) فِي ا : وَالْأَمَانَةُ ، وَمَا جَاءَ فِي بِ أَصْحَاحٌ .

(٥) فِي ا : أَفَاقَتْ .

(٦) هَاتَانِ الْكَلِمَتَيْنِ نَاقِصَتَانِ فِي ا .

(٧) فِي ا : وَسَرَعَتْ ، وَالصَّوَابُ مَا وَرَدَ فِي بِ .

(٨) فِي ا : وَتَحْدَقَتْ .

الطاعة المذاهب ، خالنا فيها — معشر المسلمين — أحسن الناس حالا ، وأعمهم صلاحاً وأعدلهم سيرة ، وأقلهم جناحاً ، وزماننا فيها أبهج^(١) زمان ، فليس له من ثان ، ووطننا والحمد لله أبعد وطن عن السوء وأدفعته^(٢) للحدثان ، وذلك كله بسعادة مُدَبِّر شأنها ومُقيمتها ، إنسان عين الوجود من إقليمها ، كاف رأينا^(٣) وكافه ، [١٧٤] العميمة خيراته ونواقه ، المكابد^(٤) فيها بخاصة نفسه لتيارها ، والمداري بحسن سياسته الناجحة لطائف لُغفارها ، فهـا نحن فيها بين^(٥) بحر متلاطم الأمواج ، وسيف^(٦) عدوٌ وافر الجموع كثير الأفواج ، وهو حفظة الله^(٧) وخلد ملـكه يسهر في مصالحتنا ونحن هاجعون ، ويجهد^(٨) نفسه النفيسة ونحن في ظل العافية وادعون ، فإلى الله عز وجل نبتهل في أن يهب لنا من العقول ما نقدر به قدر سلطانه العزيز ، وأن يُبقيه^(٩) في المـى المنبع والحرز الحرizer ، وألا يُعدِّم منه هذه الكلمة الحمدية جامـع شملـها ، وحامـلـها من المناهج القوية^(٨) حقـاً كـحملـها .

اللهم إن الدعاء لأمير المؤمنين^(٩) ، وخليفة رب العالمين ، فرض على جميع المسلمين ، فأقر عينـه في الأهل والملك والأحفاد والبنـين . اللهم أوزـعنا شـكر ما أنـعمت به علينا من يـعن خـلافـته العـادـلة ، وـتـول جـزـاءـه عـنـا ، وـهـب لـهـ من

(١) في ا : أنتـجـعـ .

(٢) في ب : وأبـدهـ ، وفي ا : وأرفـهـ ، وعلـها محرـفـةـ عـماـ أـبـتناـ .

(٣) في ا : السمـاءـ ، وفي ب : رأسـناـ ، وعلـها محرـفـةـ عـماـ أـبـتناـ .

(٤) في ا : الكـاـيدـ .

(٥) في ا : منـ .

(٦) في ا : وبينـ . والأـصـحـ ما وردـ فيـ بـ والـسيـفـ بـكـسـرـ السـينـ هوـ الشـاطـئـ .

(٧) في ا : مكانـ حـفـظـهـ اللهـ : أـبـقـاهـ .

(٨) في ب : القـوـيـةـ .

(٩) لا نعرف أنـ بـنـيـ الـأـمـرـ كانواـ يـسمـونـ يـاصـرـةـ الـؤـمـنـ ولاـ بالـخـلـافـةـ ، بلـ المعـرـوفـ أـنـهـ كانواـ يـكتـفـونـ بـالتـسـمـيـ بـلـقـبـ «ـأـمـيرـ الـمـسـلـيـنـ»ـ . وإنـاـ يـسـتـخـدـمـ الـمـؤـلـفـ هـنـاـ تـلـكـ الـأـلـقـابـ عـلـىـ سـبـيلـ التـجـوزـ .

إحسانك العظيم ، وطولك الجسم ، أكثر مما يختسار وفوق ما يتمنى ، وحَلْوُهُ من النصر العزيز^(١) والسعادة الجديدة^(٢) ما لا يمِر بالخواطر تقديرًا ولا ظنًا . اللهم وأصْحِبْ رِكابِهِ العالى العصمة والسلامة أى جهة قصدَ وَيَمَّ ، ويسير أمروره حيثما كان وأينما خُيِّم . اللهم إن جمِيع التفوس تستبشر بمشاهدة مقامه الرفيع وتستشرف إلى لقِيَاه ، فلا تحرمنا النظر إلى رؤية وجهه السعيد وبهجة محياه . إنك منتهى الرغائب .

انتهى بحمد الله وحسن عونه وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم في أواخر ربيع النبوى سنة ست وسبعين وألف مـ

الدكتور محمود على مكي
أستاذ بكلية الآداب . جامعة القاهرة

(١) في ب ؛ المزید ، وقد أثبنا ما ورد في ا .

(٢) ينقطع النص في ا ابتداء من هنا .

الطرق الصوفية وأثرها في نشر الاسلام في الصحراء الكبرى

لا يكتمل الكلام على انتشار الإسلام في البلاد التي انتشر فيها عن طريق الدعوة والكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة وحدها دون وقفة طويلة عند دور الطرق الصوفية في ذلك ، ففي كل ناحية من هذه التواحي كان لرجال الطرق الصوفية دور حاسم ، لأن هذه الطرق تظميات تقوم على الدين والإيمان ، وتعمل لنيل الدين والإيمان عملاً منظماً مستمراً . ولكن ذلك لا يرجع إلى طبيعة التصوف ، فإن التصوف في أصله اعتزال الدنيا والناس وتفرغ لمبادرة الله وخلاص النفس ، وهذه هي فكرته الأساسية عند رجاله الأول ، وكان قاصراً على طراز معين من الناس لهم مزاج معين و موقف رفض واضح للحياة كما يعرفها ويقبلها عامة الناس وكان في هذا الموقف رغم ما فيه من تواضع ظاهر من التمييز ، ومما قرأت في كتب التصوفين الكبير من كلام عن التواضع والتذلل فأنك تحس بأن المتكلم يشعر بأنه تميّز عن بقية الناس وأنه على الأقل أقرب إلى الله منهم . ومن ثم فهو أفضل منهم وأصف إيماناً وأظهر نفساً . وكل الصوفية أياً كان مذهبهم في التصوف فيتعاملون مع الناس على أنهم أعلى درجة من سوادهم وهم يعتبرون حياتهم في غمار الناس لوناً من التنازل الصامت ، ويتجلّى هذا الكبرياء أو قبل الغرور الصوفي عندما يلتقي الصوفي برجل من الأقواء وعليه القوم ، فهو يرفع نفسه عنهم ، وهو إذ يفضل ذلك يكشف عن حقيقة موقفه من عامة البشر ، وقد تعود الأقواء وعليّة القوم ذلك الموقف منهم وقبلوه علماً منهم أن في تواضعهم لأولئك الصوفية الفقراء في الظاهر ، تقرب إلى قلوب الناس .

حول أولئك المتصوفة تجتمع الريدون وهم ناس من عامة الناس ، وغالبيتهم العظمى لا تفكرون في الوجود أو الحالات ، أو المقامات ، وإنما هم يرجون البركة بالتقرب من رجل صالح ، وهذا البرك يعطيم قوة على مواجهة مشاكل الحياة ، أو مواجهة المشاكل التي يعجزون عن حلها مثل المرض أو ظلم الحكام أو الضيق المالي ، وبجمعهم حول الرجل الصالح الذي اعتبروه ولية من أولياء الله جعل ذلك الرجل في ذاته قوة واعطاه جاهًا عند الحكام وسلطاناً على المجاهير ، من هنا أصبح المريد ضرورة للمتصوف وأصبح المتصوف ضرورة للمريد ، ومن هذا التفاعل ظهرت الطرق الصوفية ، أي جماعات الريدين الذين يتلفون حول الصوف ، وانتسب إليها الناس وكثرت اشكالها فظهرت الصوفية العاملة ، أي الصوفية التي لها وظيفة في المجتمع ثم الصوفية المجاهدة أي الصوفية التي تعمل على نشر الإسلام وتلك هي التي تهمنا في هذا البحث . ولم يدرس أحد فيما نعلم هذا التطور ، وهذه الأطوار ربما نبهت بعض الدارسين إلى أهمية الموضوع الذيتناوله في إجازة في كتابنا «علم الإسلام» وتناوله هنا بالقدر الذي يهم انتشار الإسلام بالحكمة والوعظة الحسنة .

* * *

الطرق الصوفية هي جماعات المتصوفين الذين يتبعون في عبادتهم ورياضاتهم ومجاهداتهم أسلوبًا واحدًا يضعه لهم شيخ من شيوخ التصوف ويتبعونه فيه وينسبون إليه .

والأصل أن التصوف والصوف شيء واحد ، فالتصوف صوف أي رجل متقدس زاهد يميل بنفسه وروحه إلى انفاق حياته في التعبد لله وعمل الطاعات للاستزادة من رضي الله والتقرب منه ، وينذهب المتصوفون إلى أنهم يصلون بذلك إلى «حالات» نفسية ووجودية يجعلهم يحسون بما يسمى الإشراق أو الوصول .

وقد وجد التصوف من خير الإسلام ، فقد كان من بين الصحابة رجال نزعوا إلى الرهد في الدنيا والفراغ للعبادات من أمثال عثمان بن مظعون وسعيد بن زيد بن ثقيل ، ولم يقرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على اتجاههم هذا

ونصحهم بعدم الاسراف فيه ، لأن المسلم منها بلغت رغبته في الانصراف إلى العبادة وطلب الطاعات فلا ينبغي أن يصرفه ذلك عن شؤون دنياه وكسب رزقه والأخذ بنصيبي من مسؤوليته عن الجماعة ، لأن المسلمين أولاً وقبل كل شيء أمة متربطة متعاونة على الخير مؤمنة بالله ورسوله ، متبعة للقرآن والسنة عاملة جماعة على ما فيه خير الإسلام وأمة الإسلام .

ولاشك في أن للتصوف في تاريخنا صفحات مشرقة ، فان أهل التصوف الصادقين عرفاً كيف يوفقون بين ما يدعوه إليه الإسلام من ضرورة الاهتمام بالدنيا إلى جانب الاهتمام بالأخرة وما تمثل إليه نفوسهم بطبيعتها إلى الزهد في الدنيا والاتجاه إلى الله سبحانه وتعالى والشعور بالسعادة في العبادة والزهد في متاع الدنيا حتى يكونوا قريين من الحق سبحانه ، وهذا هو الذي وصل إليه رجال ذوي فهم صادق للإسلام ، ومحبة عميقه لله سبحانه وتعالى وإدراك لواجباتهم حيال أمة الإسلام ، وهذا ما نجده عند رجال مثل عبد الكريم القشيري وابن طالب المكي والحارث بن أسد المخاسبي وأبي حامد الغزالى ، وهؤلاء هنا يختلفون كل الاختلاف عن التصوفين الذين لم يوفقوا إلى الوصول إلى هذا التوازن ، فاتجهوا إلى اعتزال الدنيا والناس والانصراف إلى العبادات والرياضيات والمجاهدات للوصول إلى الأحوال والمقامات ، وهؤلاء مع ارتفاع مستوىهم الذهني وطراوة ما يجده الإنسان في كتاباتهم إلا أنهم لم يفيدوا المجتمع الإسلامي العريض فائدة واضحة ، فهم ثروة فكرية لا ثروة قومية إسلامية ، وهذا ربما هو الذي اثار عليهم الفتناء ، وجعل رجالاً من أمثال ابن الجوزي وابن تيمية وابن القيم الجوزي يرمون التصوف عن قوس واحدة ويعتبرونه خروجاً عن السنن الإسلامية القومى .

وقد أفاد المجتمع الإسلامي كله من المتدلين من أهل التصوف ، من نجحوا في الوصول إلى التوازن الذي ذكرناه ، لأنهم لم يزهدوا في الدنيا وإنما زهدوا فيما لا يلزم للحياة القوية السليمة منها من اسراف في متاع أو اقبال على ترف أو استفرار في مطالب البدن ، وظلوا يعيشون وسط الناس كما يعيش أهل الاعتدال والتصاون والبعد عن الدنيا مع القيام بحقوق الله سبحانه وتعالى من

عبادة ومراعاة شريعة والتمسك ببكارم الأخلاق ، فانتفعوا بذلك ونفعوا الناس بهم وملكتهم ، لأن هذا الطراز العتيد من العباد الزهاد لم يكونوا كلام أهل علم ، بل كان فيهم تجاه وأهل حرف أوسع الله عليهم في الرزق ، فانتفعوا بما أوسع الله لهم فيه في نفع الناس ببذل أموالهم للجماعة كلما احتاجت الجماعة عنون ، وقد أفادوا الناس إذ أنهم جعلوا أنفسهم القدوة الحسنة في الحياة والسلوك والقدوة الحسنة مدرسة التربية الكبرى .

هؤلاء الصوفية الذين لم ينسوا قط أنهم أفراد في أمة إسلامية واحدة
 تتطلب من كل أفرادها أن يجود كل منهم بما عنده لخير البقية ، هؤلاء هم الذين يعنوننا في هذا البحث عن انتشار الإسلام بالحكمة والوعظة الحسنة والكلمة الطيبة ، لأنهم بعسلتهم هذا قد أفادوا أنفسهم وغيرهم وحملوا الإسلام إلى أمم كثيرة من أهل الأرض ، وكل أهل الأرض في أشد الحاجة إلى هدى الإسلام .
 وقد تعود الناس أن يسموهم صوفية لا متصوفين .

هؤلاء الصوفية الذين لم يعتزلوا الناس ولا استغرقهم التأملات والعبادات والرياضات والمجاهدات ، بل ظلوا وسط الناس يهدوهم سواء السبيل ويضربون لهم المثل الصالح في الجمع بين خير الدنيا والآخرة ، هم الذين نشأت حولهم الجماعات التي سميت بأهل الطرق . ذلك أنه كان من الطبيعي أن ينشأ لهؤلاء الزهاد أتباع من المعجبين بطريقتهم في العبادة والحياة والعمل والراغبين في السير في دربهم ، هؤلاء هم المریدون ، ومن الشيخ ومن يديه تكونت الطريقة الصوفية ، وهي لم تنهج قط أسلوب المجاهدات الفردية التي كان بعض ذوى المزاج الديني الحاد يقبلون عليها ، فلا يزالون متفردين بأنفسهم يذكرون ويسبحون ويقرأن ويصلون حتى يصلوا إلى ما يسمى بالحالات والمراد بذلك حالات الوجود والانفصال عن الدنيا والانصراف المطلق إلى المجاهدات ، ثم يترقون بعد ذلك في الحالات من مقام إلى مقام حتى يصلوا إلى ما يسمى بالولاية ثم القطبية ، وأما الصوفية الذين تقصدهم في هذا البحث فهم الذين يسرون في طريق المجاهدات والانفصال عن الدنيا ، فيظلون مع الله ومع الناس ، ويؤمنون الشطحات التي لا تؤمن ، بل انهز معظمهم من أول الأمر أسلوب الجيش بين الناس وكسب المریدين

ووضع الأذكار والأوراد والأحزاب لهم وتحويلهم إلى زهاد وعباد وصوفية دون أن يتخلوا عن طلب العيش أو الزواج أو إنشاء الأسرات والقيام بشئون العيال ، ورسموا لاتباعهم طريقة خاصة بهم في الحياة والعبادة معا ، فاما نظام العبادة عندهم فهو الاجتماع في المسجد والزاوية والقيام بصلوات وتسبيحات وقراءة أوراد وأحزاب واحدة ، وأما أسلوب الحياة عندهم فيقوم على اعتبار جماعة المریدين أهل طريقة واحدة ، أى أهل جماعة متآخية ومتعاونة في التغلب على مشاكل الحياة ، ومن هنا فقد أطلق عليها لقب العشيرة ، وسمى شيخ الطريقة شيخ العشيرة ، وتلك هي الطرق الصوفية الكثيرة التي أصبحت ضرورة من ضروريات الحياة في المجتمع في عصور الاضمحلال وضعف النظم الحكومية غير القومية التي وجدت في عالم الإسلام إبتداء من القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي .

ذلك أن ضعف الحكومات وانصرافها إلى الدفاع عن كيانها واهلامها مصالح الناس جعل الناس يشعرون بأنهم في ضياع ، فلا حكومة ترعاهم ، ولا حاكم يأخذهم مأخذ الجد ويعاملهم معاملة إنسان لانسان ، ولا مؤسسات عامة يمكن أن تتحقق لهم حداً أدنى من الأمان والاستقرار . والانسان لا يمكن أن يعيش في قلق لأمد طويل ، ولا يطمئن قلبه إلا إذا شعر أن له مكاناً ما في المجتمع الذي يعيش فيه ، مكان واضح محدد يربطه نظام الحياة من حوله ، وإلا أهلك الشعور بالضياع لأنه لابد له من أن يتزوج وينشئ أسرة ، والأسرة لابد لها من قدرة من الأمان : أمن على الأهل والعيال وأمن على الرزق وأمن على المكانة في المجتمع فإذا امتنع ذلك الأمن ضاعت الأسرة ، وإذا كان الإنسان صاحب حرفة فلابد له من الشعور بالأمن ليزاول عمله ، فإذا كان صاحب مصنوع كان لابد له من قوة تحمي مصنوعه ورأس ماله ، وإذا كانت عاملة فلابد من سلطة تضمن له حقوقه عند صاحب العمل أو عند الناس ، وإلا فهو يتوقف عن العمل ، ويتحول إلى متسلول والمتسول هو الانسان الوحيد الذي لا يحتاج إلى أمن أو ضمان ، لأنه عندما أصبح متسلولاً تنازل في نفس الوقت عن إنسانيته وكرامته وواجباته ومسؤولياته .

هنا وفي ظروف المصود الوسطى الحافلة بالظلم والضياع تنبه الناس إلى أهمية رابطة الصوف ومربيده . فالصوف قوة ، لأنَّه إنسان استطاع أن يلُق في قلوب الناس اعجاباً ومقاماً ورعباً . وهذه الرهبة هي التي تردع الكبار كما تخيف الصغار ، فقد كان للصوف القوى صاحب المریدين الكثرين الذي يتمتع بالجاه الروحي الواسع الذي سلطان على الناس كان يخيف الحكام ، لأنَّ مستوى الحكم العقلاني في تلك المتصور لم يكن أرفع من مستوى عقلية جماهير الناس فمعظم الحكام كانوا من القرن الخامس الهجري فصاعداً أو نازلاً — والأمران هنا سيان — أما مماليك أرراك لا يحسنون إلا استعمال السلاح في معاملاتهم للضعفاء أو مماليك لا يزيد علمهم على القراءة والكتابة وحفظ شيء من القرآن إلا فيما ندر مثلهم في ذلك مثل عامة رعاياهم وهؤلاء جميعاً يرهبون الصوف الذي يصل في عيون الجماهير إلى ما يسمى بالولاية ويعملون له ألف حساب ، وقد روى عن السلطان حسام الدين لاشين ، وكان من أكابر سلاطين المماليك وأعظمهم هيبة — عندما قيل له أنَّ الشيخ أبي السعود بن أبي العشار بالباب قام على رجليه وجراحته إلى الباب وحمل نعل الشيخ وسار يصبح كالمحنون : برَّكة من الله ، برَّكة من الله . وأعجب ذلك التصرف أبي السعود بجعل يقول : اطِّيعوا مولاك ، اطِّيعوا مولانا السلطان .. فلما سمع المتصور لاشين ذلك جلس على الأرض وقال للشيخ : صرفني إليها الشيخ فأنَا طوع أمرك ، فما بقيت للشيخ حاجة إلا قضاها له السلطان .

والذى نستنتجه من ذلك الخبر — وأمثاله كثير — هو أنَّ الصوف في ذلك القرن السابع الهجرى أصبح قوة للسلطان ، وأنَّ السلطان كان قوة للصوف ، كان القرن كله وما تلاه عصور أخطار متالية وأزمات آخذ بعضها بخناق بعض ، وتجلى في أثناء ذلك عجز الدول وأصحابها عن حماية الناس ، فاتجه الناس إلى شيوخ الصوفية ، فهم ناس أصحاب جاه عند السلاطين ، ويعتقد الناس أنَّهم أصحاب جاه عند الله كذلك وكان أولئك الشيوخ من عامة الناس ، يعيشون معهم وأبوائهم مفتوحة للمریدين وأصحاب الحاجات فليجأ إليهم الناس إذ لم يجد لهم إلا هذا اللجوء ، فكثير المریدون حول الشيخ وتضحمت الطرق ، حتى أصبح من الأساسي بالنسبة لأى إنسان يريد أن يأمن على نفسه وماله أن يتسبَّب إلى طريقة صوفية .

الصوفية المجاهدة

ولم يأت هذا الاتجاه عقوا . بل حدث عن قصد ووعي لحاجات المجتمع الاسلامي خلال القرن الخامس المجري ، وهو عصر تدهورت فيه دول الخلافة جديعا : خلافة بني العباس وخلافة الفاطميين وخلافة قرطبة ، وتولى الأمر في كل ناحية رجال أدنى بكثير من مطالب العصر ومسئولييات القيادة والرياسة ، فلحسست أمة الاسلام أنها تقف مكتوفة أمام أخطار متزايدة ولا سند لها إلا نفسها وإيمانها بالاسلام فبدأ العباد والزهاد ونفر من المتصوفة يشعرون أن الأمة في خطر وأنها تحتاج إلى قيادة سليمة وتنظيم داخلي يحفظ عليها وحدتها الدينية ويصونها من الأخطار المتلاحقة حتى يتداركها الله سبحانه وتعالى برحمته .

فاما في الغرب الاسلامي حيث كان الخطير الصليبي بالغ الخطورة وخاصة بعد أن أسقط المسلمين في الاندلس خلافتهم القرطبية ، وكانت درعهم الواق . هنا نجد أن العباد والزهاد يتحوّلون إلى مجاهدين في سبيل الاسلام ، وظهر من بين المسلمين المدركون لمسؤوليتهم عن مصير جماعة الاسلام رجال مثل عبد الله بن ياسين الجزوئي ويحيى بن ابراهيم الجداوى وكلاهما من أبناء قبائل صهابة الصحراء التي كانت تسكن على الحدود الجنوبيّة لعالم الاسلام العربي بين الحدود الجنوبيّة للمغرب الأقصى وحوض نهر السنغال وكان أهل هذه القبائل يعيشون في صحرائهم محصورين بين قوى معادية لهم من الذين ذكرنا بعضهم بأن الضرورة تقضي بأن يدعوا رجالهم من الشمال والجنوب ، فأحسن زعماؤهم هؤلاء إلى الخروج بحياة الزهد والتقشف والعبادة السلبية إلى حياة الجهاد في سبيل الدين أي تحويل جماعة الصوفية إلى جماعة مجاهدة في سبيل الله أى أن عبد الله بن ياسين الجزوئي ويحيى بن ابراهيم الجداوى ومن تبعهم بدأوا ما يعرف بالصوفية المجاهدة ، وهو طراز من الصوفية سيستمر من ذلك الحين وهو النصف الأول من القرن الخامس المجري/الحادي عشر الميلادي فصاعدا وسيكون له أبعد الأثر في الحفاظ على أمة الاسلام في الغرب أولا ثم في الشرق بعد ذلك ، فقد حول عبد الله بن ياسين جماعة العباد والزهاد الذين التفوا حوله إلى جماعة «المراطين»

أى حراس حدود الاسلام والعامليين على مد رواقه والعودة بالاسلام إلى عصر النهوض والفتح ، وتلك هي الرسالة التي تلقفها يحيى بن عمر ثم أبو بكر بن عمر من أمراء قبيلة ع-tone ثم يوسف بن تاشفين وأقاموا عليها دولة المرابطين المجاهدة التي أعادت المغرب الأقصى ثم المغرب كله إلى صفاء السنة ثم عبر رجالها إلى الأندلس وجاهدوا النصارى وأوقفوا تقدمهم بانتصارتهم العسكرية في موقع مثل الزلاقة واقليش وافراغه فعاش الاسلام بعد ذلك أربعة قرون أخرى على الأرض الأوربية في الأندلس . وفي نفس الوقت سار أبو بكر بن عمر وهو بن عم يوسف بن تاشفين بمحاجدنا في سبيل الاسلام في افريقيـة المدارية الغربية ، وقد تكون هؤلاء المرابطون من تحويل مملكة غانة في حوض النيل إلى مملكة إسلامية ، ومعنى ذلك أنهم جعلوا بلاد غانة الواسعة بلادا إسلامية .

وهذه الصوفية المجاهدة استمرت حية بعد ذلك في عالم الاسلام ، وإليها يرجع الفضل في إنقاذه من أزمات الصليبيـات والمغول ، فقد كان رجال هذه الطرق هم القوة الضاربة المقاتلة في كل معارك الاسلام الكبرى مثل خطين وعين جالوت بحمص وكان أولئك الصوفيون المجاهدون يسمون في المراجع بالطوعة وهم زهاد ومتصوفة ومربيـون يخـرون للقتال حسبة الله تعالى ويلـون أعظم مما ييل الجنود المحترـون وأخبارـهم كثيرة متـناثرة فيما بين أيدينا من المراجع ، وأصحاب هذه المراجع التاريخية كانوا مؤرخـين رسمـيين أى أنـهم كانوا يتقاضـون جوازـهم وأحيانا رواتـبـهم من السلاطـين ورجالـ السلاطـين فـلم يهتمـوا باظهـار دورـ المطـوعـة العظـيم فـضـاعـ فـصلـ كـبـيرـ من فـصـولـ تـارـيـخـ المـسـلـمـونـ وبـتـبـيرـ أـصـحـ كـادـ يـضـعـ لـأـنـتـاـ نـسـطـعـ أـنـ نـجـمـعـ شـذـراتـ الـأـخـبـارـ الـتـيـ صـدـرـتـ عنـ أـلـئـكـ الـمـؤـرـخـينـ دونـ قـصـدـ .

وسيستمر تيار هذه الصوفية المجاهدة حـيـا متـجددـا حتى أيامـنا هـذـهـ ، وما حـركـاتـ الـوهـاـيـةـ وـالـمـهـدـيـةـ السـوـدـانـيـةـ وـالـسـنـوـسـيـةـ المـغـرـبـيـةـ إـلاـ استـمرـارـ لهـذـاـ التـيـارـ وـهـوـ صـاحـبـ الفـضـلـ الـأـكـبـرـ فـيـ إنـقـاذـ الإـسـلـامـ مـنـ الـوـهـدـةـ الـتـيـ تـرـدـيـ فـيـهاـ أـوـاـخـرـ الـعـصـرـ الـوـسـيـطـ وـمـدـ رـوـاـقـهـ بـالـدـعـوـةـ وـالـحـكـمـةـ وـالـمـوعـظـةـ الـحـسـنـةـ عـلـىـ بـلـادـ وـاسـعـةـ .

الصوفية العاملة :

في نفس الوقت ظهر من بين الصوفية رجال رأوا أنه لا يكفي للقيام بحق الإسلام أن يهتم الصوف بنجاة نفسه وخلاصها ، ولا يكفي كذلك أن يعمل الشيخ هو ومربيده للنجاة بأنفسهم للوصول إلى الحق ، بل لابد أن يدخل الصوفية ميدان العمل العماني المستمر ، فلا يتبعون عن الناس أو يعيشون على هامش الحياة دون عمل ، ولا يتربكون أمة الإسلام دون قيادة إسلامية سليمة .

ولم يحدث هذا التطور من تفكير الصوفية أنفسهم ، بل دفعتهم إلى ذلك الجماهير دفعة ، فما دامت هذه الجماهير تعطيهم التقدير والتأييد حتى تصدق ما يقولون به من الولاية وتندق عليهم وعلى من يتبعهم من ملها فلا بد أن يقوموا بعمل في مقابل ذلك ولم يتم ذلك دفعه واحدة بل حدث ذلك خطوة خطوة وعلى أيدي نفر من الصوفية ذوى الاستعداد الفطري لخدمة الناس .

وأول من بدأ هذا الطريق من الصوفية — فيما نعلم — هو الشيخ أحمد الرفاعي (٥١٢ - ١١٨٢ / ٥٧٨ - ١١٨٢) الذى عاش وعمل في عنفوان المد الصليبي (توف قبل معركة حطين بخمس سنوات) وكان له أثر عظيم في إيقاظ أمة الإسلام ودفعها إلى مواجهة الخطر الصليبي . حقاً أن الرفاعي لم يتدخل في السياسة ، ولا هو داخل أحداً من أولى الأمر مستحثنا له على الجهاد ، فيبدو أنه كان يائساً من هذه الناحية ، ولكنه أيقظ شعلة الإسلام في النفوس ، وخرج بالصوفية الشرقية من السلبية والهرب من الحياة إلى الإيجابية والعيش في غمار الناس . وكان هذا وحده كافياً ، فإن الإسلام إذا عمر قلوب المسلمين وأمتلأت منه نفوسهم اندفعوا إلى تحقيق رسالته والتزام منهاجه . ومن الغريب أن أجداد الرفاعي طافوا معاً معاً من العراق إلى مكة إلى الأندلس والمغرب ، وعندما ولد أحمد الرفاعي في قرية حسن من أعمال واسط في العراق ورث عن آبائه ذلك الشعور الشامل بوحدة أمة الإسلام والقلق على مصيرها .

وليس هذا موضع دراسة حياة الشيخ أحمد الرفاعي ، ولكننا نجده من أول سلوكه الطريق يتمسّك بالسنة الواضحة ، فهو يقول في كتابه « البرهان »^(١) « أى سادة ! منكم الفقهاء والعلماء أيضاً ، ولكم مجالس وعظات ودروس تقرأ وأحكام شرعية تذكرونها وتعلمونها الناس بذلك أخذت نفسى ولم أترك طریقاً إلا سلكته وعرفت صحته بصدق النية والمجاهدة . فلم أجد أقرب ولا أوضح وأحب من العمل بالسنة الحمدية ، والتخلق بخلق أهل النزول والأنكسار والحيرة والافتقار » .

ولم يسر الرفاعي في الطريق الذي سار فيه الكثير من الصوفية ، وهو طريق معاداة الفقهاء والوزراء مستهزئاً بهم وحفظهم زاعمين أن العلم الحق يأتي لدينا ، أى يليق به الله في صدر من يريد دون درس أو طلب أو معاناه ، وتلك دعوة صريحة لل Kesel والتواكل بل الجهل ، قال الرفاعي في كتابه « البرهان المؤيد » : عظموا شأن الفقهاء والعلماء كتعظيم شأن الأولياء والعرفاء ، فإن الطريق واحد ، وهو لاء ورثة ظاهر الشريعة وحملة أحكامها الذين يعلمونها للناس ، وبهذا يصل الوالصلون إلى الله . ولا فائدة بالسعى والعمل على الطريق المغایر للشرع » .

ثم خطأ الرفاعي خطوتين حاسمتين للخروج بالصوفية من عزلتها والسير بها في طريق العمل لكسب العيش . قال صلاح عزام في كتابه « أقطاب التصوف الثلاثة » لقد كان الرفاعي يعمل في الاحتطاب وأعمال أخرى ليضمن لقمة العيش التي تذكره من عدم الاعتماد على أحد ، وكان يشترط على كل من يستمع إلى درسه أن يكون له عمل فان لم يكن فليبحث . فان عجز هيأ له أى حرفة يقتات منها ، وإلا فلن يسلك في طريقه إذ لا ينضم في صفوفنا عاطل^(٢) .

والخطوة الثانية تهمنا أكثر في هذا البحث ، وهي نظره إلى نفسه ومربيه على أنهم عائلة واحدة يربطها الحب والتعاون بين أعضائها وهذه العائلة في خدمة

(١) البرهان المؤيد للرفاعي ، تحقيق صفوتو السقا ص ٥٤ .

(٢) رواه عامر النجاشي في كتابه القيم « الطريق الصوفية » ، نشرتها ، نظمها ، روادها : الرفاعي ، الجيلاني ، ابديوي ، الشاذلي . القاهرة ١٩٧٨ ص ٩٢ .

أمة الاسلام كالماء وخاصة المحتاجين من أفرادها والضيفاء . قال صلاح عزام في كتابه الآنف الذكر : « وهو — يريد الرفاعي — إلى جانب مسؤولياته الثقافية والتعليمية كان يبحث عن اتباعه ومربيه واليتامى من أبناء المسلمين ، فإذا كان بأى واحد منهم حاجة سعى إلى قضائتها حتى لو كان في حاجة إلى توصيل المياه إلى منزله حملها هو له ، وفي ذلك يقول رضي الله عنه عندما سئل يوماً أن يجلس في المسجد وفي داره معلماً فقيها ، وأن يقوم غيره بما يفعل فأجاب «أن تجاري خدمة للنساء والأرامل واليتامى ، وأحب أن أشهد نفسي في خدمتهم دائمًا ، وإذا رأيت يتيمًا يبكي تهتز مفاصله وترعد أعضاؤه حناناً له وشفقة عليه ، وأخاف من بكائه» ^(١) . يقول الشعراوي في «طبقات الكبرى» وكان إذا سمع بجريض في قرية ولو على بعد يمسيٰ إليه يعوده ، ويرجع بعد يوم أو يومين ، وكان يخرج إلى الطريق ينتظر العميان ، حتى إذا جاءوا يأخذن بأيديهم ويقودهم وكان إذا رأى شيخاً كبيراً يذهب إلى أهل حarte ويوصيهم عليه . وكان رضي الله عنه لا يجازى قط السيئة بالسيئة » ^(٢) .

ويعنى ذلك أن «الطريق الذى فتحه الرفاعي فى تاريخ الصوفية هو طريق الحياة ، طريق جعل الصوفية أسرة واحدة متعاونة ، وجعل أهل طريقة كلامهم خدماً للمجتمع الإسلامي ، لأن أمة الإسلام فى عصره كانت قد فقدت الحب والتعاون أو بتعبير آخر نسيت قول الرسول صلى الله عليه وسلم : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً .. وتلك قاعدة أساسية فى بناء أمة المسلمين ، وقد طبقها الرسول وطبقها أبو بكر وعمر وبقية الصحابة ، ولكن الذين جاءوا بعدهم نسوها بسبب سوء الحكم وظلم الحكماء وتوالى المصاعب على المسلمين ، ونسيان بعض أهل العلم أن المسلمين أمة قبل أن يكونوا دولة ، وأن وظيفتهم الأولى هي الدعوة إلى فكرة الأمة ووحدتها وضرورة تكافل أفرادها ، نسوا ذلك واستغلو بالتنافس فيما بين بعضهم وبعض على الوظائف وتنافسوا في تلك المصور في الحصول على رضى الحكماء وأموالهم ووظائفهم .

(١) صلاح عزام ، الاقطب الثلائة ص ٣٢ .

(٢) طبقات الشعراوى ص ١٢٣ .

طلت اذن قضية وحدة الأمة وترابطها وضرورة تكافل أفرادها عاطلة إذ لم تجده من يمثلها ويدرك بها ويقوم عليها ، فكان ذلك الفراغ الواسع في التركيب الاجتماعي لأمة الإسلام شاغرا حتى جاء الرفاعي فنبه إليه وبدأ في البحث عن طريقة لسدّه ولكنّ الذى تولى الفكرة ونهض بها وفتح المخلصين من أمّة الإسلام ببابا واسعاً للنشاط والعمل كان عبد القادر الجيلاني .

**عبد القادر الجيلاني حبي الدين
أبو محمد بن أبي صالح زنجي دست
(٤٧١ - ٥٦١ / ١٠٧٧ - ١١٦٦)**

كان عبد القادر الجيلاني متصوفاً صادقاً وفقيها راسخ العلم . درس دراسة واسعة وتمكن من علوم الدين فكان فقيها ، ولكنه كان يحسن بفراغ القيادة الذي أشرنا إليه فتصدى له ، وكان بطبعه شيئاً قوياً الشخصية ذا تأثير كبير على المریدين ، فامتلأت نفوسهم بحبه ، وقد خطأ خطوة واسعة بعد الرفاعي بجعل مریديه جماعة متحددة يعمل أفرادها معاً ويكونون فيما بينهم جيشاً عاملاً في خدمة الناس ، وإذا كان الرفاعي قد انكر أن يكون من بين مریديه عاطل ، فقد اشترط الجيلاني على المرید أن يكون عاملاً في شيء نافع لنفسه وللمسلمين ، وفي العصر الذي عاش فيه ، وهو عصر تدهور سياسي خطير نجد الجيلاني يخطو بقدم ثابتة وينتزع قيادة المجاهير بما كان يحض اتباعه عليه من ضرورة العمل في سبيل الجماعة ، وفي أيامه وبين صفوف رجاله بدأت الجماعة الصوفية تسمى العشيرة ، وشيخها يسمى شيخ العشيرة .

وقد تميزت الطريقة الجيلانية بكثرة اتساب جماعات الحرفيين إليها ، فكثُر بين صفوف الجيلانيين التجار والنجارون والحدادون والبناؤون والمحصرون ومن إليهم وبدأت كل جماعة من هؤلاء تكون وحدة خاصة بها داخل الجماعة ، وربما لم يكن هذا من عمل عبد القادر الجيلاني وإنما نتيجة لاتجاهه في العمل ومهارته في التنظيم وإحساسه الواعى بحاجة مجاهير الأمة إلى قادة ومرشدین ،

فوجه أصحابه هذا التوجيه أو قل أنه وضعهم على أول الطريق ، وساروا هم في نفس الاتجاه وتطورت الحركة من نفسها ذلك التطور الذي جعل للصوفية وطرقها دوراً إيجابياً فعالاً في حياة الناس . وهذا في الأغلب هو الذي جعل الطريقة الجيلانية أوسع الطرق الصوفية انتشاراً في العالم الإسلامي ، وقد تفرعت عنها فروع حملت أسماءً منشئها ، ولكنها كلها كانت جيلانية أو قادرية .

المهم لدينا أن تفكير عبد القادر الجيلاني هو الذي أوجد بالفعل الصوفية العاملة ، الصوفية ذات الدور الحقيق في حياة الجماعة ، فأصبح الشيخ الصوفي عماداً من أعمدة المجتمع بما له من جهد وعمل في تنظيم مرادييه وخدمتهم وخدمة المجتمع كله عن هذا السبيل .

وكان أكثر المتسبين إلى الطريقة الجيلانية هم التجار لأنهم أحوج من غيرهم إلى الحماية والعمل جماعة ، والتاجر منها كان قدره صاحب رأس مال ، وصاحب رأس المال في حاجة إلى من يحميه ويحمي ماله وخاصة في عصر كذلك الذي عاش فيه الجيلاني أهملت الحكومات فيه واجباتها وتركت الناس بغير حماية .

ومن نتائج هذا التطور الذي أدخله الجيلانيون على الحركة الصوفية ان تحولت الجماعة الصوفية إلى وحدة اقتصادية اجتماعية ، فالشيخ يشعر بأنه مسئول عن عمل مراديته ورزقه ، فهو يبحث له عن عمل إذا احتاج العمل ، وهو يتدخل لحمايته من الغبن إذا وقع عليه غبن ، وهو يتوسط لدى أولى الأمر ، ويحصل لهم على أموالهم التي يغيل هؤلاء إلى أكملها ، ويتدخل في مسائل الضرائب ، فيتكلّم مع الحكماء في تخفيفها وتخفيف عبئها عن الناس ، أى أن الشيخ الصوفي أصبح بهذه الطريقة عاملًا فعالاً في النظام الاجتماعي العام ، وأصبح رئيس جماهير الناس والتحدث باسمهم والعامل على ما فيه نفعهم . وهنا لا يتتجه الناس من الانتشار الواسع للطرق الصوفية الجيلانية (وما تفرع عنها) ومراديها ، وابتداء من القرن السابع المجري / الثالث عشر الميلادي ، ينذر أن نجد إنساناً الا وهو منتبط لطريقة صوفية وصاحب عهد على واحد من الشيوخ ، فان العهد لم يمد مجرد الالتزام باتباع طريقة معينة في العبادة أو أحزاب يتلوها

المریدون في المساجد وأوراد يرتلونها فرادى أو جماعات ، وإنما أصبح انتساب الناس للجماعة الصوفية ضرورة في بحثها عن الأمان على النفس والمال ، ف الرجال الطريقة يتدخلون إذا ألقى رجال الحكومة القبض على واحد منهم وإذا كان برئاً سعوا في خلاصه ، وإذا سافر رجل منهم تولت الجماعة الصوفية رعاية أسرته أثناء غيابه ، حتى المسائل العائلية الصرفة كان الشيخ أو شيخ المشيرية يتدخل فيها إذا لزم الأمر ، فيصلح بين الأزواج ، ويصلح بين الأب وأبنائه ، ويدبر أمر الزواج للعوانس والأرامل والأيام . وهو شاهد على الودائع والديون وضامن في القروض ، أى أنه أصبح ركناً أساسياً في المجتمع ، هذا هو التطور العظيم القيمة الذي دخل على الطرق الصوفية بفضل الخطوة التي بدأها عبد القادر الجيلاني ، ثم عممت كل الطرق الصوفية ، فأصبحت جميعها وحدات اجتماعية واقتصادية .

وكان هذا الاتجاه عاملاً في بث النشاط في جماعات الطرق الصوفية ، فاجتهد المریدون من أصحاب الميول الدينية في العبادات والرياضات والمحادثات ، وانصرفوا إلى خدمة الناس وإلى جانب ذلك يترقى المرید الموهوب في مراتب الصوفية جميعاً من المرید إلى الشیخ إلى الولي إلى القطب ، أما بقية المریدين فقد اكتفوا بالفوائد الاقتصادية والاجتماعية التي تعود عليهم من وراء الانتساب إلى الطريقة الصوفية ، وهي فوائد أساسية بالنسبة لحياتهم .

ونحن نتكلّم عن الناحية العملية الإجتماعية من الطرق الصوفية دون أن نبدى حكمًا على موضوع الولاية والكرامات التي كان المریدون ينسبونها إلى شيوخهم ، فهذا موضوع آخر ، لأن الذي يهمنا الآن هو أن جماهير المسلمين جعلوا من الطرق الصوفية أداة لخدمة المجتمع وحماية إطاراته من التدهور في وقت كان في أشد الحاجة فيه إلى بناء إطارات جديدة تحفظه وتصونه من التدهور بعد تداعى الإطارات السياسية القائمة وذلك حفاظاً على سلامية الأمة الإسلامية ، وكان هذا التحول أساساً تجتّع عنه قوة دفع جديدة للدعوة للإسلام خارج حدود دار الإسلام عن طريق التجارة وطرقها لأن التجار والحرفيين جميعاً في تلك العصور

كانتوا أعضاء في طرق صوفية ، وفي ظل هذه التبعية للطرق أكتسبوا قوة وقدرة على السفر خارج مملكة الإسلام للتجارة والدعوة للإسلام وكسب الانصار له كما سرى .

أبو مدین شعیب بن الحسین

وقد تلمذ على عبد القادر الجيلاني عدد كبير من المربيين الذين علا شأنهم بعد ذلك حتى أصبحوا هم بدورهم شيوخ طرق جديدة كان لها من الأثر ما يقارب الطريقة الجيلانية في تثبيت دعائم المجتمع ونشر الإسلام .

واشهر هؤلاء جيماً بالنسبة للمغرب – وهو الذي يعنيها الآن – هو أبو مدین شعیب بن الحسین الأندلسی المتوفی سنة ٥٩٤ / ١١٩٧ – ١١٩٨ ، وهو أندلسی المولد والنشأة فقد ولد في قطنیانه من أعمال اشبيلية في الأندلس ، ولكنه مغری بالحياة والعمل والأثر .

ولد أبو مدین قيراً ، ونشأ وفي نفسه نزوع شديد إلى العبادة ، وكان ذا مزاج دینی غالب ، فاحترف النسج في مطالع حياته . ثم أتجه إلى الدراسة الدينية ، فدرس في بلده ثم رحل إلى فارس حيث سمع على الشیوخ دون أن يترك حرفة النسج التي كان يعيش منها ، وكان عصره عصر حماس دینی وجہاد في المغرب فقد كان ذلك أواخر أيام المرابطین وأوائل أيام الموحدین ، وكانت المعركة بين الإسلام والنصرانية على أشدها في الأندلس ، فاذکرت تلك المعركة الكبرى النزوع الديني عند أبي مدین . واتجه إلى أن يكون صوفياً وداعياً للجهاد في سبيل الله ، وعلمه تأثر في ذلك بعد الله بن ياسین ومحمد بن تومرت مهدي الموحدین وكلامها يندرج في جملة الصوفية العاملین المجاهدين .

ثم رحل إلى الشرق ، فحج إلى بيت الله الحرام ولقي الشیوخ ، وذهب إلى العراق حيث لقى عبد القادر الجيلاني وليس الخرقة على يديه ، وعاد إلى المغرب وهو صاحب طریقة جيلانية ولكنها تمیز بتعقیق أكثر في شئون العلم ودراسته وحماس عظيم خدمة الإسلام والمسلمین ، فارتقا في صفوف الصوفية ، ثم أصبح ولیاً فقيها واطلق عليه الناس لقب الغوث أو القطب الغوث ، وكثير

أتباعه ومربيده كثرة زائدة في البلد الذي نزل فيه وهو بجایة وخافته الدولة الموحدية ، وهي محققة في ذلك الخوف ، لأن منشئها وهو محمد بن تومرت بدأ عمله كذلك صوفياً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ثم أنهى أمره بازالة الدولة المرابطية .

ويقول أصحاب التراجم أن أبي يوسف يعقوب المنصور ثالث خلفاء الموحدين خاف أمره ، وتقول أنه لقيه وحادثه ، ثم توفي أبو مدين بعد ذلك في طريق عودته إلى بجاية قريباً من تلمسان ودفن في قرية العباد قريباً منها .

ويستلتفت النظر كثرة تلاميذ أبي مدين وأثره البعيد فيهم . لقد أحصى منهم القادلي في كتاب التشوف نحو مائتين ، وقال السلاوي أن تلاميذه يناظرون الألف ويقص القادلي عنه من القصص ما يدل على حرص أبي مدين على جمع مربيديه حوله وتحويلهم إلى جماعة وظيفتها خدمة الأمة ورعايتها ، والحافظة عليها والعمل على نشر الإسلام ، ويستوقف النظر كثرة التجار بين مربيديه وحثه إياهم على العمل على هداية الناس إلى الإسلام ، وهنا يمكن السبب في اهتمامنا هنا بأبي مدين ، فقد كان رجلاً ذا رسالة إسلامية بعيدة المدى ، ولعل هذا هو الذي أخاف أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدى منه . ويتبين لنا من الفارق الكبير بين تصوف أبي مدين وتصوف شيوخه من أمثال أبي الحسن على بن استغيل بن محمد بن عبد الله بن حزم المتوفى سنة ٥٩٥/١١٩٩ والشيخ أبي يعزى يلمور بن ميمون المتوفى سنة ٥٧٢/١١٧٦ فهذا كانا صوفيين تقليدين مباعدين للناس عاملين على نجاة نفسيهما أما أبو مدين فقد كان متوجهًا إلى خدمة أمة الإسلام وصيانتها وتحويل جماعة مربيديه إلى جماعة خادمة للإسلام سواء داخل بلاد الإسلام أو خارجها .

أبو الحسن الشاذلي

ولكن تحول الاتجاه الصوفي من الداخل إلى الخارج الذي بشر به أبو مدين توسع فيه عبد السلام بن مشيش وأبو الفتح الواسطي ظهر في صورته الواضحة

في حياة تأميمها الشاذلى وعمله ، فإن أبا الحسن على بن عبد الله بن عبد الجبار الزويلى المشهور بالشاذلى المتوفى في حميترا في صحراء العلاقى بمصر سنة ١٢٥٨/٦٥٦ كان بالفعل مدرسة جديدة في الصوفية العاملة ، فقد عرف بالفعل كيف يجمع في طريقته ربما أكبر عدد من الريدين استطاع أن يجمعه صوف قبله ، وتمكن كذلك من توجيههم إلى العمل النافع للجامعة ، وإذا كانت الأحزاب هي الأنماض التي كان شيخ الصوفية ينظمونها لمريديهم لكن يرددوها في حلقات ذكرهم ونواقلهم التي يقومون بها جماعة في المساجد أو الزوايا ، فإن الشاذلى يعتبر بالفعل أكبر مؤلف للأحزاب التي يرددتها الصوفية والمریدون في نواحي العالم كلها إلى يومنا هذا ، فهو صاحب حزب البحر وحزب البر والحزب الكبير وحزب المطف وحزب الفتح وحزب النصر وحزب الأوار ، هذه الأحزاب أو الأنماض القلوب تتضمن الحث على مكارم الأخلاق الإسلامية في أصفى صورها وتحث المسلم على العمل في سبيل الجامعة . وكان الشاذلى ينص نصاً شديداً على ضرورة كسب العيش بالعمل ، بل كان لا يرضى عن مريديه إذا وجده يميل إلى ترك العمل والانصراف إلى الزهد ، بل كان رأيه أن المريد ينبغي أن يظل في معرك الحياة عملاً بيده كاسباً رزقه متعاوناً مع غيره على فعل الخير وخدمة أمة الإسلام .

لا غرابة إذن في أن رأى أن معظم مريدي الشاذلى كانوا من أهل الحرف ومن التجار خاصة ، وأن نجد هؤلاء المريدين يؤمنون بأن انتسابهم إلى الطريقة الشاذلية يؤمن أنموالهم ويزيد أرباحهم الحال ويوسع دوائر أعمالهم ، ومعنى ذلك أن الشاذلى عرف كيف يجعل الصوف خادماً للجامعة الإسلامية بدلاً من أن تكون الأمة كلها في خدمة المتصوف كما نجد عند معظم من سبقوه . وقبل السنوى لم ينشئ أتباع أي شيخ من الزوايا قدر ما أنشأ الشاذلية والدرقاوية والغالبية العظمى من الطرق الصوفية الغربية والأفريقية متفرعة من الشاذلية ويکفى أن نذكر هنا الوقائية والجزولية والعروسية والحفناوية ، وهي طرق كان لرجالها أبعد الأثر في نشر الإسلام وتعزيز جذوره في إفريقيا المدارية والاستوائية .

ذلك أن التجار وأصحاب الحرف وجدوا أن الانتساب للطريقة الشاذلية أو أي طريقة متفرعة منها يؤمنهم من الخوف على النفس والعیال والمآل الذي كانوا

يشعرون به في عصور الفوضى والقلق السياسي والاجتماعي ، فهناك صفوفهم والتزموا مكارم الأخلاق وأقبلوا على العمل والعيش جماعة في الزوايا الكثيرة التي أنشأوها ، لقد كانت تلاوتهم لأحزاب الشيخ تهوى قلوبهم وتشعرهم بالأمان ، لأنهم كانوا يحسون إحساساً واعياً حقيقياً بأنهم يعيشون في رعاية قطب من أقطاب الله في هذه الأرض ، فمن ذا يستطيع أن ينال منهم ؟ لقد بلغ من إيمانهم بنفع أحزابه أن قال بعضهم إن أهل بغداد لو قدر لهم أن يتلوا حزب البحر للشاذلي لردوا به غزو المغول عن بلد़هم وتخربيه .

بهذه القوة الروحية الكبرى وهذا الإيمان العميق تكونت زوايا الشاذلية وما تفرع منها ، وتجتمع فيها أهل الحرف والتجار ، وفي حماية ولِ الله الكبير سار أولئك التجار يقطعون الفيافي طالبين الرزق الحلال ، وحيثما حلوا أنشأوا زاوية هي مسجد ومدرسة ومأوى ورمز للإسلام وأخلاقياته الرفيعة .

وكانت كل جماعة من المریدين وحدة اقتصادية اجتماعية متعاونة يرأسها شيخ الزاوية ، وهو الأب الروحي لكل المریدين كما ذكرنا ، فكان التجار التابعون لنفس الطريقة يتأنّن بعضهم ببعض ويقرض بعضهم ببعض ويودعون ثقودهم عند بعضهم البعض ، وكانوا لا يأمنون إلا في شيوخ طريقتهم وأصحاب العهد الذين أخذوه من شيخ طريقة وفي خاوف الصحراء أمنت زاوية الصوفية فلم يعد يجرؤ على العدوان عليها أحد ، ومعنى ذلك أن الطريقة الصوفية حملت الإسلام إلى الجاهل والفياق ، وفي أبعد منازل القبائل الأفريقية قامت الزاوية الصوفية الإسلامية رمزاً للأمان والاطمئنان .

وفي تلك البلاد البعيدة كان لابد للناجر الأفريقي الراغب في التجارة مع المسلمين أن يسلم ويدخل طريقة من يعاملهم حتى يأمنوا على مالمم عنده ويؤمن على أمواله عندهم ، فإذا أصبح عضواً في جماعتهم وجد عندهم الخلق المتن الشهامة والوقاء ، فازدادت محبتَه للإسلام ، هذا إلى جانب ما يعود عليه - الكسب بانضمامه إلى الطريقة .

لهذا يدهش الإنسان إذ يجد عالم الإسلام كله خلال القرن السادس المجري / الثاني عشر الميلادي وما بعده داخلاً في هذه الطرق موزعاً بينها ، فقد كان الانتساب إلى الطريقة دخولاً في أسرة مهاسكة تهيء لصاحبها الحماية والشعور بالأمان وتجعله في أمن من عدوان الحكماء ، لأن شيخ الطريقة رجل جليل موهوب ، وهو يستطيع التدخل لحماية المظلوم وإخراج المسجون ورد المغصوب وحماية الأولاد والحرير وكان شيخ الصوفية قادرين على تفريح الحكماء ومحاطبهم في عنف وإصدار الأوامر إليهم ، وكان هؤلاء يطعون إما عن خوف حقيقى من الصوفى وصلته الوثيقة بالله سبحانه وتعالى أو سياسة منهم وبعد نظر حتى يؤيدهم الشيخ الصوفى ويدعوه أتباعه إلى طاعتهم وكما رأينا فيما حدث بين السلطان سيف الدين لاشين والشيخ أبي السعود بن أبي العشار .

وقد وجدت هذه الطرق الصوفية قبولاً عظيماً في بلاد افريقيا شمالاً وجنوباً ففي المغرب إلى جانب الشاذلية نجد الجزوئية والتيجانية والدرقاوية والحببية والعيساوية والعزوزية وفي تafilت وواحات الصحراء الافريقية نجد الحبيبة والحداوة وفي الصومال وأريتريا نجد القادرية واليافعية وفي الكانم والبورنو ووادي نجد الكرزالية والشاذلية والعروسيّة والحمارات وفي الهند وما يليها شرقاً نجد البناوية والفوقيّة والقادرية والأشرفية والمندية والخلوصية وفي إيران نجد الحلائقية والقلندرية والجيلاوية وفي الصين نجد النقشبندية وفرعها الخفية والكبراوية (في خراسان خاصة) وفي تركيا وما وراء النهر نجد الشيشانية والطيفورية والبساطمية ، وفي أندونيسيا نجد الشاذلية بشق فروعها ، وهكذا .

ولكل من هذه الطرق زواياها وشيوخها ، والمریدون فيها وحدة اقتصادية اجتماعية تعمل باستمرار على مد رواقها وتوسيع مجالها وكسب المریدين وإنشاء الزوايا وهي كما قلنا مساجد وأماكن يجتمع فيها المسلمون بعد صلاة المغرب يؤدون صلواتهم ويرددون أحزابهم وأورادهم ويجدون إسلامهم ويكسبون الأتباع والأصدقاء ، وقد ذكر كاتب هولندي زاوية زارها في ناحية كليسمنتان في شمال جزيرة يورينو نشرت الإسلام بين قبائل يعد أفرادها بالآلاف ، وقد قال هذا

الرجل إن تلك الزاوية ، الصغيرة الخافية في ركن بجبل شمال مورفيو كسبت للإسلام أضعاف ما كسب أسقفيات ضخمة أنفق عليها الألوف .

وأجل ما في هذه الطرق الصوفية العاملة أنها منشآت شعبية خالصة ، مثلها في ذلك مثل كل المؤسسات التي قامت عليها سلام المجتمع الإسلامي ، واستقرار مجتمعه وتقديره أيضاً كالقضاء والتعليم والفقه والعلم بشقيه الديني والدنيوي ونقبات العمال والتجار ومراسك بناء السفن التجارية وتنظيم تجارة البحر وإعداد القوافل ، فهذه كالمؤسسات نظم وأوجه نشاط قامت بها أمّة الإسلام مستقلة عن الحكومات ، فقد كانت الأمة هي التي تعلم أبناءها من الكتاب إلى الدراسات العالية على الشيوخ ومن أولئك الشيوخ التي كانت الأمة تتضطلع بتكوينهم كانت الدولة تختار القضاة . حتى هذا كرهته الأمة فامتنع الأتقياء من القضاء عنأخذ رواتب من الدولة حتى يكون القضاء كلـه - تكويناً ومارسة من عمل الأمة ، وكـره أهل التقى والتصاون من العلماء تـردد رجل العلم والقاضي وصاحب الفتيا على السلطـان بل كان أهل الفضل من أصحاب العـلوم الـدنـوية كالـأطبـاء يـأبـون أن يـعالـجـوا أـهـلـ الـحـكـمـ بـأـجـرـ حـتـىـ لاـ يـكـونـ لـهـمـ فـضـلـ ، كـماـ فعلـ أـمـدـ بنـ إـبرـاهـيمـ الـجـزـارـ الطـبـيـبـ الـقـيـروـانـيـ الـجـلـيلـ ، فـقـدـ كـانـ يـداـوىـ خـلـفـاءـ الـفـاطـمـيـنـ دـوـنـ أـجـرـ صـوـنـاـ لـعـلـمـهـ عـنـ الـمـالـ الـحـرامـ كـماـ قـالـ .

قارن بذلك استظلال جماعات الرهبان المسيحيين أمثال الفرنسيسكانية والدومنيكية والجزوية على البابوية واعتمادها عليه تنظيمها وسياسة وتمويلها قام سلطانها في الغرب إلى يومنا هذا . هيئات لها قوتها وماليتها وسياساتها وكل الهيئات الديدية الكاثوليكية مركـزاـها في رومـاـ ، والبابـاـ يـخـتـارـ رؤـسـاءـهاـ أوـ يـعـيـنـهمـ مـرـاسـكـهمـ عـلـىـ الـأـفـلـ . أما الطرق الصوفية الإسلامية فهيئات دينية مستقلة لا سلطان عليها إلا الله سبحانه .

كذلك كانت تنظيمات الصوفية العاملة والمجاهدة من منشآت الأمة ، لم تشارك فيها الدول ، فكان أهل الطريقة ينظمون أنفسهم بأنفسهم وينشئون زواياهم بأموال الناس ، وكان الناس يتسابقون في إنشاء الروايا والإتفاق عليها ورعايتها

النازلين فيها ، ولم تكن هذه النفقه قليلة ، فقد كانت الزاوية مأوى للغرباء وأبناء السبيل ، وكان القائمون بأمر الزاوية يقدمون المأوى والطعام للغرباء والقراء وأبناء السبيل تنفيذاً لأمر الله تعالى بالعنابة بابن السبيل ، فلم يكونوا يرون في ذلك الإنفاق صدقة أو تفضلاً لأن أبناء الصدقات أمر من أوامر الله سبحانه وتعالى والعنابة بابن السبيل أمر آخر ، وأداء الواجبين مطلوب ، وهذه الحقيقة واضحة جداً من كلام ابن بطوطة ، فهذا رجل طاف بأرجاء العالم الإسلامي كله مدى خمسة وعشرين سنة على نفقة أمّة الإسلام : كان ينزل دائمًا في الزوايا والمدارس وفيها كان يتناول طعامه ، وهو يحدثنا عن شبكة الزوايا التي أنشأها أهل الطرق وغطوا بها صفحات العالم الإسلامي وحديثه هذا أبلغ من كل مقال .

هذه الزوايا الصوفية كانت من أكبر العوامل في زيادة انتشار الإسلام خارج حدوده ، فقد كان الإسلام يزحف في الصحراء الكبرى الأفريقية وفي نواحي إفريقية المدارية والاستوائية عن طريق رجال الطرق ، وكلما وصل موضعًا أقامت إحدى الطرق الصوفية زاوية ، والزاوية مسجد ومدرسة وملتقى للتجار والسفار ومكان لتلاؤه القرآن الكريم والأحزاب والأوراد ، يلتقي فيها الشيخ أو المربي بن يريده أن يلتقي به من الناس لطالب الدين وتعلمها والقيام بما تقرره الطريقة من نوافل وأذكار ثم للتحدث في مصالح الدنيا ، فهى مراكز زيارة وتجارة وهذا مظهر من الحقيقة العظيمة التي لا تقدرها قدرها عندما تقول أن الإسلام دين ودنيا .

وفيها أيضًا كان التجار يلتقيون ويتبادلون الأموال والبضائع والاتفاقات بالضبط كما كان تجارة العالم الإسلامي كله يتلاقون في مكة كل عام ليعقدوا اتفاقاتهم ويضعوا معاملاتهم فكانت الزاوية اجتماعاً مصغرًا في حين كانت المدن والموانئ مراكز تصفيية أعمال أكبر . أما أضخم اجتماع في التاريخ فهو مكة دون شك وهنا يصدق — حرفيًا تقريبًا — قول الله سبحانه وتعالى : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر ياتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويدركوا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » (الحج ٢٦-٢٨) .

انتشر الاسلام انتشاراً واسعاً عن طريق الصوفية ورجالها ، ففي سكون الروايا التي انتشرت في بحاج الأرض كان الوئي يقبل طالبا الطعام والملوى فيجدوها ويجد ما هو أسمى من كل شيء آخر وهو الإسلام فيدخل فيه لأنّه يرى ناحية الخير التي يقدمها الإسلام للناس طوعية ودون التماس أجر .

وأختم هذا الكلام عن نصيب الصوفية العاملة المجاهدة في نشر الإسلام عن طريق الروايا وتنظيم القوافل بعبارة أوردها واحد من مؤرخي الصحراء الكبرى وهو ادوارد وليام بو菲尔 قال : اتنا تصور الصحراء الكبرى خلاء قواه لا يجرؤ على اجتيازها أحد خوفاً من الطوارق وأهل النهب من بدو الصحراء ، ولكنها على رهبتها من آمن بلاد الدنيا لمن يعرف كيف يستفيد من شبكة الروايا الواسعة التي نشرها رجال الطرق الصوفية المسلمين في أرجائها جمِيعاً ، فالغريب والقريب والغنى والفقير في الروايا سواء ، وشيخ الزاوية حاكم قوي يحكم بسلطان الدين والعرف وكل ما يراه عدلاً . هذه الصحراء الشاسعة دخلت الإسلام بكل ما فيها من بشر بفضل المرابط (أى رجل الطريقة الصوفية) وعمله الدءوب بصبره وإيمانه وعشقه للحرية الذي يجعله يفضل الحرية مع شظف الحياة على الخضوع لسلطان الدول والاستمتاع بخفض العيش ، ولكل شيء في الدنيا ثمن .

الصوفية العاملة المجاهدة ويقظة الإسلام

ومن صفوف هذه الجماعات الصوفية العاملة المجاهدة وما جرى بمحارتها من جماعات المؤمنين الصادقين خرجت حركات الدفاع عن الإسلام وداره عندما تجلب عليها الاستعمار واقتضم حدودها وصور له الفرور أنه يستطيع سيادة بلاد الإسلام ودراك ثأره منها ، وهو ثأر قديم يرجع أولاً إلى ما تصورته أوروبا المسيحية من أن الإسلام عدا على بعض بلاد النصرانية وأدخلها في رحابه بالسيف ، وثانياً إلى ما توهّمه بعض الجاهليين منهم بالإسلام وحقيقةه وقوته الكامنة في كيانه فسبوا أنفسهم إذا سيطروا على بلد إسلامي استطاعوا أن ينشروا فيه المسيحية .

وقد اخطأوا في الأمرين جهيناً ، فمن الأمر الأول نردد هنا ما سبق أن ذكرناه في دراسة أخرى^(١) من أن الإسلام في حقيقة الأمر لم يفتح بلداً بالسيف ، وإنما هو استعمل السيف في القضاء على القوى الفاشية التي كانت تستدل الناس وستعبدهم وتحول دون وصول إليهم ، فما حارب المسلمين أهل الشام أو مصر أو العراق ، وإنما هم حاربوا الطغاة من الأكاسرة والقياصرة الذين كانوا يمدبون الناس ويرفضون أن تصل إليهم رحمة الله التي يتضمنها الإسلام ، فما أرغم عراق أو فارسي أو شامي أو مصرى أو مغربي أو أندلسي على دخول الإسلام ، وإنما هو الإسلام الذي فتح مغاليق القلوب ونفذ إلى صميمها وشلّتها بركتاته . بل لم ينزع الإسلام من الفرس أو الروم أرضاً لأن مصر والشام لم تكن قط بأرض الروم ، وإنما كانت أملاكاً لدولة الروم أو مستعمرات لها فإذا استخدمنا مصطلح العصر ، وقد حازها الروم بالقوة وحكموها بالسيف فكيف يعد انزعاج المسلمين إليها من الروم انتقاماً من أرضهم . وما كانت أرض هذه البلاد ملكاً ولا إرثاً لقيصر الروم وإنما هي لأهلها فإذا كان ولا بد أن يملك كل قطعة أرض انسان ليعمّرها بجهده ، وهذا هو الذي فعله الإسلام : رد أرض الله لله واستعمل عباد الله في عماراتها وإخراج طيباتها .

وأما في الثانية فما تيسر لهم رغم الاستعمار أن يكسبوا نفساً واحداً مسماها بشاشة الإسلام ، فما هم كسبوا إلا إشداً أفق يعودون عداً وجمعوا بعض غلة الشوارع من فقد الآباء والعائل وربوهم في الديور وأرادوا تنشئتهم على المسيحية ، ومن بدائع صنع الله للإسلام أن الكثرين من هؤلاء الصغار ما أن شبووا عن الطوق وعقلوا حتى نزع بهم عرق المهدية إلى الإسلام فعادوا إليه دون أن يستحيّهم على ذلك مستحث وذلك كثير جداً في بلاد الجزائر والمغرب التي ظهرها الله بيته الخينيف تطهيراً .

ولقد استعمر أولئك الناس الأرض واستغلواها وغصبوا خيرها ولكنهم لم ينالوا من الإسلام منالا ، بل كان دخولهم أرض الإسلام دافعاً للناس إلى مزيد

(١) الإسلام الفاتح لكاتب هذا المقال . سلسلة دعوة الحق التي تصدرها رابطة العالم الإسلامي باشراف الأستاذ الدكتور عبد الصبور مزروق في مكة المكرمة هذا الكتاب تحت الطبع .

من الاستمساك بالإسلام ، فصحيحا العاقل واستيقظ النائم . والإسلام نفسه عزيز لا يناله أحد بسوء . ولقد كان الإسلام هو الذي أيقظ قلوب المسلمين وأنهضهم على أقدامهم .

بعد هذا المدخل عن تطور الصوفية من تصوف مادي ومعنى سلبي يقتصر على الزهد في الدنيا ومارسة الرياضيات والمجاهدات زهداً في الدنيا ومحبة في الله أو يقصد الوصول إلى المقامات والحالات إلى صوفية عاملة وصوفية مجاهدة تعمل لخدمة المجتمع أو لخدمة الإسلام ، تنتقل إلى الكلام على نصيب الطرق الصوفية في إدخال الصحراء الكبرى وممظنم افريقية المدارية والاستوائية شمالي خط الاستواء في الإسلام .

ولابد لذلك من التعريف بالصحراء الكبرى . وسرى في نهاية كلامنا عنها أن هذه الصحراء الكبرى لم يكن من الممكن أن تدخل في الإسلام إلا عن طريق زحف بطء تقوم بها جماعات من المؤمنين يقصد أفرادها إلى نشر الإسلام قصداً ، أو يكون انتشار الإسلام نتيجة طبيعية أو حتمية لجهودهم .

الصحراء الافريقية الكبرى

«الصحراء في اللغة من الأرض المستوية في لين وغلظ دون القف وقيل : هي الفضاء الواسع . زاد ابن سيدة : لا نبات فيه . الجوهرى : الصحراء : البرية ، غير معروفة وإن لم تكون صفة ... وأصحر المكان أى اتسع ، وأصحر الرجل نزل الصحراء . وأصحر القوم إذا بربوا إلى الصحراء^(١) » .

ولم آت بهذه العبارة لأنقصى بها أصل معنى اللفظ واستعماله في اللغة ، وإنما لكي أدل على قلة معلومات أهل اللغة عندها عن الصحراء وطبيعتها ، ولتقارن بذلك ما يقوله جغرافي عارف بطبعية الأرض وأشكال سطحها والخصائص الطبيعية والتكتونية والأوروجرافية والطبغرافية والإيكولوجية لكل نوع من أنواع الأرض .

(١) لسان العرب . مادة صحر .

ولكي يتضح ما نريد أن نقوله نورد هنا فقرات مما يقوله المغرافي الضليع جمال حمدان عن صحراء مصر الغربية . وهو بكلامه هذا يعفينا من الاستشهاد ب الرجل مثل E. F. Gautier الذي ألف عن الصحراء الأفريقية كتاباً يعتبر من أضعف ما كتب بسبب الخلطية التي واجهت كلامه ، وهي خلطيّة استعمارية ستصبح حقائقها في أثناء هذا المقال .

يقول الدكتور جمال حمدان تحت عنوان : صحراء هضبة ومنخفض : « الصحراء الغربية ، في الدرجة الأولى صحراء هضبة ومنخفض plateau and depression ، يقسمها مصوغ أساساً في قالب هضبة عظمى واحدة ، تفصصها إلى عدد من الهضاب الأقلية الثانية سلسلة من المنخفضات الكبيرة أو الصغيرة ، تستقر على سطحها أو تغور فيه بدرجة أو بأخرى ، ورغم صعوبة تحديد مساحات المنخفضات لتبيان حدودها كثوريّاً ، فالقدر أن مجموعها لا يقل عن ١٠٠ ألف كم مربع ، أي أكثر من سبع مساحة المضبة كلها . المضبة إذن مائدة صحراوية من مقاييس عظيم ، إلا أنها مائدة خرم سطحها — كقطعة من جهن الجرير — بعديد من التقوب المتفاوتة تتركها في النهاية متوجة متغضنة بوضوح » .

ثم يتحدث عن « مائدة الصحراء » أي هضبة الصحراء ، ومن الواضح أنه يستعمل لفظ « مائدة » هنا مقتبساً إيه من اللفظ الإسباني meseta وهو الاسم الإسباني للهضبة ، فيقول إن المضبة تنحدر من الجنوب إلى الشمال ومن الغرب إلى الشرق ، ويقول : « في ازلاقها التدريجي نحو الشمال ، يتناول سطح هضبتنا المسطحات الواسعة كالسرير ، أو التلال المسطحة في mesas جانب والمنخفضات وحافتها الكويستية (من cuesta وهي المصعد البطيء) في الجانب الآخر ، فإن ميل الطبقات العاشر هو نحو الشمال فإن الحفافات الجرفية أو الكويستات تتكون عند حدود التكاوين الجيولوجية المختلفة ، ولأن حضيض الكويستات يمثل مقعرات حادة ، فإن الواحات تتكون بدورها تحت أقدام الكويستات وفي ظلها . وهكذا نجد أن كل المنخفضات تجرياً تميز بحافة شمالية بارزة ، بينما أنها تفتح على الجنوب بالتدريج إلى مستوى الصحراء الحبيطة ،

وصانع المآفالت escarpment maker في كل هذه الكوبيستات الشمالية هو طبقة من الحجر الجيري الصلب التي تعطى الرمال المفككة أو الطفل السهل التعرية » .

ويقول تحت عنوان «الصحراء الرملية» : «في نوعين من الغطاءات تتألف الغطاءات الرملية والخطوط الرملية ، والأخيرة تقع وتسحلق حول الأولى بحيث تستطيع أن تنظر إلى الصحراء الغربية الرملية برمتها كنظام رملي حلقي Concentric أو نصف دائري كامل ، ذواته ومركزه قلب بحر الرمال العظيم ، ثم يتخلخل ويضعف كلما بعدها عنه تجاه الأطراف والأقواس الخارجية إلى أن يتلاشى في النهاية غرب وادي النيل ، ويلاحظ في عناصر هذه الصحراء الرملية أن مواقعها ثابتة إقليمياً بصفة عريضة ، فهي تظهر على الخرائط بلا تغير على السنين وسطحها وحده هو الذي يتغير ، ويدو أن هذه الواقع قد حدتها التضاريس العامة كما يرجح أن هذا حدث في عصر مناخ أرطب نوعاً حيث ثم تثبتت هذه المسطحات الرملية الشاسعة » ^(١) .

وفي كلامه عن رياح الصحراء يقول جمال حдан : « وأخيراً فهنا ، أكثر من أي منطقة أخرى من صحاري مصر ، يمكن أن نقول مع دي مارتون دون المبالغة في التقليل من العوامل الأخرى ، إن الريح هي سيدة طبغرافية الصحراء بلا منازع ^(١) فالجفاف المطلق يكاد يلغى التعرية المائية ، ويترك المسرح خالياً مكسوفاً تماماً للتعرية الهوائية .. » ^(١) .

وهذا الكلام كله ينطبق على بقية الصحراء الكبرى التي تحاول الآن أن تفهمها لكي تصور طبيعتها وطبيعة سكانها وكيفية حركة التاريخ فيها ، لكي نعرف في النهاية كيف دخلت الإسلام .

فشل هذه الصحراء عسيرة على العيش ، لا تتيسر فيها الحياة إلا بالقدر الذي تسمح به المياه التي توجد في الواحات ، وهي منخفضات ووهبات تنبجلس

De Martonne: *A Shorter physical geography*, p. 238. (١)

جمال حдан ، شخصية مصر الطبعه الثانية ١٩٨٠ ، ص ٢٨٩ وما يليها .

فـ في قيعانها عيون ماء ، قد تكون من الكثرة والوفرة بحيث ينشأ فيها إقليم زراعي صغير تعيش فيه أعداد طيبة من السكان وتمارس الزراعة ، فتنشأ قرى كبيرة أو صغيرة . وقد تكون المياه من الوفرة بحيث يتكون حول فتحات العيون أشباه بالبركة الواسعة ، وفي هذه الحالة يشق الفلاحون قنوات بين عين وعين وتنشأ عن ذلك قنوات تحمل الماء الوفير ، وهذه هي التي يسمى بها ابن خلدون بالأهار كـ سرى في نصه الذى سنـتـى به بعد قليل . هذا ويندر أن تظهر عين واحدة في المنخفض أو الموقع ، بل في العادة تكون العيون مجموعات صغيرة أو كبيرة . وقد يحفر الناس بئراً أو أكثر في بعض الواضع التي يتوقفون العثور على المياه فيها ، فتنشأ واحة صغيرة مؤقتة ، لأن معظم الآبار يجف مؤها بعد فترة طويلة أو قصيرة من الزمن ، ولهذا فإننا نجد مواضع الصحراء السهبية بـ كـذا أو آبار كـذا متغيرة غير دائمة ، فقد توجد في زمان ولا توجد في غيره ، وقد تجف زماناً ثم تتـوفـر فيها المياه من جديد ، فيعود الناس إليها وتأخذ اسمـاً جديداً .

وـ وجـدـيرـ بالـذـكـرـ أـنـ لـفـظـ الـواـحةـ وـالـواـحـاتـ لاـ يـسـتـعـمـلـ إـلاـ فـالـحـدـيـثـ عـلـىـ واـحـاتـ مـصـرـ ، فـلـفـظـ وـاحـ مـصـرىـ قـدـيمـ وـمـعـنـاهـ المـاءـ . أـمـاـ الـواـحـاتـ فـغـيرـ مـصـرـ فـتـقـسـىـ جـزـائـرـ أـوـ قـرـىـ أـوـ بـلـادـ ، وـالـجـزـائـرـ جـمـعـ جـزـيرـةـ وـالـرـادـ جـزـائـرـ الصـحـراءـ ، لـأنـ الصـحـراءـ عـنـدـ الـعـربـ هـىـ بـحـرـ الرـمـالـ ، وـحـافـاتـ أـوـ سـواـحلـ ذـلـكـ الـبـحـرـ ، أـىـ مـنـاطـقـ الـانتـقالـ مـنـ الصـحـراءـ الـقاـحـلةـ إـلـىـ الـأـرـضـ الـمـسـكـوـنـةـ ذاتـ النـباتـ القـلـيلـ أـوـ الـكـثـيرـ تـسـمـىـ «ـالـسـاحـلـ»ـ ، فـقـىـ جـنـوبـيـ بـلـادـ تـونـسـ الـخـالـيـةـ تـوـجـدـ مـنـطـقـةـ السـاحـلـ ، وـالـشـرـيـطـ الـطـوـبـيلـ مـنـ أـرـضـ الـاستـبـ الـتـىـ تـمـتدـ عـلـىـ حـافـةـ الـأـرـضـ الـخـصـبـةـ فـيـ حـوـضـ نـهـرـ الـنـيـجـرـ وـمـاـ يـجاـوـرـهـ تـسـمـىـ بـلـادـ السـاحـلـ ، وـهـوـ اـسـمـ عـامـ يـطـلـقـ الـيـوـمـ عـلـىـ بـلـادـ مـالـىـ وـمـورـيـتـانـياـ وـالـنـيـجـرـ وـتـشـادـ .

وـ فـيـ صـحـراءـ وـاسـعـةـ مـثـلـ الصـحـراءـ الـأـفـرـيـقـيـةـ الـكـبـيرـ تـعـتـرـ تـلـكـ الـجـزـائـرـ أـوـ الـقـرـىـ صـرـاكـزـ الـحـيـاةـ وـنـقـطـ الـاـرـتـكـازـ أـوـ مـخـطـاتـ لـلـطـرـقـ الـتـجـارـيـةـ . وـلـوـلـاـ لـمـ اـسـتـطـاعـ أـحـدـ عـبـورـ هـذـهـ الصـحـراءـ الشـاسـعـةـ مـنـ شـمـالـ لـجنـوبـ أـوـ مـنـ شـرـقـ لـغـربـ .

ذلك أن مساحة الصحراء الكبرى سبعة ملايين من الكيلومترات المربعة ، فهى ربع القارة الأفريقية كلها ، وهى أرض صحراء قاحلة في معظم نواحها ، تبدأ في الشمال بالعرق وهو شريط متصل من الرمال السائلة التي تسفيها الرياح وتطيئها شكل كثبان الرمال المعروفة بهيئتها المهرمية التي تنتهي في العادة بقمة طويلة كحد السكين ، وهى في تنقل مستمر بفعل الرياح . وقد قال جمال حдан عن رمال الصحراء : « وأخيراً ، فهنا أكثر من أي منطقة أخرى من صحارى مصر ، يمكن أن نقول مع دي مارتون ، ودون مبالغة في التقليل من العوامل الأخرى ، إن الرياح هي سيدة طبغرافية الصحراء بلا منازع ^(١) ، فالجفاف المطلق يكاد يلغى التعرية المائية ، ويترك المسرح خالياً مكسوفاً تماماً للتعرية المائية ، التي يضاعف من انطلاقها انخفاض السطح وانبساطه العام أيضاً . والغريب أن فعل الرياح يعود بدوره فيضاعف من هذا الانخفاض والانبساط بما ينحت من المرتفعات ، ويرسمه في النحافات مما يؤدى في النهاية إلى خفض السطح وتسويته أكثر degradation, denivellement ^(١) .

هي إذن صحراء شاسعة من صنع الجفاف المتوالى والرياح السافية أحقاها بعد أحقاد : بعد العرق ، حزام الرمال الذى يتجلب في أوضح صوره في العرق الغربى والعرق الكبير الشرقى جنوبى الجزائر ، لمجد أنفسنا أيام أصناف مختلفة من التربة ، فهناك مساحات ينطليها الزلط أو جشيش الحجر ، ومساحات أخرى من أرض صحراوية حجرة أى صخرية لا ينبت فيها شيء ، وتلك هي الحماة ، صحراء الموت الحقيق ، وهناك هضاب صخرية محظمة السطح بفعل الرياح وتغير الجو ، وهنا تتوالى أمامنا أشكال صخرية رهيبة من أخذاد عميقة إلى وديان بعيد الموى ، إلى قمم جبال عالية ، إلى مسطحات هضبية بلا نهاية ، وهكذا حتى نصل إلى بلاد الساحل ، وهنا يظهر العشب وتدخل في مناطق أستب هي التمهيد资料 للدخول في أراضي السفانا ، الحشائش الطويلة وهذه السفانا هي أفريقية الدارية : أرض الأعشاب الطويلة والنعام والزراف والغزلان

(١) شخصية مصر ، ج ١ من ٢٩٠

والوغول واللمط ، صنف من الوعول سميك الجلد ، ومن هذا الجلد تصنع دروع الجلد التي تعرف باسم الدرقات .

وقد أوجز E. F. Gautier وصف سطح هذه الصحراء بقوله : « سهول أقية ذات سطح نجده في بعض الأحيان منبسطاً متجانساً كأنه نرى في صحراء الجزائر المعروفة باسم بلاد ريف ، وفي أحياناً أخرى نجده مغطى بالزلط والمحصى مما يجعل السير مؤلماً أشد الألم كأنه نرى في الصحراء الليبية ، وأحياناً ثالثة يكون هذا السطح قاحلاً تماماً في أراضي الموت المعروفة في البربرية باسم تاتررقة^(١) .

ونقطع هذا الامتداد القاحل المنخفضات والوهاد التي تقوم فيها الواحات أو القرى . ونظرة إلى الخريطة ترينا ذلك بوضوح ، فبعد أن نغادر مصر متوجهين غرباً خلفين وراءنا منخفض القطارة ومنخفض واحات سيوة ، وكانت تسمى في القديم سترية ، أما سيوة فهم قبيل من العرب كان يسكن إلى جوارها نجد أنفسنا أمام منخفض طول آخر يتمثل في واحات الجنوب ثم الكفراء ، ثم تتواتي أمامنا أنواع السطح الصحراوي : « سرير كلاتشو ، والسرير هو المرتفع من الرمال المتراكمة ، وتربيته رملية هشة ، وصخو الحروج الأسود . وسرير تبיסتي الذي يؤدى في اتجاه الجنوب إلى مرتفعات تبستي التي تصل أحياناً إلى ٣٠٠٠ متراً ارتفاعاً . وبعد ذلك يلقاناً منخفض طول حافل بالواحات : ذلك هو خط زويلة وودان وفزان ثم كاواد التي تصلنا باقليم بحيرة تشاد . هنا نجد أضخم مجموع من جزائر الصحراء الكبرى ، وهنا أيضاً نجد أنفسنا في مهد من مهد الاسلام المغربي . فهذه بلاد فتحها عقبة بن نافع الفهرى فيما بين ٤٠ و ٤٥ هجرية . فتحها ووضع فيها بنور الاسلام والعروبة التي لم تلبث أن صارت غايات عروبة وإيمان . وخلال هذا المنخفض عبر الاسلام عبره الأول إلى افريقية المدارية ، فاخترق إقليم كوار الذي يوصف بأنه دهليز الواحات . un ceuleir d'oases

E. F. Gautier, *Le Sahara*, 120 (١)

ثم تنضم أراضي صحراء واسعة حتى نصل إلى سلسلة أخرى من أراضي الخضرة تبدأ بجبل نفوسه جنوب طرابلس ، وجبل نفوسه جبل أحضر بسبب ما حياه الله به من عيون ماء لا تجف ، هنا ، وفي الخضرة الباهرة وسط رمال الصحراء نجد ملجاً من ملاجئ الاباضية المغربية ، فهنا وبعيداً عن متناول يد رجال السلطان في افريقيا ازدهرت الخارجية الاباضية التي نشأت أولاً في البصرة وحملها إلى المغرب شيخ يقال أن منهم عكرمة مولى ابن عباس . وإلى الجنوب الشرقي قليلاً نجد جزيرة غدامس ، وهي محطة قوافل واسعة الشهرة ، وهي أولى مراكز العمran الصحراوي التي تتوالى أمامنا في مسیرنا غرباً ، فأمامنا وإلى الجنوب - بعيداً - من بجاية نجد بسکرة أجمل واحات الدنيا فيها يقال ، وهنا كتب ابن خلدون نسخة مقدمته التي لا زالت باقية بخطه في إحدى مكتبات استطامبول أو إلى جنوبها نجد تقوت أو توجورت ، مراكز عمران وتجارة عظيمها وسط الصحراء .

ونتجه غرباً قاطعين صحارى فسيحة معطشة مهملة لنصل في النهاية إلى الأغواط وهي المدخل إلى أخدود طوى يمتد بلاد مزاب أو مصاب ، وعاصمتة غردية ، وهذا الأخدود بما فيه من مراكز العمran أنها هو واحدة ماء قليل وخضراء أقل ، ولكن هنا أيضاً مراكز عمران ديني روحي إسلامي ، فهذا إقليم مزاب الشهور بإيمان أهله وعزتهم واقتهم وجال مبانיהם ومساجدهم .

ونواصل سيرنا نحو الغرب لنلتقي بأكبر صحراوين رمليتين خارج الجزيرة العربية ، ونعني بذلك العرق الشرقي الكبير والعرق الغربي الكبير . بحران من الرمال السائلة المتحركة في جنوب جمهورية الجزائر . لا يعدل هذين الصحراوين إلا الرابع الخلالي في الجزيرة العربية . هنا أرض موات حقاً ، لا يعيش فيها حيوان ولا حشرة ولا طائر ولا ينبت نبات ، لأن الرمال ناعمة كالدقائق ، والرياح تنقلها من مكان لكان ، ولكن المنظر جميل حقاً ، فإن منظر الكثبان التوالية التي تصوغها الرياح في هيئة واحدة منظر يروع النفس ، وسكون الصحراء كذلك أروع .

ونقضى بعد ذلك ، في منطقة الحدود بين الجمهورية الجزائرية والملكة المغربية على منخفض فجيج ، تلك الواحة الجبلية التي هي استمرار لنفس المنخفض الذي يبدأ جنوب تامسأن ويصل في الصحراء حتى يبلغ فجيج وما يليها جنوبا إلى تغازى في إقليم العير أو الآير . هنا منطقة جبلية كثيرة الواحات تشبه منطقة مزاب وغريداية .

ثم نعبر بمنابع نهر المولوية ، هذا النهر الطويل الذي ينبع شمال الواحات إقليم تافلات ويسير شمالا يشرق حتى يصب في البحر المتوسط غرب مليلة . هنا منطقة عمران حقيق : هنا نجد مدة وجده وتأوريت وجرادة أبي القيس واجرسيف (على النهر) وعلى طول تاريخ المغرب كانت تلك منازل الزناتية ثم عرب العقل من بني هلال .

جنوبي منابع المولوية نجد نهر زيز . نهر ينبع من جبال الأطلس ، ويدور في الرمال قوسا واسعا ثم يختفي في الرميل . معظم الناس ظنوه فرعا من فروع المولوية إلا ابن خلدون فقد قرر حقيقة أنه نهر قائم بنفسه . هذا النهر أو النهير في ذاته صغير ، ولكن حوضه يعرف بمنطقة تافلات التي تسمى اليوم باليصانى وعاصمتها سجلماسة من أشهر الأسماء في تاريخ المغرب الإسلامي . موسى بن نصير عندما اتم فتح المغرب أطلق على ولايته الجنوبية — جنوب وادى أم الربع — اسم ولاية سجلماسة أو السوس . وسجلماسة كانت دائماً مركز دولة ، وقد اشتهرت ببني مدرار الذين انشأوا دولة خارجية صفرية في النصف الثاني من القرن المجري الثاني . هنا في الواحات سجلماسة قامت واحدة من أشهر جزائر الصحراء في عالم الإسلام . فقد أجرى الناس ماء العيون ووصلوا بين بعضها وبعض بقنوارات تسمى أنهارا وزرعوا القمح والشعير والارز والقطن والفاكهة . هنا مثال ناطق لجزائر الصحراء ، فالى جنوب سجلماسة أمامنا صحراء واسعة تقطع في شهرين ، منها واحد بدون ماء تماماً . أخيراً نصل إلى جزيرة أخرى على أبواب افريقية المدارية هي أودغشت : مركز إسلام وحضارة وعمران أقامه الإسلام في موات الصحراء ، هنا رأى ابن حوقل أكبر

صك مالى رأه في حياته : صك بمبلغ : ٤٠٠٠ دينار صادر لتأجير من أودغشت ، وأودغشت كانت المركز التجارى المقابل لسجلماسة بعد أن تعبر الصحراء الكبرى . كان التجار يخرجون من سجلماسة في القوافل ويقطعون الصحراء في شهرين : شهر منها فيه ماء وشهر بلا ماء أصلا . وهذه الصحراء يسمىها البكرى صحراء تنسر (دون شكل) وقد تكون صحتها ينس أو نسر .

وبعد تألفت سجلماسة ليس أمامنا حتى البحر المحيط إلا واحات قليلة أهتمها تندوف ، ومنها يصل الإنسان إلى البحر . هنا وفي مواجهة تندوف على البحر يجد الإنسان جنوبى أغادير قرصة صغيرة على البحر تسمى ايفيران يطوف ، وهي التي وصل عقبة بن نافع إلى البحر عندها وأدخل فرسه فيه وأشار الله على أنه وصل برأية الإسلام إلى آخر العمور ، ولو وجد أرضا لسار فاتحا حتى بلغ مغرب الشمس الذى بلغه ذو القرنين .

وصول عقبة بن نافع إلى هذا الطرف القصى من العالم ضربة من ضربات عصرية رجال الإسلام الأول لم يوفق إلى مثلها الاسكندر القدوى (وهو غير ذى القرنين) ولا قيصر ولا أحد من فاتحى الدنيا . وقد تيسرت لعقبة العظيم ورجاله لأنهم كانوا أهل عقيدة وإيمان راسخ ورسالة في الحياة . والانسان إذا آمن بالله وحمل قلبه على كفه آتى بالعجبائب .

وأعجب ما في عمل عقبة بن نافع أن بذرة الإسلام التي تركها هناك أينمت وأنبتت نباتا زكيًا ، فهنا تبدأ بلاد صنهاجة الصحراء ، وهى مجموعة من القبائل العفية التي جددت شباب الإسلام الغربى عندما قامت بحركة المرابطين . قامت بها قبائل متونة ومسوقفة وجزولة وبني وارت وتارجا وغيرها . هذه القبائل كانت تمتد حتى تعبر الصحراء في جنوب المغرب الأقصى حتى تصل إلى حوض السنغال وهو مهد الحركة المرابطية . في الطريق من وادى درعة إلى وادى السنغال نمر بمنطقة الساقية الحمراء ، وانه لغريب أن يقوم في هذا الموضع القاحل مركز عمران يسمى الساقية الحمراء . كيف وصل لفظ الساقية إلى هناك . ووصل عن طريق مهاجرة الأندلسين بعد نهاية مأساة المسلمين في الأندلس ، فقد وصل

بعضهم إلى هناك وحفروا الآبار ونصبوا السوق والنواعير وانشأوا عمراناً وسط المحل الرهيب . وسُنرى بعد قليل أن ناحية الساقية الحمراء كانت هي الأخرى - في القرن السابع عشر الميلادي - مركزاً من مراكز تجديد نشاط الإسلام في إفريقية المدارية هذه الرة ، فيها يعرف الآن ببورتوفالا والنیجر ومالي وما كان يعرف باسم بلاد غانة . لقد زادت معلوماتنا عن المرابطين وأصولهم وتفرعاتهم وما نشأ بفضلهم من حركات إصلاحية وطرق صوفية كان لها أبعد الأثر في إسلام الصحراء الكبرى كما سُنرى .

وصف بلاد الصحراء عند المسلمين

من أسف أن أكبر مرجع كنا نملّكه عن غرب الصحراء الكبرى فقيد اليوم والأمل كبير في الثبور عليه . انه كتاب الرحالة المغربي أبي عبد الله محمد بن فاطمة ، ولكن لدينا إشارات منه عند من عثّرنا على كتبهم من المؤلفين مثل ابن خلدون والحسن الوزان المسمى بليون الأفريقي وابن بطوطة ، هذا بالإضافة إلى الكنز الأكبر من معلوماتنا عن جغرافية المغرب والصحراء وهو الجزء الصغير من كتاب المسالك والممالك لأبي عبد العزيز البكري وكتاب صورة الأرض لأبي القاسم ابن حوقل النصيبي الرحالة .

ولكن معظم هؤلاء يتحدثون عن الناس دون الأرض ، فهم يحدّثوننا عن القبائل والناس ونادرًا ما يحدّثوننا عن ظواهر جغرافية تتصل بالأرض وطبيعتها ، فكل الذي كان يهمهم من ذلك هي عيون الماء والآبار .

ولكن لدينا الآن معلومات غزيرة عن الصحراء جنوب نطاق الواحات الجنوبي للمغرب المعروفة باسم القبلات ، ومفردها قبلة ، والقبلة في مصطلح ابن خلدون في كلامه عن المغرب هي إقليم جزائر الصحراء أو الواحات . وهذه الأقاليم العامرة الصحراوية قليلة ومحدودة المساحة ، ولكنها تتصل من شرق لغرب فيتكون منها نطاق أو خط عمراني ، وقد أشرنا إلى تلك الحقيقة وسنؤكّدتها بنص ابن خلدون عظيم القيمة ، فهي تبدأ كما قلنا عند واحتى سيوة

(سنترية) والفراورة التي كان المسلمين يسمونها الفرثرون ، ولابن حوقل عنها وعن أصحابها كلام طويل غنى بالعلومات ، ثم فزان قبلة طرابلس فغداة قبلة افريقية (تونس الحالية) فقررت (توجور) فغرداية ففحبيج ثم تافلات وسجلماسة .

وجنوبي هذه ، وفي وسط الصحراء تقريراً سلسلة أخرى من مناطق العمران ، وهي ليست في خط واحد عرضي ، ولكن عروضها متباينة وهي على الترتيب زويلة وطاغن والنطرون جنوبي إقليم فزان وكانت عاصمة في الماضي مرازق أما قاعدته اليوم فهي سبها ، وجنوبها بلاد السرير في منطقة جبال التبستي ، وهي اليوم من قواടع الطوارق ، وجنوبها بلاد كوار وقاعدته في الماضي كانت قرية تسمى كوار أما اليوم فهي بما وهو الاسم الحديث لكوار ، ويليها ذلك تمو وهي آخر واحات كوار ، ومنها المدخل إلى جمهورية النiger الحالية . ثم أغادس وكانت في الماضي قاعدة مملكة إسلامية محرواوية ، وهي اليوم المدخل لجمهورية نيجيريا الإسلامية العظيمة ، فنها يبدأ الطريق المؤدي إلى كانوا عاصمة الإسلام النيجري .

ثم تتجه غرباً فنجد إقليمي تفادي وتاوديني ، وكان هذا الإقليم مركز دولة إسلامية انشأها رجال الصوفية . وإلى جنوب ذلك نجد الإقليم الأعلى لنحنى نهر النيجر العظيم الذي كان المسلمين وخاصة الإدريسي وعلى بن سعيد في «بسط الأرض في طولها والعرض» . يسمونه بنيل غانة .

وجنوبي هذه المنطقة (تفادي وتاوديني) ندخل في افريقية المدارية ، وأول ما يلقانا منها بلاد منعطف النيجر . هنا كانت دول الإسلام الافريقية الكبرى : غانة ثم مالي ثم صنفاس ، وكلها من آثار حركة المرابطين . هنا نجد مدن ولاية وتبكتو التي يكتبها المسلمين تبكت ومدينة غانة التي زالت الآن وحلت محلها قرية صغيرة تسمى كومبي صالح ومدينتا جاد وكوغه على بحيرة النيجر .

هنا ، وفي محاذة تبكت نجد مدينة أودغشت التي تحدثنا عنها ، ولا زالت قائمة إلى اليوم على أبواب حوض نهر السنغال وغمبيا ، وكلها دار إسلام .

هنا يظن أنه كان مهد حركة المرابطين . تلك هي بلاد شعوب التكرور والفولا ، وها كانا عماد الاسلام المداري الافريقي .

واستمرار هذه المنطقة شرقاً هو إقليم البرنو والكامن ، وهو إقليم اسلام قديم ، إنه إقليم بحيرة تشاد حالياً ، وجنوبه نجد شعب الادماوة الذي يرجع إليه الفضل في إدخال الإسلام في الكمرن والجابون وما مدخل الإسلام إلى افريقية الاستوائية من هذه الناحية .

من ناحية السكان نجد هنا شعوباً إسلامية جليلة القدر تسكن إقليم واسعة هي دار الإسلام ، فنبداً عند حوض السنغال والعامببا بشعب التكرور والفولا وامتدادات الفولا وفتوحهم شرقاً في إقليم الماسينا والباوول وليتاكو ، وإلى شمال هذه نجد شعب الطوارق الذي يسود الصحراء كلها ولكنه يتركز في إقليم المقار الجزائري وقاعدته مدينة جليلة هي تامنيست التي يكتبها البعض تامنراست وهي كتابة خاطئة ترجع إلى أن الفرنسيين ينطقون الراة غينا ، فيكتبون الغين أحياناً راء ومن أغرب تحريفاتهم تلك قولهم : بنو الارب يريدون بنى الأغلب .

ويلي ذلك شرقاً فيما بين حوض النيل ومنطقة بحيرة تشاد وهي بلاد الكامن والبرنو نجد إقليم جوير وهو إقليم إسلامي يسكنه شعب الماوزا أو الحوشة ، وهو شعب إسلام وحضارة ، له لغته الخاصة التي يكتبها بالمحروف العربية ، ولغته تلك قريبة جداً من اللغة السواحلية ، وهي أصلانة تجار العرب الذين زلوا السواحل الشرقية الافريقية ، ثم اختلطوا بأهل البلاد ، ونشأت عن اختلاطهم اللغة السواحلية أو السواحلين ، وهي لغة عربية إفريقية أو إفريقية عربية بتعبير أصح تكتب بالمحروف العربية .

وهذه المعلومات عن الصحراء والمنطقة المدارية التي عرفناها عن طريق كتابات المسلمين بالعربية أو اللغات المحلية يحملها الفرنسيون في قولهم إن الصحراء الكبرى تتكون من الأقاليم التالية من الشرق إلى الغرب : فزان وكوار ثم إقليم تبست ثم بلاد غير بلاد المقار فوادي ريف فاقليم زبان ثم ناحية فيدكلات ثم توات وغدامس ثم تغازى ثم تافلت ثم تندوف والساقة الحمراء .

وقد قسم الحسن الوزان الصحراء إلى خمس مناطق أو ممالك هي :

- ١ - بلاد زناقة من الحيط الأطلسي إلى ملاحمات تغازى .
- ٢ - صحراء وازية من ملاحمات تغازى في إقليم العير شرق صحرا سجلسة .
- ٣ - صحراء تارجا أو ترجة وهي بلاد الطوارق ويحدها من الغرب بلاد ايفيدي ، وشماليها توات وجراردة وإقليم مزاب أو مصاب وفي جنوبه مملكة أغادس .
- ٤ - صحراء ورجلأ أو واريحلا أو واركلان وغدامس في الشمال ، وتحده في الجنوب بالصحراء التي تصل إلى كانو .
- ٥ - صحراء برداوة بين صحراء لطة في الغرب وصحراء أوجلة في الشرق .

وهذا التقسيم غير سليم ولا منطقي ، وفيه تناقض جغرافي واضح ، ولكن ليس هذا موضع نقده ، إنما موضعه تحقيق دقيق لجغرافية الحسن الوزان .

ونختتم هذه الفقرة عن أوصاف الصحراء الكبرى عند المسلمين بكلام ابن خلدون ، وهو إلى يومنا هذا أصبح ما لدينا عن الصحراء الكبرى قبل العصر الحديث ، وكلام ابن خلدون هنا من أكبر الشواهد على عبقريته التاريخية والجغرافية في آن معاً .

قال في الجزء السادس من تاريخه طبعة بولاق في ختام الفصل الذي يديره على مواطن البربر في إفريقيا والمغرب^(١) « هذا وصف هذا البحر الروي الذي هو حد المغرب من جهة الشمال . وأما حده من جهة القبلة (أي الجنوب الغربي) والجنوب فالجibal التهيلة المائة حجزاً بين بلاد السودان وببلاد البربر ، وتعرف عند العرب الرحالة البدية^(٢) بالعرق . وهذا العرق سياج على المغرب

(١) ابن خلدون ، العير ، ج ٦ ص ١٠٠ وما يليها . والنص فيه غواص وبيانات كثيرة لا تستطيع الآن تحقيقها وملء فراغاتها . ونرجو أن يعين الله يوما على نشر هذا الجزء من ابن خلدون نشراً علمياً محققاً .

(٢) يزيد هنا عرب بن هلال بن عامر بن صعصعة وعرب سليم بن منصور الذين كانوا قد انتشروا في المغرب كله في أيام ابن خلدون ، وقد حققنا ذلك في كتابنا (تاريخ المغرب من القرن السادس إلى السادس عشر الميلادي) وهو يطبع حاليا في دار المعارف في القاهرة -

من جهة الجنوب ، مبتدئ من البحر المتوسط وذاهب في جهة الشرق على سرت واحد إلى أن يعترضه النيل الماء الطيور من الجنوب إلى مصر ، فهناك ينقطع عرضه ثلاثة مراحل وأزيد» .

«ويعترضه في جهة المغرب الأوسط أرض محجرة تسمى عند العرب الحادة من دور (؟) [إلى بلاد الجزيرة] ^(١) إلى بلاد ريف ، ووراءه من جهة الجنوب . وبعض بلاد الجزيرة ذات نخيل وأنهار معدودة في جملة بلاد المغرب مثل بلاد يودة وتنطيط ^(٢) في قبلة المغرب الأقصى .

وتسايت وتيكورارين ^(٣) في قبلة المغرب الأقصى .
وغدامس وفزان وودان في قبلة طرابلس .

كل واحدا من هذه إقليم يشتمل على بلدان عامة ذات قرى ونخيل وأنهار ، ينتهي عدد كل واحدة منها إلى المائة فأكثر .

وإلى هذه العدوة الجنوبيّة من هذا العرق ينتهي في بعض السنين مجالات أهل الشام ^(٤) من صهاجة ومتقلبهم الجائعون هناك إلى بلاد السودان . وفي العدوة الشمالية منه مجالات البايدية من الأعراب الظواعن بالغرب . وكانت قبلهم مجالات للبربر كما ذكره بعد .

هذا حد المغرب من جهة الجنوب .

ومن دون هذا العرق سياج آخر على المغرب مما يلي التلول منه ، وهي الجبال التي هي تخوم تلك التلول متعددة من لدن البحر المتوسط في الغرب إلى برنيق ^(٥)

(١) الأغلب أن المراد هنا ببلاد الجزيرة تلك جزيرة (واحة) خبيث .

(٢) هل المراد هنا بلاد واركلا أو رجلان وجبل راشد ؟

(٣) المراد في الغالب بلاد الأغواط ومصاص وقاعدتها اليوم غرداية .

(٤) أي المرابطين والطوارق . وفي الأصل الشام .

(٥) برنيق هي Berenica واحدة من البلاد الخمس التي كانت تتكون منها ناحية برقة وكانت تسمى سيرينياكا أو انطابليس وهو تعرّب بنطا بلس Penta-polis أي المدن الخمس .

من بلاد برقة . وهناك تقطع هذه الجبال . ويسمى مبدؤها من المغرب جبال درن ^(١) .

وما بين هذه الجبال الخيطة بالتلول ^(٢) وبين العرق الذى وصفناه آنفاً بسائق وفقار أكثر نباتها الشجر وفيما يلى التلول منها .
ويقاربها بلاد الحريد ذات نخل وأنهار .

ففي أرض السوس قبلة مراكش ترودانت والقرى قرويان ^(٣) وغيرها ، بلاد ذات نخل وأنهار ومزارع متعددة عامرة .

وفي قبلة فاس سجلابة وقرابها بلد معروف .
ودرعة أيضاً وهي معروفة .

وفي قبلة تلمسان قصور متعددة ذات نخل وأنهار .

وفي قبلة تاهرت القصور أيضاً ، بلاد متقابلة على سطح من المشرق إلى المغرب أقرب ما فيها جبل راشد ، وهى ذات نخل ومزارع وأنهار وقصور معينات تناهز المائة وأكثر ، قبلة الجزائر ذات نخل وأنهار .

ثم بلد واركلى قبلة بجاية ، بلد واحد مستباح العمران كثیر النخيل .

وفسيته إلى جهة التلول (أى إلى الشمال) بلاد دينغ تناهز الشلالات المائية منتظمة على حفاف نهر واد ينحدر من المغرب إلى المشرق يناهز المائة من البلاد فأكثر قاعدتها بسكرة ، من كبار الأنصار بالغرب ، وتشتمل كالماء على النخل والأنهار والفنون والقرى والمزارع .

(١) واضح هنا أن هذه الجبال يراد بها جبال الأطلس . وهنا يتبيّن أن نص ابن خلدون الذى بين أيدينا فيه خروم لم يتبّه لها التاجر . ومن نتائج هذه الخروم أن ابن خلدون خلط بين سياج العرق وسياج جبال الأطلس .

(٢) التلول جمع تل ، والتل يرد به منطقة السفوح الشمالية لجبال الأطلس ثم الشريط الساحلي . وسيتضيّح ذلك بعد قليل .

(٣) لم أستطع تحقيق هذين اللفظين بصورة تطمئن إليها النفس . ولكن ما دام الكلام عن ترودانت فالمراد حوض السوس . فقلل صحة القراءة : ترودانت والقرى ووديان .

ثم بلاد الجريد قبلة تونس ، وهي نقطة توzer وقفصة وبلاط نفزاوة ، وتسمى كلها بلاد قسطنطينة . مستبحة العمران مستحکمة الحضارة ، ومشتملة على النخل والأهار .

ثم قابس قبلة سوسة ، وهي حاضرة البحر من أعظم أمصار افريقيا ، وكانت دار ملك ابن غانية كما نذكره بعد ، وتشتمل على النخل والأهار والمزارع .

ثم فزان وودان قبلة طرابلس ، قصور متعددة ذات نخل وأهار ، وهي أول ما افتح المسلمون من أرض افريقيا لما اغزاها عمر ابن الخطاب عمرو بن العاص .

« ثم الواحات قبلة برقة ، ذكرها المسعودي في كتابه » .

« وما وراء هذه كلها في جهة الجنوب فقفار ورمال لا تنبت زرعاً ولا صرعى إلى أن تنتهي إلى العرق الذي ذكرناه » .

« ومن ورائه مجالات المثلثين كما قلناه ، مقاوز معطشه إلى بلاد السودان ^(١) » .

وما بين بلاد هذه والجبال التي هي سياج التلول ^(٢) بسائق متألون مناجها : صرفة بزاج التلول ^(٣) ، وتابرة بمزاج الصحراء ^(٤) ، بهوائهما ومياهها ومنابتها ، وفيها القيروان . وجبل أوراس معترض وسطها . وببلاد الحضنة حيث كانت طبينة ما بين الزاب والتل . وفيها مدينة ^(٥) والمسييلة ، وفيها السرسو قبلة تمسان حيث تاهرت . فيها جبل دمر ، وقبلة فاس معترض في تلك البسائق .

هذا حد المغرب من جهة القبلة والجنوب » .

إلى هنا ينتهي ما قلناه من ابن خلدون .

ويلاحظ أنه يجعل آخر حد المغرب خط أو نطاق القبلات التي ذكرناها .

(١) تلك هي بلاد الصحراء التي تحدثنا عنها ونحاول الآت أن ندرس كيف دخلت الإسلام .

(٢) التلول يراد بها هنا منطقة البحر المتوسط وهي الشريط الساحلي والسفوح الشمالية لجبال الأطلس .

(٣) يزيد ابن خلدون بلفظ مزاج هنا ما نسميه اليوم مناخ ، والمراد مناخ البحر المتوسط .

(٤) المراد مناخ الصحراء .

(٥) في الأصل مغرة وهو خطأ .

وأعلى خط القبلات بلاد الصحراء الإفريقية ، وقد أخذنا فكرة عنها . إنها بسائط معطشة كما يقول ابن خلدون ، وهي بلاد المثمين أي الطوارق ، وتنتمي إلى إفريقية الدارمية وببلاد كهذه لا تفتح بجيوش وإنما تفتح وتدخل نطاق الحضارة بعملية زحف ديني حضاري يقوم به ناس مؤمنون وهبوا أنفسهم للعقيدة وتجار يدخلون في زمرة أولئك المؤمنين ويتعاونون الجانبان على إدخال هذا العالم الصحراوي الإفريقي في نطاق الحضارة العربية الإسلامية .

و قبل أن نختم هذا التعريف العام بالصحراء ومناطقها المعморدة نضيف فقرتين اقتبسنها من كتاب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط والكلام على تلك البلاد تحديداً وتخطيطاً وعاداتهم وأخلاقهم وما يتعلق بذلك لأحمد بن الأمين الشنقيطي نزيل القاهرة^(١) .

الفقرة الأولى عن شنقيط أو شنجيط وهي تقابل الجزء الشمالي من جمهورية موريتانيا الحالية ، وهي :

الكلام على شنقيط ، هل هي من بلاد السودان أو من المغرب ؟

«شنقيط من المغرب على ما كنا نعهد ، وذلك معروف عند أهل شنقيط (ثم يتكلم كلاما طويلا ليثبت أن شنقيط من المغرب لا من بلد السودان ، والحقيقة أنها لا من المغرب ولا من بلد السودان - أي إفريقية الغربية الدارمية والاستوائية - ولكنها من بلاد الصحراء ، ولم يكن القدماء يرون أن الصحراء إقليم قائم بذاته ، ويررون أن نصفها الشمالي من المغرب ونصفها الجنوبي من بلد السودان . ولكننا نعتبر الصحراء اليوم إقليماً قائماً بذاته . في الماضي ومن الناحية الجغرافية على الأقل) . ثم يقول الشنقيطي بعد ذلك :

(١) هذا الكتاب يعتبر من أهم مراجعنا عن الصحراء الإفريقية وخاصة في جانبها الغربي أي فيما بين جنوب المغرب الأقصى وحوض نهر النيجر . وقد طبع هذا الكتاب طبعة واحدة (القاهرة ١٣٢٩/١٩١١) وناشره هو محمد أمين المانجي رحمه الله رحمة واسعة .

«كانت شنقيط عيوناً تشرب منها الخيل كما تقدم ، وقد مضى من تاريخ عمارتها إلى وقتنا هذا ، وهو عام ١٣٢٩ (١٩١١ م) خمسين سنة تقريباً^(١) ، وقد بنيت في أول الأمر على موضع مستوٍ مشتمد ، فانهارت إليها الرمال ، حتى إن جوانبها يخشى عليها أن تواريها الحصباء فيما بعد . وهذا يوجد في تلك البلاد ، فان منها أماكن دهسة ، فالريح تنقلها على طول الأزمنة كما هو مشاهد . ومن أغرب ما يمكن أن في بعض صحاري إدر أواده^(٢) عاصمة بالنخل إلى الآن فيها يقال لا أنيس بها ، ويقال أنها كانت بها قرى فدفنتها الريح وأن بعض أدائها عاص بالنخل ، وأن الريح تلفحه لكثرته وقرب بعضه من بعض ، لأنها تنفس الطلع إلى النخل المحاذى له ، فيعنيه ذلك عن تأثير^(٣) الناس ، وإذا أفرك^(٤) فإن الريح تسقط ثمره تحت النخل فتأكله الوحوش » .

«... قال العلامة سيدى عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوى في رسالته « صحیحة النقل في «علوية إدوعل وبكرية محمد غل^(٥)» : وهم - يعني العلوين - كانوا زمانا قبل توطئهم آمير وشنقيط تبليالت^(٦) . أخبرني الثقة عن سيدى المختار الكنفى رضى الله عنه أنهم كانت لهم مائة ساقية . وإلى الآن يذكر من مر بتلك الجهة أن موالي العلوين بها ، ويتراجون أحدا منهم أن يكون لهم أساسا... » ثم يذكر الشنقطي أن جده يحيى هو الذى عمر شنقيط ، وذلك أنه كان في الأصل من أهل تبليالت ، ثم طرده أهلها ، ثم قتل إنسانا ، ولم ينشأ الناس قتلته به لعلو مقامه فأخرجوه من بلدتهم ، قال : « قال في البلاد ،

(١) وبناء على هذا يمكننا القول ان تعمير شنقيط وتحويلها إلى منطقة عمران دائم يرجع إلى القرن الثامن المجرى / الرابع عشر الميلادي . وقد وجدت شنقيط وعيون الماء فيها قبل ذلك بزمن طويل ، ولكن عمرانها جاء بعد تعمير منطقة الساقية الحمراء — وستتكلم عنها — وهي تقع جنوب وادى درعة .

(٢) بريد : وديان .

(٣) أي القيام بعملية تلقيح أناث النخل بطلع الذكور .

(٤) أي إذا نضج .

(٥) أي في صحة نسب قبائل ادوعل إلى ابن أبي طالب رحمه الله وصحه انتساب قبائل « محمد غل » إلى أبي بكر الصديق رضى الله عنه .

(٦) تبليالت (فيما يقول الشنقطي) مدينة لم تزل معروفة بين ادر وتأفلات (= تافلات) من جهة البحر .

ثم أُنْ شنجيط ، وقد بنيت فيه بيوت قليلة فيها (قبيلة) اعمر ييش و (قبيلة) «جد أديمجر» و (قبيلة) محمد غل ، فأراد النزول معهم ، فقال بعضهم : خلوه ينزل معك لكن سيسألك بالأمر عليكم ، فسكن معهم^(١) .

وببلاد شاسعة صحراوية كهذه ما كان من الممكن أن تدخل في رحاب الإسلام بالفتح العسكري أو بالدعوة المنظمة التي تقوم بها الدول أو يقوم بها الدعاة من أهل الإيمان والاحتساب ، فلا يمكن أن ينتشر فيها دين إلا عن طريق جماعات من أهل الإخلاص للإسلام والرغبة في نشره ، يقومون بذلك العمل جماعة ، ويقدمون في الصحراء على مهل ، أى يحملون الإسلام إلى منطقة بعد منطقة من مناطق الصحراء وجدير بالذكر هنا أن بلاد المغرب تنقسم إلى مناطق عرضية تسير من الشرق إلى الغرب ثم من الشمال إلى الجنوب محاذية سواحل البحر الأبيض أولاً ثم ساحل المحيط الأطلسي ، وقد ذكرنا هذه المناطق أو النطاقات . أما بلاد الصحراء فتنقسم مناطقها العامرة إلى مناطق طولية ، أى يمكن تصور مجموعات القرى أو الواحات في خطوط تتدنى من الشمال إلى الجنوب وهناك الخط المتدى من أوجلة والجفوب والكفرة (جنوبي برقة) ثم الخط المتدى من طرابلس وجبل تغوسة إلى فزان وكوار (جنوبي طرابلس) ، ثم الخط المتدى من بلاد الجريد التونسي إلى غداس وغات ، وفي وسط وجنوب المغرب الأوسط نجد مجموعة كبيرة من هذه الواحات تسير في خطين . واحد منها من بسكرة و يصل إلى تقروت (توجورت) ، وخط آخر يسير من الأغواط إلى غرداية قاعدة إقليم مزاب أو مصاب ، وكل هذين الخطين يتلاقيان في إقليم المجار أو المقار وقاعدته تامنفست (وهذه كلها في الجمهورية الجزائرية) ثم خط وجدة وفريج وواركلا أو ورجلان ثم الخط المتدى من فاس إلى إقليم تافالت وقاعدته سجلماسة ، وتسمى الآن بالريصاني وأخيراً هناك الخط الساحلي الذي يسير قريباً من ساحل الأطلسي جنوباً فيصل إلى إقليم الساقية الحمراء وإقليم أدرار وشنقيط ويصل في النهاية إلى حوض النيجر حيث قامت الممالك الإسلامية الكبيرة .

(١) الوسيط ، ص ٤١٣ - ٤١٤

ولو ترك الإسلام ليتشر على مهل عن طريق هذه الخطوط من مناطق المزروع والقرى لاستلزم الأمر وقتاً طويلاً جداً . ولكن القرن الخامس الهجري / الحادى عشر الميلادى شهد حركة دينية إسلامية ذات طابع جديد سياسى وديني في وقت واحد ، وأصحاب الفضل في هذه الحركة هم قوم من ببر الصحراء يسمون بـ صنهاجة الصحراء أو صنهاجة الجيل الثاني كما يقول ابن خلدون . وعلى أيدي هؤلاء قامت حركة تصوفية جديدة يمكن أن نسميها بالصوفية المرابطة .

الصوفية المرابطة

وقد درس الباحثون قيام دولة صنهاجة الصحراء هذه التي عرفت بالدولة المرابطية دراسة وافية ، ولكن لدينا الآن معلومات جديدة تدل على أن فكرة الرباط والمرابطة هذه لم تطرأ على الحركة أثناء عمل عبد الله بن ياسين المشهور الحقيق والإمام الروحي للحركة المرابطية .. وإنما هي بدأت في منطقة تافلات وعاصمتها سجلماسة على يد الشيخ وجاج بن زللو ، فيبدو الآن أن هذا الرجل المغربي الأفريقي لم يتخد منطقة تافلات مقاماً له مجرد أنها وطنه ، بل لأنه كان منظماً حركة لنشر الإسلام الصحيح أى السنى في إقليم تافلات ثم الامتداد بالإسلام إلى الجنوب عن طريق طرق التجارة وخاصة ما يؤدي منها إلى أودغشت . وهذا التصور الجديد يغير بعض الشيء الصورة التاريخية التقليدية التي تجعل من وجاج بن زللو مجرد شخصية عابرة في تاريخ الحركة المرابطية ، ومما يزيد في قدر هذا الرجل هو أنه هو الذي سمي دار تدريسه في سجلماسة دار المرابطين ، فكان الحركة ولدت مع هذا الرجل لا مع عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر كما كان يظن .

المهم أن هذا الرجل هو صاحب فكرة الرباط الدينى في هذا الجزء من عالم الإسلام ، وعلى أساس تفكيره نشط وعمل عبد الله بن ياسين الذي جعل دار المرابطين دار جهاد في سبيل الله ، ومع أن وجاج بن زللو وعبد الله بن ياسين لم يكونا من أهل التصوف أو أصحاب الطريق إلا أنها انشآ في تاريخ حركة التصوف الإسلامي تياراً جديداً سميته بالصوفية المرابطة ، وهذه الصوفية المرابطة

لم تكن صوفية بقدر ما كانت مرابطة ، أى أن الجانب السياسي فيها غالب على الجانب الروحي ، فلم تنشأ على يد هذه الجماعة طريقة صوفية وإنما دولة مرابطية . وهذه الدولة المغربية تحولت إلى حركة سياسية كبيرة لأن الظروف في المغرب الأقصى والأندلس ثم في بلاد السودان كانت تستدعي الجهاد الديني ، وقد قام المرباطون بالجهاد على أحسن ما يكون ، فقام فرعون الشهابي بقيادة يوسف بن تاشفين بالقضاء على بقایا زندقة برغواطة في شمال المغرب الأقصى وجعل هذا الجزء من وطن الإسلام بلاد سنة وجماعة ثم عبر إلى الأندلس وقام بالدور الجليل المعروف الذي أنقذ الأندلس الإسلامي ومد في عمره ما يقرب من أربعة قرون .

وقد كان لحركة المرباطين في بلد السودان أثر لا يقل أهمية عما كان لها في شمال المغرب الأقصى ثم في غرب المغرب الأوسط والأندلس ، فانتشر الإسلام في بلد السودان وضرب جذوراً عميقاً بفضل جهاد أبي بكر بن ناحية ، ثم بفضل تلميذ من تلاميذ عبد الله بن ياسين يسمى أحمد الحضرمي ، والحضرمي هذا ذهب إلى بلده الماندى أو الماندنجي في حوض السنغال وغبيا ، وأنشأ حركة دينية زادت الإسلام انتشاراً ، ومن المعروف أن المرباطين هم الذين حولوا مملكة غانا إلى مملكة إسلامية جعلت بلد السودان بلد إسلام .

وعندما انتشرت الحركة الصوفية واتسع نطاقها في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي واتسع نطاق الطرق الصوفية حتى شملت المغرب الأقصى كلها ، وحل العصب الديني محل العصب الدنيوي تأسلاط الطريقة الجزاولية وما تفرع عنها مثل العروسية في المغرب ، وعبرت الصحراء مع طرق التجارة ، ومن القادرية تفرعت الناصرية والرحانية والمشيخية وغيرها مما عبر الصحراء إلى بلد السودان وانتشر فيه .

وعلى أساس من هذه الطرق نشأت طرق صوفية سودانية صرفة أهمها الطريقة الكنتية ، ولدينا الآن معلومات طيبة عنها بفضل حفييد لحمد الكنتي أو محمد كنـتا منـشـء الـطـرـيقـة ، وهذا الحـفـيد هو مـحـمـدـ الخـلـيفـةـ بنـ سـيـدـيـ مـخـتـارـ الكـنـتـيـ . وسيدي محمد الكونتي هذا كان إـسـمـ أـسـرـتـهـ الأـصـلـيـ كـونـتاـ أوـ تـكـتبـ أـحـيـاـنـاـ كـنـاتـةـ ، وـأـنـصـارـهـ يـجـعـلـونـ سـلـسـلـةـ نـسـبـهـ هـكـذـاـ : مـحـمـدـ الـكـوـنـتـيـ بنـ سـيـدـيـ

على بن يحيى بن عمّان بن دومان (أو عمر) بن عبد الله ياس (أو يحس) عبد الله بن شاكر بن يعقوب بن عقبة المستجاب بن نافع . وقد وجدنا هذا النسب في كتاب رسالة الغلويات . الذي ألفه محمد بن الخليفة بن سيدى مختار الكونتى الذى ذكرناه .

وهذا النسب غير مقبول — ولا معقول — لأنّه يجمع في آباء ذلك الرجل بين عقبة بن نافع وعبد الله بن ياسين وشاكر . وشاكر هذا لا نعرف إسمه الكامل وإنما هو كان واحداً من رجال عقبة بن نافع تركه عند عودته من غزوه الكبرى في موضع لا يزال موجوداً إلى اليوم على وادى أم الريع وأمره بإنشاء قاعدة للرباط فيه سميت باسم رباط شاكر أو شيكير كما يرد إسمه في نص الشيخ الصالح صالح بن عبد الحليم الذي أثبت لنا بصورة قاطعة أن عقبة وصل بالفعل إلى ساحل المحيط الأطلسي عند قرية صغيرة على البحر تسمى إيفيران يطوف جنوبى أغادير . وهذا الرجل يقول كذلك في نصه الذي أشرنا إليه أن أهل أغمات هيلانة جنوبى مدينة مراكش أسلموا في ذلك الحين وانشأوا مسجداً في أغمات على وادى نفيس المتفرع من نهر تنسيفت .

ولا يمكن أن يكون شاكر هذا حفيداً ثالثاً لعقبة بن نافع لأنّه كان معه في غزوته الكبرى التي انتهت باستشهاده في تهوده . ولا يمكن كذلك أن يكون عبد الله بن ياسين من أحفاد عقبة بن نافع . فهو نفسه لم يقل ذلك ، ولكن العبرة هنا في اجتهاد هذا الزعيم الأفريقي المنديجي فيربط نفسه وقبيله بأسماء عظيمة في تاريخ الإسلام ، وربط نفسه بعصر التابعين ، فقد كان عقبة تابعياً ، فقد كان أبوه نافع بن عبد القيس صحابياً ، إذ انه كان زوج أخت عمرو بن العاص .

وقد أنشأ محمد الكنتى طريقة صوفية متفرعة عن القادرية ، وقال أصحابه كما نقرأ في رسالة «الغلويات»^(١) التي كتبها سيدى محمد الخليفة بن سيدى

(١) هذه الرسالة لم تنشر بعد . وقد عثر عليه المستشرق A. A. Batran . وقال انه وجده في مجموعة كتب الطريقة البكائية في مكتبة (تنبيكت) ، والأصل محفوظ في مركوز التوثيق العربي في ايمادان Ibadan Center of Arabic Documentation Research Bulletin. وقد نشر مقالاً عنه مجلة الأبحاث المجلد الثالث سنة ١٩٦٧ . وكذلك كتب عن سيدى محمد الكونتى بحثاً قياماً كتاب : *Studies in West African Islamic History*, edited by J. R. Willes, London, 1979.

الخنار الكنى أن جده وصل إلى درجة القطبانية العظمى أى أصبح قطباً في مستوى أبي مدين القطب الغوث ، وكذلك كان حفيده سيدى مختار الكنى . وكان محمد الكنى قد اتخذ له مقاماً في قرية صغيرة بين ناحية تيريس والساقية الحمراء . وكلما الموضعين مذكور في كتاب الوسيط لأحمد بن الأمين الشنجيطي .

ومن أجداد سيدى مختار الكنى على المذكور في نسبة ، وعلى هذا تزهد ووهب نفسه للسياحة في الأرض واستقر في آخر عمره في قرية تسمى عزي قرب تغازى وهناك كان الريدون يتواجدون عليه . وكان ذلك في القرن التاسع المجرى / الخامس عشر الميلادي في أواخر أيام بني مرين .

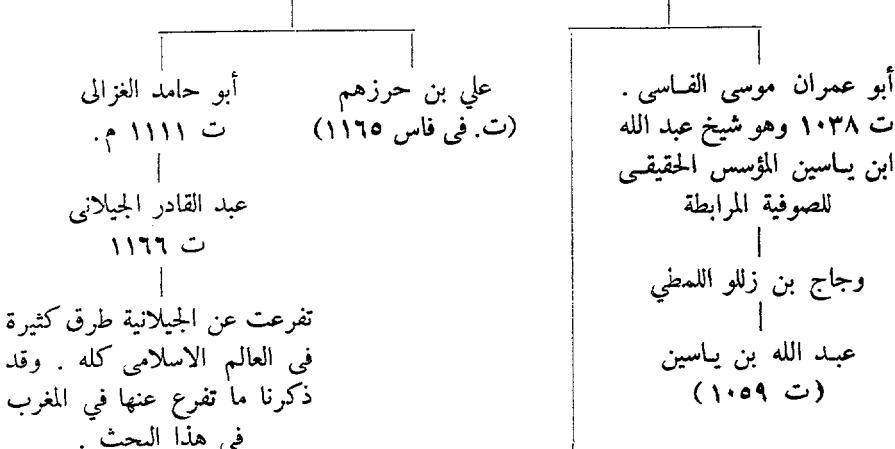
ومن الطريقة الكوتية تفرعت الطريقة البكائية وقاعدتها في توات من كبار مراكز العمارة فيما بين المغرب الأقصى وبلاد السودان . وقد انتشرت الطريقة البكائية في كل بلاد الصحراء الغربية ، وكثيرة زواياها حتى لا نجد قرية في غرب إفريقية أو في الصحراء إلا وجدنا فيها زاوية كوتية أو بكائية أو قادرية .

ومعنى ذلك أن الصوفية التي نشأت زهداً واعتكافاً عن الناس تحولت إلى صوفية عاملة ثم مجاهدة في العالم الإسلامي كله وصوفية مرابطة في بلاد السودان . فكل زوايا هذه الطرق رباطات للجهاد في سبيل نشر الإسلام ، وكما كانت الشاذلية والجزلتية والمشيشية والتيجانية تزحف من الشمال كانت الكوتية والبكائية وغيرها تزحفان من الجنوب حتى تم بفضل هذين التيارين تحويل وسط الصحراء الكبرى وغريبها إلى بلاد إسلام والشيخ ماء العينين الشلقمى ، وهو أكبر شيخ موريتانيا وأوليائها ينتسب إلى هذه الصوفية المرابطة . فقد كان في الأصل قادرية ولكنه يربط نفسه بالمرابطين ، وهو صوفي مجاهد مرابط بالسيف والقلم كما يقولون .

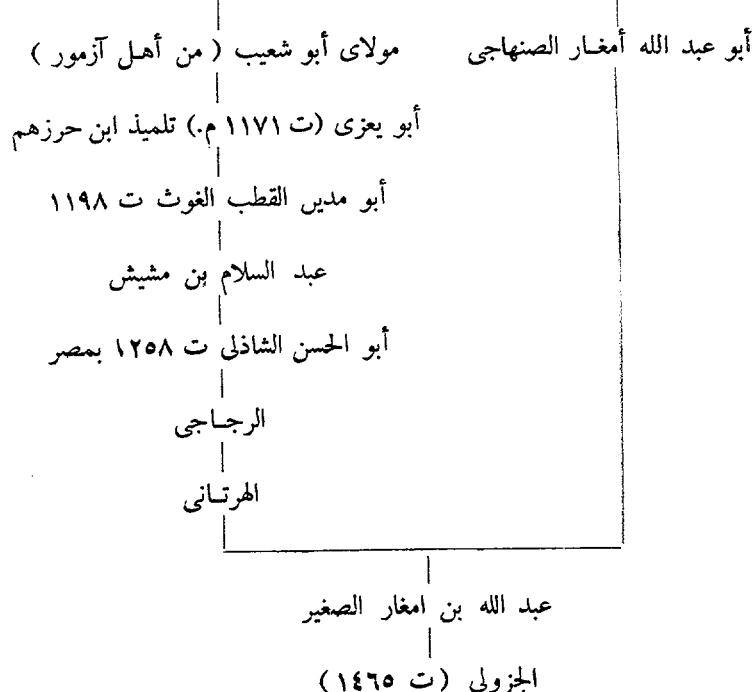
* * *

ويطول الأمر لو مضينا نتتبع تاريخ هذه الطرق الصوفية ما بين مجايدة ومرابطة وما كان لها من الأثر في نشر الإسلام في الصحراء الكبرى ، ولكننا نكتفي بـ نورد فيما يلى جدولين بأهم هذه الطرق نقلها عن بحث قيم نشره R. J. Jenkins في بحث له عن الطرق الصوفية في الغرب وبلاد السودان نشره في كتاب *Studies in west African Islamic History* الذي ذكرناه في تعليق سابق في مقالنا هذا .

الجنيد (ت ٩١٠ م.)



الدكالي



يمثل هذا الجدول تسلسل أهم مشيخات الصوفية المغربية عن شيوخ الصوفية في الشرق

جدول زمني بأهم
الطرق الصوفية في المغرب وبلاد السودان

الطريقة	موطنها ومؤسسها ومقر زاويتها الأم	شمال المغرب الأقصى وجنوبه وبلاد السودان	الغرب الأوسط	تونس ولبيبا
<u>القرن ١٥ م</u>				
العيساوية	مؤسسها أبو عيسى ت ١٥٣٣ قاعدتها مكناس			
الكتيبة القادرية	محمد الكتبني قاعدتها في الساقية الحمراء	جنوب المغرب الأقصى وبلاد السودان		
البكائية	وزواياها منتشرة في كل بلاد السودان	جنوب المغرب الأقصى		
<u>القرن ١٦ م</u>				
الكرزاوية	مؤسسها الكرزاوي وقاعدتها كرزاز	جنوب المغرب الأقصى		
الشيخية	مؤسسها سيدى الشيخ الأبيوضى ت ١٦١٨			
الناصرية	محمد الناصر ت ١٦١٦	قاعدتها في تمجروت جنوب المغرب الأقصى		
الوزانية	سيدى عبد الله الوزانى قاعدتها وزان			

تونس ولبيا	المغرب الأوسط	شمال المغرب الأقصى وجنوبيه وبلاد السودان	موطنها ومؤسسها ومقر زاويتها الأم	الطريقة
				<u>القرن ١٧ م</u>
	المغرب الأوسط		الشيخ محمد الحنظل ت ١٧٠٢ قاعدتها دادس	الحنظلية
	قاعدتها كنداسة جنوبي المغرب الأوسط		أبو زياد ت ١٧٣٣	الزياتية
	قاعدتها ايت اسماعيل في الحرجرة في الجزائر		التيجاني ت ١٧٨١ سيدي عبد الرحمن	التيجانية الرحمانية
				<u>القرن ١٨ م</u>
قاعدتها في الجغوب في مصر في ذلك الزمن (ت ١٨١٣) وهي الآن في ليبيا	قاعدتها في بورقيبة في المغرب الأوسط	العربي الدرقاوي أبو مدین شعیب محمد بن علي السنوسی	الدرقاوية الدينية السنوسية	
		الشيخ ماء العينين ت ١٨٩٠ في موريتانيا	قاعدتها في سمارة	العينينية

إلى هنا نقف بهذا البحث الذي طال . وكان بودنا أن نتحدث في إسهام عن السنوسية التي تعتبر من أكبر العوامل في نشر الإسلام في الصحراء الأفريقية كلها ، وزواياها تعد بالئات منتشرة في شبكة واسعة من مصر إلى بلاد الكانم والبرونوتشي الحالية . وهي نموذج عظيم للصوفية المجاهدة المرابطة . فان السنوسيين نشروا الإسلام في جزء كبير من الصحراء الكبرى ، ثم تصدوا للاحتلال الإيطالي وانضم إليهم كل أهل الصحراء وخاصة الطوارق . ولكن المعلومات عن السنوسية والمؤلفات في تاريخها الحافل كثيرة ، ولهذا نكتفي بهذه الاشارات إليها لاستكمال الكلام عن فضل الطرق الصوفية في تحويل الصحراء الكبرى وبلاط السودان إلى بلد إسلام .

د. حسين مؤنس

«من جديد حول التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية الإسلامية»

كنت قد أثرت في مقال سابق صدر منذ نحو ربع قرن^(١) موضوع التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية الإسلامية ، وعززت تلك التأثيرات إلى نزول أفواج متتابعة من المغاربة وأهل الأندلس في مصر وذلك منذ قيام الدولة الفاطمية ، وأرجعت انتشارها في المنشآت المصرية في العصرين الأيوبي والمملوكي إلى تزايد عدد الوافدين إلى مصر ، على الأخص في هذا العصر الأخير ، بازدياد نشاط حركة الاسترداد المسيحي في أعقاب هزيمة الموحدين في العقب سنة ٦٠٩ هـ. وببداية افراط عقد دولة الإسلام في الأندلس ، وما ترتب على ذلك من سقوط أهل قواعد الأندلس في أيدي القشتاليين والأرغونيين والبرتغاليين الأمر الذي أدى إلى هجرة السود الأعظم من سكان هذه المدن إما إلى القواعد الإسلامية الباقية في الأندلس التي ظلت تتلقى سيلاً متصلًا من هذه المigrations حتى سقوط مملكة غرناطة ، أو إلى أرض المغرب حيث نزلوا في حواضره المختلفة ودخلوا أهلها وشاركتهم في الصناعات والفنون والآداب^(٢) ،

(١) السيد عبد العزيز سالم ، بعض التأثيرات الأندلسية في المهارة المصرية الإسلامية ، مقال بمجلة «المجلة» العدد ١٢ ، ديسمبر ١٩٥٧ ، ص ٨٨ - ٩٩.

(٢) أشار ابن مرزوق في كتابه «المسنن الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن» إلى بعض الصناعات الأندلسية التي راجت في بلاد المغرب لتوافر البنائين والتجارين والجباين والولبيين والرخامين والقتوبيين والدهانيين والحمدانيين والصفاريين (انظر : Lévi-Provençal, *Un nouveau texte d'histoire mérinide; le Musnad d'Ibn Marzouk*, Hespéris, t. V, année 1925, p. 38. وانظر النص الأصلي للمسند ، تحقيق ماريا خيسوس بيفيرا و محمد بوعياد ، الجزائر ١٩٨١ ص ٤٤٨ ، وراجع الآخر الأندلسي في هذه الصنائع في : عبد العزيز بنعبد الله ، مظاهر الحضارة المغربية ، ج ٢ ١٩٥٨ ص ٩٣ - ٩٥ وفي الآخر الأندلسي بتونس راجع ابن خلدون ، المقدمة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٥٩ ص ٧١٧ و ٧٥٠ و ١٠٣٩ ، المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٦ ص ٢٧٩ - ٢٨٠).

أو إلى مصر^(١) القاهرة والاسكندرية حيث شاركوا أهلها بما لديهم من صنائع وأسهموا بنشاطهم في البناء الحضري المصري في عصر دولة المماليك . وكان لذلك الاتصال الوثيق بين هؤلاء الأندلسين النازحين إلى مصر وبين أهلها آثره الكبير في ظهور بصمات أولئك الأندلسين في جميع مناحي الحياة المصرية أدبية ومادية ، وأخذت التقاليد الأندلسية ترسخ في الفنون والصنائع وتتدخل مع التقاليد المحلية . وقد أوضحت في مقال طويل باللغة الإسبانية في طريقه للنشر^(٢) بعض مظاهر هذه التأثيرات الأندلسية في العمارة وفنون الزخرفة المصرية منذ العصر الفاطمي حتى نهاية عصر دولة المماليك الجراكسة ، ويتمثل في نظام المآذن ذات القاعدة المربعة ، وفي القبور التي تختلط فيها المقرنصات بال支柱 البارزة المصلبة ، وفي الأشكال المتعددة للعقود الأندلسية التي انتشرت في المنشآت المصرية وعمرت واجهات المساجد والمدارس والأضرحة ، والمآذن : كالعقود المجاورة لنصف الدائرة ، والعقود الفصصية ، والعقود متعددة الفصوص ، والعقود التي تتداخل فيها الخطوط المنحنيات Mixtilíneos ، والعقود المتشابكة entrelazados والمتقاطعة entrecruzados . وتمثل معظم هذه التأثيرات الأندلسية بحق في ضريح السيدة رقية الذي يعرف أيضاً بمسجد الأندلس^(٣) لكثره ما يزدان به من الزخارف والتنعيمات أندلسية الطابع .

ومن الغريب أن التأثيرات الأندلسية طفت أيضاً على النظام المعماري لأسوار الاسكندرية في العصر الأيوبي ، وهذا هو الجديد في موضوع التأثيرات . ولتوسيع ذلك تجدر الإشارة إلى أن مدينة الاسكندرية شهدت على الأخص

(١) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٦ ص ٢٨٠

Influencias del arte hispano musulmán sobre el arte islámico de Egipto, en «Cuadernos de la Alhambra» (el número próximo).

(٢) المقرنرى ، الموعظ والاعتبار في ذكر الخطوط والأثار ، طبعة القاهرة ١٢٧٠ م ، ج ٢ ص ٤٤٦ ، ٤٤٨ .

في العصر الفاطمي تطوراً عمرانياً واسع النطاق أدى إلى امتداد العمارة خارج نطاق سور الذي كان ابن طولون قد طوّق به المناطق المأهولة بالسكان في التغر السكندري في عهده ، على الأرجح عند زيارته له في شعبان سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٢ م.) ولم تثبت الاسكندرية أن اكتظت في العصر الفاطمي بالمشاتي الدينية والمدنية التي ينعكس في معظمها التأثير الأندلسي ؟ ومن الواضح أن هذا التأثير اقترب باستقرار جالية أندلسية بالتلغر السكندري ذكر من أبرز رجالاتها الشيخ أبو بكر محمد الطرطوشى الأندلسى الذى أسس مسجده عند باب البحر في سنة ٥١٦ هـ .^(١)

والقاضى مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد الجيد بن حديدى الذى نرجح أصله الأندلسى .^(٢)

ومن مظاهر هذا التأثير الجامع الشرقي المعروف بجامع العطارين أو جامع الجيوشى الذى جده أمير الجيوش بدر الجمال المستنصرى بالبناء فى سنة ٤٧٧ هـ (٩٣) واتخذ فى صحن روضة^(٤) على غرار مساجد الأندلس ، وفيها يقول التويرى : حوى روضة خضراء فى وسط صحنها فأصبح ذاك الروض ريان منزعا^(٥) ويعتبر جامع العطارين لذلك الجامع الوحيد فى الديار المصرية الذى اتخذت

(١) المقرىزى ، انتظام الحنف ، ج ٣ ، تحقيق الدكتور محمد حلمى أحمد ، ص ٩٢

(٢) لعله من أسرة قاضى طليطلة أَمْدَنْ بْنُ حَدِيدَى وأُسْرَتِه كَانَتْ مِنَ الْأَسْرَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَرْمُوَّةِ فِي طَلِيلَةِ ، وَقَدْ تَوَلى الْوِزَارَةِ فِي أَيَّامِ اسْمَاعِيلِ بْنِ ذِي الْنُونِ مُلَكِ طَلِيلَةِ ، وَقَدْ اتَّهَى أَمْرَ بْنُ حَدِيدَى الْمَذْكُورُ بِالْقُلُولِ عَلَى يَدِ الْقَادِرِ بْنِ الْمُحَمَّدِ يَحْيَى بْنِ ذِي الْنُونِ بِطَلِيلَةِ (٤٦٧ - ٤٧٢ هـ) وَلَعِلَّ بَقِيَّةَ أُسْرَتِه هَاجَرَتْ مِنْ طَلِيلَةِ بَعْدِ فَكِيَّتِهِ ، فَتَفَرَّقَ شَمْلُهَا ، وَقَدْ يَكُونُ بَعْضُهُمْ قدْ جَاءَ إِلَى الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْفَاطِمِيِّ . (راجع عن ابن حديدى : السيد عبد المزير سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، بيروت ١٩٦٢ ص ٤٠٣) .

(٣) طالع النقش التذكاري في اللوحة الأساسية المثبتة بأدنى المذنة والمنشور في *Repretoire chronologique d'Epigraphie arabe* , t. 7, p. 225.

(٤) التويرى السكندري ، مخطوطه الإمام بما جرت به الأحكام ، ص ١٦٣ ب

(٥) نفس المصدر .

بصحنه روضة ، ومن المعروف أن أول من أدخل نظام الرياض في صحون المساجد هو الأمير عبد الرحمن الداخل الذى عهد إلى عبد الله بن صعصعة بن سلام (ت ١٩٢ هـ) صاحب الصلاة بالمسجد بأن يغرس حصن المسجد بالأشجار ، ففعل واتبع أمراء الأندلس وخلفاؤها هذا التقليد بعد ذلك ، فطبق في بقية مساجد الأندلس .

ومن المعروف أن التقليد الأندلسية تفشت في فنون البناء والزخرفة وانتشرت انتشاراً واسعاً في الزخارف الجصية والحجرية التي تكسو بنيقات التربيعات الخبيطة بعقود المحاريب في أضرحة ومشاهد السيدة عاتكة والمعفرى والخصوصانى وأخوة يوسف والسيدة رقية ، وفي التوريقات والتلوشيات التي تزدان بها بعض نوافذ الجامع الحاكمي ، وواجهات المئذتين ، وتشبه نظائرها في الكسوات الخاطئة بقصور الزهراء ، وظهور هذه التوريقات كذلك في حدائق العقود بمسجد الصالح طلائع بن رزيك ، وفي عقود واجهة المسجد الأقر .

ولقد استلزم الأمر بعد أن فاض العمran السكندرى في العصر الفاطمى خارج نطاق الأسوار الطولونية التي لم تقو على إيقاف فيضه على الأخص من جهة الجنوب والشرق ، تطويق المناطق المستجدة خارج المدينة بسور يضمها ، أرجح أن يكون قد أنشأ في بداية سلطنة الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، الذى خصّ الاسكندرية بجانب كبير من اهتمامه وعناته^(١) ، فقد شرع في بناء هذا سور عند زيارته الأولى لهذه المدينة وهو بعد وزير لل الخليفة الفاطمى العاضد لدين الله (في ٢٣ شعبان سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م)^(٢) ، وأنته

(١) راجع تفاصيل ذلك في مقالى : « العمran السكندرى في عصر شمس الدين السخاوى » ، بحث ألقى في ندوة السخاوى التي نظمها المجلس الأعلى للثقافة في نوفمبر ١٩٨٠ بالقاهرة (تحت الطبع) .

(٢) أبو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين ، ج ٢ ص ٤٨٦ ؟ المقرىزى ، اتعاظ الحنف ،

عند زيارته الثانية للنغر في سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م)^(٣) ، أى أن أعمال البناء وعمارة سور استمرت ست سنوات . ثم زار صلاح الدين الاسكندرية في ٢٥ من شوال سنة ٥٧٧ ، فجئم عند السوارى وشاهد الأسور التي جدها وأسر بالإيمان والاهمام^(٤) . هذا وقد اعتمدت في ثبات هذا الرأى بالإضافة إلى النصوص التاريخية على أدلة أثرية قوامها التشابه الواضح في نوع الحجارة المسننة التي تظهر في أحد الأبراج المتبقية من سور الاسكندرية الشرقي (في حدائق الشلالات) من حجارة بعض أبراج قلعة الجبل ، وأحجار برج الظفر ، وأحجار سور الفسطاط وكلها من عصر صلاح الدين .

كان هذا سور الذي أنشأه حسب اعتقادى على يد صلاح الدين مزوداً بأسوار أمامية على النحو المعروف في أسوار إشبيلية وبطليوس زمن الموحدين ، فكان سور السكندرى مزدوجاً ؛ ينفتح في سور الأمامي باب واحد ، بينما ينفتح في ستارة الرئيسية ببابان . ونستدل على ذلك من الوصف الذي ساقه النويرى السكندرى لزيارة السلطان الأشرف شعبان للإسكندرية في سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م) ، وهو وصف يؤكد ذلك ، ويتمثل في قول النويرى أن السلطان خرج « من باب البحر الذى يلى البلد ، فتشر عليه مقابل دار العدل ودار الطراز دنائير كثيرة التقطفها الناس ، ثم سار من باب البحر الثانى ثم الثالث ، فشاهد البحر الملحق والمدينة بها من أكب الفرج » وقوله عند إشارته إلى دخول السلطان المدينة من خلال أبواب الباب الأخضر « ثم إنه دخل من الباب الأخضر وسار إلى أن اجتاز بضربي الشیخ الصالح الفقیہ العالم العلامۃ أبي بکر الطرطوشی ... فلما كان بعد صلاة الجمعة ركب وفتح له الباب الأول والثانی مما يلى البلد وسار به وزيره سيف الدين الأكز المتقدم ذكر ولايته بالاسكندرية بين سورين

(١) ابن كثير الدمشقى ، البداية والنهاية في التاريخ ، ج ١٢ ص ٢٩٦

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بنى أیوب ، ج ٢ ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٧ ص ١١٢

إلى أن أتى به دار الطراز»^(١) ونستنبط من هذا الوصف أن السلطان خرج من البابين الأول والثاني من جهة المدينة فألقى نفسه بين السورين ، ثم خرج من الباب الثالث فشاهد الميناء ، بمعنى أن الباب الواحد كان له ثلاثة بوابات . ويتبين ذلك أيضاً في وصف التويري السكندرى لأعمال التخريب التي قام بها القبارصة في الإسكندرية ، ومن جملتها أنهم أحرقوا الأبواب الثلاثة للباب الأخضر^(٢) . ويؤكد غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري نائب السلطنة بالإسكندرية وصاحب كتاب «زبدة كشف الملك وبيان الطرق والممالك» ازدواج سور السكندرى في قوله : «يشتمل على سورين محكين» قوله أن لكل باب من أبواب الإسكندرية ثلاثة أبواب من الحديد^(٣) .

ومن المعروف أن أسوار إشبيلية المرابطية أضيف إليها في عهد أبي العلاء إدريس المؤمن بن المنصور الموحدى أسواراً أمامية في سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢١ م)^(٤) ، وإن كانت الأسوار أمامية قد ظهرت لأول مرة في الأندلس في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن . (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ) ، وفي عهده زودت أسوار قلعة جابر بالأسوار أمامية ، كما شيد أسوار قصبة بطليوس ، ثم انتشر هذا النوع من الأسوار في الأندلس وطبقت في أسوار قصبة بطليوس ، وأسوار الجزيرة الخضراء وبسطة ولوشة ومالة وجيان وشريش . ومن الجدير بالذكر أن صلاح الدين كان معاصرًا للمنصور الموحدى وأنه اتصل به وكاتبه^(٥) .

(١) التويري ، مخطوطة الإمام ، نسخة دار الكتب المصرية ١٤١ ، ١٤٢

(٢) التويري ، نفس المصدر ، نسخة الهند لوحه ١٨٤

(٣) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري زبدة كشف الملك وبيان الطرق والممالك ، نشره بول رافيس ، باريس ١٨٩٤ ص ٣٩

(٤) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، طبعة نورنبرج ، أبساله ، ص ١٨١ — الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرinية ، تحقيق محمد بن أبي شنب ، الجزائر ، ١٩٢٠ ص ٥٨

(٥) سعد زغول عبد الحميد ، العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب المنصور بن يوسف ابن عبد المؤمن الموحدى ، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، المجلدان ٦ ، ٧ ، ١٩٥٣ ، ص ٨٤ - ١٠١ مختار العبادى ، البحريمة الإسلامية في مصر والشام في عصرى الأيوبيين والمماليك ، ص ٢٨٨ .

وفي عهد صلاح كثر تواجد المجاهدين المغاربة المترسّين في شؤون البحر^(١) للمشاركة في الجهاد ضد قوى الفرنج ، واستقرت بالإسكندرية طائفة كبيرة منهم ومن أهل الأندلس ، نذكر منهم على سبيل المثال :

اليسع بن حزم الغافقي الأندلسي الجياني (ت ٥٧٥ هـ)^(٢)

أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن محمد الداني (ت ٦٢٤ هـ)^(٣)

الفقيه أبو بكر محمد بن علي بن خلف الجياني (ت ٥٩٦ هـ)^(٤)

أبو علي الحسن بن محمد بن الحسن الأنصاري المرى المعروف بابن الريبيل

(ت ٥٨٥ هـ)^(٥)

أبو أحمد جعفر بن لب بن محمد اليحصبي الشاطبي (ت بعد ٥٩٠ هـ)^(٦)

أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الشاطبي البلنسي (توف بالاسكندرية في

٦١٤ هـ)^(٧)

أبو بكر محمد بن عبد الله بن أحمد بن العربي الإشبيلي (توف بالاسكندرية

في ٦١٧ هـ)^(٨)

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سليمان الأنصاري البلنسي (ت ٥٩٨ هـ)^(٩)

وغير هؤلاء كثيرون ، لا يتسع المجال لذكر أسمائهم . ولعل تدفق المغاربة

والأندلسيين على الاسكندرية واشتراكهم في أحديّها السياسية ونشاطها العلمي

(١) مختار العبادى ، المرجع السابق ، من ٢٧٧

(٢) السيوطي ، حسن المعاشرة ، طبعة مصر ١٣٢١ هـ ص ٢٣٦ - المقرى ، فتح الطيب

ج ٣ ص ١٤٠

(٣) المقرى ، ج ٣ ص ٢٦٢

(٤) نفسه ، ج ٢ ص ٢٦٤

(٥) نفسه ، ج ٣ ص ٢٦٦

(٦) نفسه ، ص ٢٦١

(٧) نفسه ، ج ٣ ص ٢٤٦

(٨) نفسه ، ج ٢ ص ٢٨٢

(٩) نفسه ، ص ٩

وفي الجماد أكابر^(١) الأثر في حمل صلاح الدين على إنشاء دار لهم بالإسكندرية ومارستان ومدرسة وحمام . وظل المغاربة والأندلسيون ينزلون الإسكندرية ويتحذونها دار رباط حتى نهاية عصر المماليك ، وقد لعبوا دوراً هاماً في الدفاع عن الإسكندرية في وقعة القبارصة لخبرتهم في القتال البحري ، وقد عرّفونم التويني بأنهم فرسان البحر لاعتراض ذلك^(٢) .

ولا تستبعد أن يكون من بين هؤلاء الأندلسيين العلماء أو المرابطين من كان يعمل بالبناء والزخرفة ويكتسب منها بالإضافة إلى اشتغاله بالعلم أو ايشاره للجهاد ، ومن هؤلاء أبو القاسم بن حاضر الجزائري الخزرجي (ت ٦٣٩ بالقاهرة) وكان عالماً بصناعة التويني^(٣) ، وهي الزخرفة البشامية التي كان يجيدها الأندلسيون . ولا تستبعد كذلك أن يكون جماعة من هؤلاء الوافدين الأندلسيين تركوا بصماتهم في الفنون الزخرفية والمعمارية بمصر الإسلامية ونقل بعضهم نظام الأسوار الأمامية وطبقه على أسوار الإسكندرية .

دكتور السيد عبد العزيز سالم

(١) التويني ، مخطوطة الإسلام ، ص ٢٧٧ ب وير التويني الاستثنى منهم قوله : « لأن الفرج ليس يقهرهم سوى المغاربة وذلك لخاتمتهم لهم بجزيرة الأندلس ، يعرفون طريق حرهم وطعنهم وضربهم في بر وبحر » (التويني ، ص ٢٧٧ ب)

(٢) التويني ، مخطوطة الإسلام ، ص ١١٦ ب

(٣) المقري ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٤١١

الأهوانى . . .

رائد الدراسات الأندلسية

- ١ -

كانت الدراسات الأندلسية في مصر والعالم العربي – قبل الأهوانى – دراسات اجتهدية ، سواء فيما يتصل بتحقيق النصوص أو ما يتعلق بالبحوث . وذلك لأن وسائل الدراسة المنهجية لم تكن قد توفرت بعد ؛ فلم تكن المادة المعينة على الدرس متوفرة ، ولم تكن الرؤية العلمية للدراسات الأندلسية واضحة . فالنصوص المنشورة لم تكن تعدو كتاب « فتح الطيب للمقرى » ، وكتابي « قلائد العقيان » و « مطمح الأنفس » لابن خاقان ، ويضاف إلى تلك الكتب الثلاثة ما يتصل بالأندلس من « تاريخ ابن خلدون » . وأما الرؤية العلمية فقد كانت مشوبة بكثير من العاطفية التي تتعلق بأساطير الفردوس المفقود ، ولا ترى من الأندلس إلا هذه الطبيعة الفاتنة التي عصفت بها ريح الصياع . ولذا كانت الدراسات المتصلة بالأندلس ينقصها كثيرون من المنهجية والوسائل العلمية والنظرية الموضوعية . وإذا استثنينا كتاب الدكتور أحمد ضيف « بلاغة العرب في الأندلس » فإننا لا نكاد نجد في المكتبة العربية – حتى الأربعينيات من هذا القرن – دراسة علمية أندلسية منهجية جادة . .

وشاء الله أن يصنع رائدا للدراسات الأندلسية ، وأن يكون هذا الرائد إنساناً جديرا فعلا بمسؤولية الريادة ؛ ففيه ذكاء ملحوظ ، وفيه إقبال وصبر على

العلم ، وفيه طموح و اختيار لما هو صعب ، وفيه سماحة و حب للعطاء ، وفيه زهد و صوفية من أجل الحقيقة ، وفيه أستاذية وأبوة يحملها تواضع كريم و حب غامر للناس والطلاب منهم بصفة خاصة .

وكانت بداية اتصال الأهوانى بالدراسات الأندرسية أيام أن كان طالبا في كلية الآداب بجامعة القاهرة . فقد درس شيئا عن الأندرس و تاريخها وأدبها في حدود ما كان يدرسه الطالب في تلك السنوات على أستاذة كبار ، ولكنهم كانوا مجتهدين فيها يتصل بالأندلس . وليس من شك أنه استمع أيضا إلى محاضرات الأستاذ لييف بروفنسال — المستشرق الفرنسي — الذي كان أستاذ زائر بكلية الآداب سنة ١٩٣٧ . وأغلبظن أن الأهوانى قدقرأ في فتح الطيب ونحوه من تلك الكتب المتصلة بالأندلسية وللمعروفة حينذاك .

وهذا كله قد جذب الفتى الواعد إلى الدراسات الأندرسية ، ولكن هذا الجذب كان حتى تلك السنوات مشوبا بالعاطفية والنظرة « الرمانية » التي كانت ترتبط بالأندلس عادة عند الدارسين العرب وعند الشباب منهم بصفة خاصة ..

ثم تخرج الأهوانى من كلية الآداب سنة ١٩٣٨ ، فألحقه الدكتور طه حسين بلجنة تحقيق كتاب « الذخيرة » لابن بسام . وهو الكتاب الذي كان قد أحضره الأستاذ لييف بروفنسال إلى مصر ، فاتفق معه الدكتور طه حسين على نشر الكتاب عن طريق لجنة من أستاذة كلية الآداب ومعهم الأستاذ لييف .. وقد عمل الأهوانى مع لجنة تحقيق « الذخيرة » نحو ست سنوات ، من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٤٥ ، وشارك في إخراج ثلاثة مجلدات من هذا الكتاب القيم ، وهي : مجلدان يمثلان القسم الأول من الذخيرة ، ثم مجلد من القسم الرابع منها .. ولا شك أن عمل الأهوانى في تحقيق هذا المرجع الأندرسى القيم قد فتح عينه على كثير من الحقائق ، وعدل نظرته إلى الدراسات الأندرسية تعديلا قربه من الأصول المنهجية . فبالإضافة إلى وقوفه على المادة التاريخية

والأدبية الغزيرة ، قد عرف أسرى بالغى الأهمية ، أولئما : أنه لا غنى للمشتغل بالأندلسيات عن الاتصال المباشر بالمراجع والمصادر التي لا يزال أكثرها مخطوطاً ، وثانيهما : أنه لا بد للمقدم على الدراسات الأندلسية من معرفة اللغة التي كانت تختلط العربية في الأندلس ، وهى اللغة المسماة « رماتي » التي هي إحدى عاميات اللاتينية ، فكثير من ألفاظ تلك اللغة يتخلل النصوص التاريخية والأدبية ، ولا سبيل إلى فهم تلك النصوص على وجهها إلا بمعرفة تلك اللغة ، وأن تلك اللغة قد تطورت إلى الإسبانية عن اللاتينية الأم ، فالطريق هو معرفة الإسبانية الحديثة واللاتينية القديمة ، هذا بالإضافة إلى ما تعين عليه الإسبانية من معرفة ما كتبه المستشرقون الإسبان عن الأندلس ، وهي كتابات كثيرة ومنوعة ورائدة ولا يمكن أن يغفلها دارس جاد .

وهكذا وجد الأهواى نفسه وعرف ذاته وادرك دوره واستبان طريقه ، فأقبل على الدراسات الأندلسية بنظرة موضوعية لا بروح « رمانسيه » وبطريقة علمية لا بمهارة اجتهادية . . وشرع يعد باكرة دراساته في الأندلسيات متفرداً بين كل أبناء جيله — بل بين أعضاء لجنة الذخيرة أنفسهم — بالشخص في هذا الحقل ؛ حيث انصرفوا جمِيعاً إلى ميادن أخرى وحققوا ألواناً شتى من النجاح ، ولكن بعيدين عن حقل الأندلس .

- ٢ -

اختار الأهواى موضوعاً لبحثه لنيل درجة الماجستير هو « الموشحات الأندلسية » . و اختيار هذا الموضوع اختياراً صعباً العسير من الموضوعات ، ولكنه — في الوقت نفسه — دليل روح الريادة والمغامرة العلمية التي طبع عليها الأهواى . فهو موضوع لا يمكن أن يعالج إلا بمعرفة النصوص المخطوطة من الموشحات الأندلسية ، ومعرفة اللغة « الرماتي » التي كانت تملأ خواتم

الموشحات ، والتي لا سبيل إلا حل ألفازها إلا بمعرفة إسبانية اليوم ولاتينية الأمس . كما أن هذا الموضوع لا يمكن أن يعالج إلا بعد الوقوف على ما كتبه المستشرقون الإسبان والفرنسيون والإنجليز وغيرهم ، عن المoshحات ونشأتها وتطورها ، وأصولها وأشكالها ، ولغتها وموسيقاهما ، وانتقالها وتأثيرها ، وخاصة في الشرق العربي والغرب الأوروبي ، وبصفة أخص في بعض الأشعار الفرنسية والأغانى الإسبانية .. وقد كان الأهوانى يستطيع أن يختار — موضوعاً لبحث الماجستير — شخصية شاعر أو ناشر ، متجنبًا كل هذه الصعاب التي فرضها عليه موضوع المoshحات ، ولكنـه آثر الصعب من منطلق الريادة .

وقد أتم بحثه للماجستير ، ونال درجته سنة ١٩٤٧ ، بعد أن حقق عملاً علمياً له صفة الريادة بكل المقاييس ، ومع ذلك لم يشاً الأهوانى أن ينشأ بحثه هذا رغم جدته وقيمة وريادته ؟ لأن الرجل كان ذا حساسية مفرطة فيما يتعلق بالكلمة المكتوبة ، وقد رأى أن موضوع المoshحات يقال فيه جديد كل عام ، وتكتشف له نصوص في أكثر من مكان ، ولا يمكن معه القطع برأى في بسر ، ولا يليق بعالم يحترم الحقيقة ويحترم نفسه ويحترم الكلمة أن يغامر بنشر بحث بادىٌ تلته بحوث شتى ، وخاصة بأقلام مستشرقين توفرت لهم نصوص أكثر .. ولذا آثر الرجل التريث ، وتجويد البحث وتعديل أفكاره ، بل رأى تركه كمرحلة من مراحل مسیرته العلمية ، حسبه منها أنه قد وصل إليها ليعبرها إلى غيرها ، وليس بلازم أن يقيم عندها معلماً تذكاريًا أو ينصب عمود نور باهر يلفت أنظار الآخرين .. وهنا ندرك ملهمًا آخر من شخصية الأهوانى ، وهو إشاره للحقيقة ، وتفضيله إياها على أى شيء ، حتى الإعلان عنها قدم في سبيلها ، أو البوح بها وصل إليه في طريقها .. على أن القليل الذي نشره الأهوانى عن المoshحات ، يدل على ما وصل إليه بعد هذا التريث من تمكّن

وتعمق في دراسة هذا الفن الشعري الأندلسى ، ومن ذلك القليل مقالة الذى نشره سنة ١٩٥٧ عن أصول الموسحات^(١) .

- ٣ -

ويزداد الأهواي إيماناً بالمنهجية في الدراسات الأندلسية ، فلا يكتفى بالاعتقاد في حتمية الاتصال بالنقوش الخطوطية ، ومعرفة الإسبانية واللاتينية ، وإنما يلح عليه إيمان جديد بوجوب معايشة البيئة الأندلسية التي أتاحت تلك الحضارة التي خلفها الأندلسيون ، وأصبح الأهواي يرى أنه لا بد من يتصدى للدراسات الأندلسية من السفر إلى إسبانيا — التي كانت الأندلس بالأمس — لكي يرى رأى العين طبيعة تلك البلاد ، ويتعرف على معالم التاريخ بها ، ومجالي الحياة فيها . ثم لكي يزداد اتصاله بالرافدين الأساسيين للدراسات الأندلسية ، وهما : الخطوطات واللغة الإسبانية .

وكان الأهواي قد اختار موضوعاً ليبحثه للدكتوراه هو «الأزجال الأندلسية» وهو موضوع أشد صعوبة من موضوع الموسحات ؛ لأن مادته المنشورة أقل ، ولأن لغة الأزجال على الباحث أشق . فلغة الموسحات فيما قبل الخواتيم عربية فصحى ، وإنما يأتي الاختلاط باللاتينية العامية — أو «رومانتى» في الخواتيم المسماة بالخرجات . أما الأزجال الأندلسية فلغتها في جملتها يختلط فيها ما هو عربي بما هو «رومانتى» ، وحتى العربي نفسه ، إنما جاء بعامية الأندلس التي انحرفت عن أوضاع العربية الفصحى ، وأخذت أشكالاً تحتاج في فهمها إلى صبر وتمرس وخبرة لغوية واجتماعية وتاريخية واسعة .. ومن هنا تتضح روح

(١) نشر الأهواي مقالة عن أصول الموسحات واعتمادها على أغانيات شعبية أندلسية في مجلة المجلة العدد الثاني سنة ١٩٥٧ .

الريادة والمحاورة عند الأهوانى بجلاء باهر ، فهو ما يزال يختار الأصعب والأشق ، وما يزال يضع نفسه أمام الصعاب والعقبات ليرتاد الطريق ويعبده للآخرين .

وسافر إلى إسبانيا سنة ١٩٤٧ ، مخالفًا بذلك ما كان متبعاً من اتجاه الدارسين المصريين إلى فرنسا أو إلى إنجلترا أو إلى ألمانيا ؛ لأن الرجل لم يكن يمضى على درب معبد ، وإنما كان يقتصر دربًا جديداً رأه يحتاج إلى تعبيده .

وفي إسبانيا أقام الأهوانى أربع سنوات ، مشتغلًا بقراءة كل ما ضمت مكتبة « الأسكوريال » والمكتبة القومية بمدريد من مخطوطات أندلسية وخاصة ما يتصل منها بموضوع رسالته . كما أحاط بما كتبه كبار المستشرقين من دراسات وما حققوه من نصوص تتصل بالأندلس . . ولكرثة ما تردد على مكتبة « الأسكوريال » أصبح معروفاً لدى العاملين بها بل أصبح — إلى سنوات — معلماً من معالمها ، فقد أقام مدة بتلك الصاحبة القريبة من مدريد ، ليتمكن من مواصلة العمل بالمكتبة ولا يضيع الوقت في التنقل بينها وبين مدريد كل يوم . وما لبث أن صار من خبراء المخطوطات الأندلسية ، لكرثة ما قرأ وعلق وصوب ونخص وجمع .

ومن خلال هذا كله جمع المادة المطلوبة لرسالته للدكتوراه ، وشرع يكتب رسالته على أساس من مادة موفورة وإحاطة شاملة ومعاشرة حية واتصال مباشر بالبيئة ، واسترجاع لما كان منعكساً على ما هو كائن أو متربساً فيه .

وأتم الأهوانى رسالته للدكتوراه ، ونوقشت في مصر سنة ١٩٥٣ ، بعد سنتين من عودته من إسبانيا ، ونال الرجل درجته بجداره ، وأكمل مرة أخرى رriadته في ميدان الدراسات الأندلسية ، فقد أضاف إلى عمله الأول في المoshفات عمله الثاني في الأزجال ، كما أعطى القدوة في التراث والتثبت والأناء ، حيث أمضى نحو ست سنوات في إعداد هذه الرسالة الثانية ، منها أربع في إسبانيا وستة في مصر .

وكاً تتمثل حساسيته العلمية واحترامه للكلمة المكتوبة في عدم نشره لرسالة الماجستير تتمثل كذلك في إرجاء نشره للدكتوراه ، فلم ينشر تلك الرسالة وإنما نشر فصولاً منها في شكل كتاب باسم «*الزجل في الأندلس*» ، وجاء هذا النشر بعد نحو أربع سنوات من مناقشة الرسالة^(١) ، وبعد أن ألقى الدكتور الأهوانى سلسلة من المحاضرات عن «*الزجل في الأندلس*» بمعهد الدراسات العربية العالمية ، التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة سنة ١٩٥٧ .

— ٤ —

وتكلمة لموضوع الأزجال قد عكف الأهوانى على تحقيق ديوان ابن قزمان ، وبذل فيه من الجهد ما يثير الإشفاق ، وتتوفر على تحرير نصه وتفسير غواصته ، ورد أصول كلاماته إلى جذورها اللاتينية أو العربية ، وتحديد موسيقى عروضه بتفاعلها الخليلية أو الشعبية ، واستمر صابراً على هذا العمل أكثر من ربع قرن ، دون أن يتسرع بنشره أو بنشر جزء منه . . . وأنباء ذلك أخرج المستشرق الإسباني الأستاذ جارثيا جوميث تحقيقاً لـ ديوان ابن قزمان مع ترجمة ودراسة^(٢) . ولم يزعج ذلك الأهوانى ولم يجعله يشعر بالنقد ، وإنما سعد بظهور ديوان ابن قزمان ، وراح ينشر في «مجلة المعهد المصرى» بمدريد تصويبات^(٣) رأى من الأمانة أن يقدمها لقراء نشرة الأستاذ جوميث . وقد كان الأستاذ جوميث يرد على

(١) نشر الأهوانى كتابه «*الزجل في الأندلس*» سنة ١٩٥٧ في سلسلة مطبوعات معهد الدراسات العربية العالمية .

(٢) نشر الأستاذ جوميث عملاً عن ابن قزمان في ثلاثة مجلدات سنة ١٩٧٢ بعنوان : *Todo Ben Quzman*

(٣) نشر الأهوانى تصويباته في ثلاثة مقالات ، الأولى في المجلد السابع عشر من مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد (١٩٧٢ - ١٩٧٣) من صفحة ١٨٣ إلى صفحة ٢٤٥ . والثانية في المجلد الثامن عشر من المجلة نفسها (١٩٧٤ - ١٩٧٥) من صفحة ١٧ إلى صفحة ٧٧ . والثالثة من المجلد التاسع عشر (١٩٧٦ - ١٩٧٧) من صفحة ٢١ إلى صفحة ٦٠

الدكتور الأهواي في مجلة الأندلس^(١) — مجلة المستشرقين الإسبان — بما يحقق حواراً علمياً خصباً بين عالمين جليلين رائدين من رواد الدراسات الأندرسية .. على أن ما كتبه الأهواي من تصويبات لنشرة الاستاذ جومت يُعد كذلك زيادة علمية في حقل الدراسات الأندرسية ، فمعظم تلك التصويبات تخرج للكتابات ردتها الأهواي إلى أصول «رومانية» على حين كان قد ردتها الاستاذ جومت إلى أصول عربية ، وصنف الأهواي يدل على دقته ومعرفته الجيدة باللاتينية والاسبانية ، وتأكيده لمن يريد أن يتصدى للدراسات الأندرسية أنه يجب عليه أن يأخذ بأدواتها الطبيعية التي في مقدمتها معرفة اللغة الأجنبية التي كانت تختلط العربية في الأندلس ، وهي اللغة «الرومانى» التي مفتاحها معرفة إسبانية اليوم ولاتينية الأمس .

وكما قلنا لم ينشر الأهواي ما أنجز من تحقيقه لديوان ابن قزان ، باستثناء تلك التصويبات التي نشرها في شكل ثلاث مقالات بمجلة «المهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد» .. ونرجو أن يتمكن تلاميذ الأهواي من نشر ما أنجزه من هذا التحقيق ، لأنه من غير شك إضافة رائدة لأعماله الجليلة في حقل الدراسات الأندرسية التي أخذت شكل المغامرة العظيمة التي تقتصر المخاطر في سبيل تعبيد الطريق للآتين من بعده .

— ٥ —

وانطلاقاً من النظرة الشاملة لدى الأهواي بالنسبة للدراسات الأندرسية ، فإنه رأى أن الأندلس يلتقي فيها ما هو فضيح بما هو شعبي ، كما التقى عليها

(١) نشر الاستاذ جومت رده في مقالات ثلاث ، الأولى في المجلد الثامن والتلاتين من مجلة الأندلس (١٩٧٣) الجزء الثاني ، من صفحة ٢٤٩ إلى صفحة ٣١٨ ، والثانية في المجلد الحادي والأربعين من المجلة نفسها (١٩٧٦) الجزء الثاني ، من صفحة ٢٤١ إلى صفحة ٣٣٨ . والثالثة في المجلد الثالث والأربعين (١٩٧٨) الجزء الثاني من صفحة ٢٤٥ إلى صفحة ٣٠٢ .

ما هو أعمى بما هو عربي . فكما اهتم باللغة « الروماتي » اهتممه باللغة العربية ، اهتم كذلك باللغة الملحونة اهتممه باللغة الفصحي . فنشر دراسة بعنوان « ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام في لحن العامة^(١) » وقد أوضح الأهوانى في هذا الدراسة جانباً هاماً من الحياة اللغوية الشعبية لدى الأنجلوسيّن ، وأمّا اللشام عن كثير من الألفاظ المستعملة بينهم ، راداً إليها إما إلى أساسها الأعمى أو إلى أصلها العربي ، بعد أن طرأ عليها تطور يجعلها تختلف في مدلولها نظائرها في الاستعمال المشرقي .

ومن المنطلق نفسه نشر الأهوانى دراسة عن « أمثال العامة في الأنجلوسيّن^(٢) » ، وقد عنى في هذه الدراسة بالأمثال العامية الملحونة ، واهتم بصفة خاصة بنموذج ممتاز من مجموعات هذه الأمثال وهو الفصل الخاص بأمثال العامة من كتاب ابن عاصم الغرناطي ، المسمى « حدائق الأزاهير » . كما نشر في القسم الثاني من هذه الدراسة مجموعة أمثال ابن هشام الخمي عن كتاب « تقويم اللسان » . ومن أروع ما في هذه الدراسة الإبانة الكاشفة عن تأثير الأمثال العربية في الأمثال الإسبانية ، حيث قارن الأهوانى بين أمثال الغرناطي وأمثال إسباني معاصر له هو « المركيز دي سنتلانا » وأوضح أن كثيراً من الأمثال الإسبانية تكاد تكون ترجمة حرفية للأمثال العربية .

وهذا الجانب من دراسات الأهوانى واضح الريادة أيضاً ، فقد وجه أنظار الدارسين اللغويين إلى مجال جديد هو مجال اللغة العربية في الأنجلوسيّن ، وما طرأ عليها من تطور وما أصابها من تغير يجعلها تختلف — في كثير من المظاهر — أختها في المشرق . كما وجه أنظار المهتمين بالأمثال والأدب الشعبي عموماً إلى

(١) نشر الأهوانى هذه الدراسة في مجلة معهد المخطوطات العربية — المجلد الأول — الجزء الأول — مايو سنة ١٩٥٥ ، من صفحة ٩١ إلى صفحة ١٢٠ — والجزء الثاني — نوفمبر سنة ١٩٥٥ من صفحة ٢٥٢ إلى صفحة ٢٧١

(٢) نشر الأهوانى هذا البحث في الكتاب التذكاري الذي أهدي إلى طه حسين بمناسبة عيد ميلاده السبعين . (دار المعارف — القاهرة سنة ١٩٦٢) من صفحة ٢٣٥ إلى ٣٦٨ .

هذا النتاج الأندلسي الأصيل . وأخيراً وجه أنظار أصحاب الدراسات المقارنة إلى ما كان من تأثير تلك الأمثال الأندلسية في التراث الإسباني ، كما حدث من تأثر « دى سنتلانا » بالغرنطى . وقد تعدد من تابعوا مسيرة الأهوانى في الكشف عن الحياة اللغوية للأندلسين ، كما تعدد من تأسوا خطاه في دراسة الأمثال الأندلسية ، ولم يقتصر الأمر على باحثين مشرقيين بل تعداهم إلى مغاربة ومستشرقين^(١) .

وهكذا أكد الأهوانى رياضته من جديد ، وفي ميدان لا يقل أهمية عن ميدان الموسحات والأزجال ، وهو ميدان اللغة والأمثال .

- ٦ -

وعلى الرغم من أن ميدان تحقيق النصوص الخطوطية ميدان ليس بالجديد ، قد كانت للأهوانى فيه رياضة أيضاً لا يمكن أن تغفل . فهو قد أقبل على تحقيق عدد من النصوص القيمة ، وكانت الريادة في اختيارها وفي منهج إخراجها . فهو لم يكتفى باختيار نصوص أندلسية كيما اتفق ، وإنما اختار من بين النصوص ما يفتح ميادين جديدة للمعرفة ، ويقدم زاداً خصباً للدراسة ، بل ما يغير كثيراً من المسلمات المحتاجة إلى تصويب .. وكان منهجه لا يقف عند ضبط النص وتحريره ، وإنما كان يتتجاوز ذلك إلى عمل دراسة شاملة ومقارنة عن الفرع الذي ينتمي إليه هذا النص ، وبيان كيف نشأ وتطور ، وإبراز أهم الماذج التي تمثله أو تقاربـه .

ومن أهم تحقیقات الأهوانى تحقيقه لنص « برنامج ابن أبي الربيع » فقد قدم لتحقيق هذا النص بدراسة عن « كتب برامج العلماء في الأندلس »

(١) من الباحثين المغاربة الذين اهتموا بالعافية الأندلسية بعد الأهوانى الدكتور عبد العزيز مطر . ومن الباحثين المغاربة الذين اهتموا بالأمثال الأندلسية الدكتور ابن شريفة . ومن المستشرقين الذين اهتموا بالأمثال الأندلسية كذلك ، المستشرق الإسباني فرناندو دى لاجونخا .

موضحاً فيها كيف استخدم الأندلسيون لفظ برنامج مرادفاً للفظ فهرسة ، ومبيناً كيف كان البرنامج سجلاً يكشف عن المذايق الثقافية التي غدت العالم ، كما يوضح في الوقت نفسه المناخ الفكري للبيئة ، وعن طريقه يعرف الأصيل والوافد والمحلي والمحلوب ، فهو من أهم الوسائل للتعرف على الحياة العلمية والثقافية بالنسبة للأفراد والبيئات على السواء . . ويعرف الأهوانى في تلك الدراسة بطرائق أصحاب البرامج في التبوييب ، ويدرك كثيراً من الخطوطات ، ويلفت النظر بطريقته الرائدة إلى هذا المجال من مجالات الدراسة ، وهو مجال «برامج العلماء» . . ويهتم بريادة الأهوانى غير واحد من الدارسين من عرب ومستشرقين ، فيهتمون بموضوع البرامج ومناهج العلماء فيها^(١) .

ومن أهم تحقیقات الأهوانى كذلك تحقيقه الذي أخرجه باسم «نصوص عن الأندلس من جغرافية العذري» وفي هذا التحقيق قد أضاف الأهوانى من المواصلات والتعمیقات ما يقارب النص الأصلي . كما حقق كثيراً من الأسماء والأماكن والأحداث ، مضيفاً بذلك إضافات علمية قيمة ، جعلت النص — بعد تحقيق الأهوانى له — مهوى لكثير من الدارسين والمتربصين والمقتبسين^(٢) . وتتجلى ريادة الأهوانى في تحقيق هذا النص ، حيث يؤكّد بعمله أن التحقيق والنشر ليس إعادة طبع أو توثيق أصل أو شرح مكتوب ، وإنما هو شيء فوق ذلك كله ، أشبه ما يكون بخلق عمل جديد ، فيه كل ثقافة الحق وتجربته وشخصيته ورؤيته ، وفيه قبل ذلك كشفه عن المسار المضى الذى يمكن أن يهدى إليه مثل هذا العمل الحق .

(١) من الباحثين العرب الذين اهتموا بموضوع برامج العلماء — بعد الأهوانى — الباحث التونسي ابراهيم شيوخ ، ومن المستشرقين ، المستشرق الإسباني خوسه فورنياس .

(٢) من الذين اهتموا بتحقيق الأهوانى لهذا الكتاب وأفادوا منه المستشرقان الإسبانيان سيكتور لوبيانا وفرناندو دى لاجرانخا .

- ٧ -

على أن رياضة الاهواني في ميدان الدراسات الاندلسية لم يقف عند الإنتاج العلمي وحده ، وإنما تجاوز ذلك إلى مجالات أخرى . ومن أهم هذه المجالات مشاركته الفعالة في تأسيس « المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد » . فأثناء وجود الاهواني في إسبانيا رأى الدكتور طه حسين — ولعله كان معيجًا بتجربة الاهواني — أنه لابد لدارس الاندلسيات من الإقامة فترة في أرض الاندلس ، والتعرف على معلم هذه البلاد ، والاتصال ببرامجها وخطوطها والاحتكاك بالعلماء فيها . واستقر رأيه — مع الاستاذ جارثيا جومث — على فتح معهد مصرى في مدريد ، يكون مقراً للدراسات الاندلسية ، ومركزًا للدارسين المصريين الذين سيصنعون صنيع الاهواني . . واستعان الدكتور طه حسين بعد العزيز الاهواني لكي يمهد لافتتاح هذا المعهد ، كما استعان بالأستاذ جومث لكي ييسر ما يكون من صعوبات لدى الجانب الإسباني الرسمى . . وقد بذل الاهواني جهوداً كبيرة لكي يحصل على قصر ، واستأجر منزلًا أنيقاً في حي من أرق أحياء العاصمة الإسبانية^(١) ، وشارك في تأثيث هذا المقر بالاثاث اللائق ، ثم أسهم في إعداد حفل الافتتاح الذي تم^(٢) بحضور الدكتور طه حسين وكبار المسؤولين والمفكرين والمستشارين الإسبان . . واستقبل الاهواني بالمعهد أول مجموعة من الشبان المصريين الذين اختيروا لكي يتخصصوا في الدراسات الاندلسية^(٣) ، وكان هؤلاء نعم الرائد والوجه بل نعم المثل والقدوة . وكان الاهواني قد اختير وكيلًا للمعهد المصري — على الرغم من أنه

(١) كان ذلك المبنى في شارع Matías Montero بمدريد .

(٢) كان افتتاح المعهد في يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩٥٠ .

(٣) هؤلاء هم — حسب الترتيب الأبجدي — أحمد لطفي عبد البديع ، وأحمد مختار العبادي ، وأحمد هيكل ، وجود عبد الرحمن هلال ، وعليه العناني ومصطفى غازى .

كان لا يزال يجمع المادة العلمية لرسالة الدكتوراه — وكان مقدراً للمسئولية بكل الامانة والإخلاص والالتزام . فكان لا يبني عن توجيهه مجموعة المبعوثين إلى ما يضمن لهم النجاح ، من تعلم اللغة الإسبانية ، إلى تردد على المكتبات وخاصة مكتبة الاسكوريا ، إلى ارتباط بجامعة مدريد حيث الأساتذة المتخصصون ، إلى التقاء بالاستاذ جارثيا جوميث الذي سيشرف على الرسائل ويوجه الدراسة .. وبهذا أكَد الأهواي رياتته من جانب آخر ، وهو جانب المساهمة في إعداد جيل جديد من المتخصصين في الدراسات الاندلسية ، يمكن أن تكون منهم — وفي مقدمتهم الأهواي — أول مدرسة لهذه الدراسات في مصر .

ولا يمكن أن ينسى في مجال الحديث عن جهود الأهواي في معهد مدريد ، دوره العظيم في تكوين مكتبة المعهد ، التي تعد الآت من أغنى المكتبات العلمية في العاصمة الإسبانية بل في أوروبا كلها ، وخاصة بالنسبة لما تحويه من مراجع عربية ومصادر أساسية في الثقافة الإسلامية .. كذلك لا يمكن أن ينسى دور الأهواي في إنشاء مطبعة المعهد ، التي ظلت نحو ثلث قرن وهي توشك أن تكون المطبعة العربية الوحيدة في العاصمة الإسبانية ، والتي كان لها الفضل في إخراج مجلة المعهد ومطبوعاته العديدة على مدار هذه الحقبة الطويلة .. وأخيراً لا ينسى للأهواي فضلُه في إخراج مجلة المعهد ، فقد خطط لهذه المجلة وحرر فيها وعمل على أن تأخذ مكانها كواحدة من كبرى المجلات العلمية في الدراسات الاندلسية .. وبعد أن عاد الأهواي إلى مصر ، وترك منصبه كوكيل المعهد ، ليقوم بالتدريس في جامعة القاهرة ، لم ينقطع صلة بهذا المعهد وبمجلته ، بل ظل اسمه من أبرز الأسماء التي تناولت على صفحاتها ، كما ظلت بحوثه من أرفع البحوث التي تعزى إليها .

- ٨ -

ولم تقف رياضة الاهواني عند ما كان له من بحوث ودراسات ، ولا عند إسهامه في تأسيس المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريid ، ولا عند رعايته لاعضاء البعثة المصرية الأولى إلى إسبانيا ، بل امتدت تلك الريادة إلى كل من اتصل بالاهواني في مصر وفي غير مصر من طالبي المعرفة . فقد عُرف دائمًا كصاحب مدرسة علمية مفتوحة . وكان بيته مقر هذه المدرسة ، حيث ينفي إليه من يريد من الطلاب العرب والأجانب ، هذا يسأل عن مخطوط ، وذلك يستفسر عن موضوع ، والكل يجد الساحة والعطاء والاستاذية . ولا نكاد نعرف مشتغلًا بالدراسات الاندلسية منذ الخمسينيات إلى الثمانينيات — من عرب أو غير عرب — إلا اتصل بالأهواني نوعاً من الصلة ، إما بالالتفاء به في منزلة ، أو — على الأقل — بالمراسلة بينه وبينه .. هكذا كان الاهواني دائمًا في القاهرة .. وحين عمل فترة مستشاراً ثقافياً بالمغرب كان بيته كذلك مهوى الباحثين والدارسين من عرب ومستشرين ..

إذا ما تركنا البيت إلى الجامعة وجدنا الاستاذية الحقة والريادة الرسمية الصحيحة . فقد علم عشرات التلاميذ التوابه ، وراد كثيرين في ميدان الدراسات الاندلسية من معظم البلاد العربية .. وكان جل اهتمامه أن يصنع مدرسة قوية تقوم على الجدية والمنهجية وتقف على قدم المساواة إلى جانب المدارس العلمية الغربية المستقرة ذات الطابع العالمي والسمعة الدولية الرفيعة .

وقد نجح الاهواني إلى حد كبير في رriadته للدراسات الاندلسية على مستوى مصر والعالم العربي ، بل تجاوز ذلك إلى بعض المجالات لدى المستشرين الاربيين . ويمكن أن يقر له بالاستاذية والفضل عدد غير قليل من المتخصصين في الأندلسيات من أبناء الأمة العربية على اتساع رقعة العالم العربي ، كما يقر

له بالتوجيه والارشاد والفضل أيضاً عدد آخر من المتخصصين في الأندلسية من أبناء الغرب المنصفين .

وربما كان أهم من ذلك كله أنه بعد ما حقق الأهواي من منجزات علمية في ميدان الأندلسية ، أصبح من المقررات المؤصلة الثابتة أن الدراسات الأندلسية ليست هوادة قوامها العاطفة الرومانسية المتعلقة بالفردوس المفقود ، وليس الحديث عن أدب الأندلس حديثاً إنشائياً يكتفى فيه بالكلام عن النسيم والزهور والفران والنافورات والموسيقى والغناء ومجالس الأنس و « زمان الوصل بالأندلس » . وإنما هو علم جاد يحتاج إلى معرفة واسعة ، وصبر وتضحية ، واتصال مباشر بالأصول المخطوططة والدراسات المطبوعة بالعربية وغير العربية . كما أنه يحتاج إلى معايشة على الطبيعة للأندلس ، وخبرة بلغة القوم اليوم والأمس ، وإلمام بأصول تلك اللغة اللاتينية التي صارت « رومانية » ثم إسبانية . كل ذلك مع نظرة شاملة تضم ما هو رسمي إلى ما هو شعبي ، وتدرك مواطن اختلاط ما هو عربي بما هو إسباني . لأن الأندلس هكذا كانت ، ولا يمكن أن تدرس على وجهها الصحيح إلا إذا درست كـا كانت ، بما فيها من ثنائية عنصرية ، وازدواجية لغوية ، ومعالم رسمية وشعبية .

رحم الله الأهواي . وأسكنه فسيح جناته ، جزاء ما قدم للعلم والحضارة من خير لا يقدمه إلا الرؤاد الباقون والمعلمون الخالدون^(١) ؟

د. أحمد هيكل

(١) نزيل من المعرفة بدور الأهواي وأثره في إحياء التراث الأندلسي ، يقرأ ما كتبه الدكتور محمود على مكي في مجلة « فصول » الجلد الأول — العدد الأول — أكتوبر سنة ١٩٨٠ بعنوان « عبد العزيز الأهواي والتراث » من ٣٠٧ — ٣٢١

كتب جديدة

دكتور محمد عبد الحميد عيسى

مدرس التاريخ الأندلسى بكلية التربية
جامعة عين شمس - القاهرة

أحاول - في هذه المقالة البتسرة - أن أقدم للقارئ العربي عامة ولقراء مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية خاصة ، بعض الكتب والدراسات التي صدرت مؤخراً منذ صدور العدد الأخير من المجلة ولا يعني هذا الالام بكل ما صدر في مجال الدراسات الأندلسية أو أنها نعرض لأنهم ما صدر منها .

أعرض فقط بعض ما كان ميسراً عند إعداد هذا العرض ، ومع علمي بصدور عشرات الكتب والدراسات الجديدة ، إلا أن الظروف والوقت لم يسمح لي بأكثـر مما قدمت تاركاً الفرصة لبعض المجالات المتخصصة الأخرى استكمال هذا النقص .

وانطلاقاً من المبدأ الذى اتخذه لنفسى منذ بداية تقديمى هذه الكتب على صفحات هذه المجلة أو مجلة أوراق فإنى أعرض للخطوط العامة والنقاط الرئيسية التى يتناولها الكتاب ، الخوض في مجال العرض النقدى متىحاً بذلك الفرصة للتعرف على الكتاب ، وتقديمه لمن يريد أن يقدم له عرضاً نقدياً أو من يرغب في الاستفادة منه علمياً .

أما الترجمات العربية إلى الإسبانية ، فإننى ركزت على الدراسات المرفقة بها أو المقدمة ، لأنها هي التى تتضمن الجديد ورأى المترجمين ، أما النص فهو معروف في لغته العربية .

ولا يخضع ترتيب هذه الكتب في العرض لأى معيار تفضيلي أو زمني .
لأننى ، كما قلت ، لا أقدم عرضاً نقدياً لأى من الكتب التي أتناولها .

القنطرة

مجلة جديدة للدراسات العربية والإسلامية في إسبانيا
يصدرها معهد ميجيل أسين بلاسيوس
بالمجلس الأعلى للأبحاث العلمية

منذ عام ١٩٧٧ توقفت مجلة الأندلس عن الصدور ، وترك هذا الخبر أثراً عميقاً في نفوس الباحثين في الحضارة الأندلسية في كافة أنحاء العالم ، لما كان لهذه المجلة من مكانة عالية واحترام كبير .

و جاء عام ١٩٧٨ ليحمل إلى العالم بشرى ظهور مجلة جديدة ، أصدرها المعهد الإسباني العربي للثقافة في مدريد «أوراق» وتضيف مجالاً جديداً لعشاق الحضارة العربية الإسلامية لنشر آرائهم ومناقشة أفكارهم . وحملت صفحات مجلة المعهد المصري في مدريد ، في عددها التاسع عشر مهمة تقديم هذه المجلة الجديدة ، إلى قراء العربية ، والترحيب بها كحقيقة ومساعدة في مجال الدراسات العربية والإسلامية .

وعلى صفحات هذا العدد ، فإن مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، وهي تشعر بمسؤولياتها كرائدة في مجال الدراسات الأندلسية ، وأنها تحتل مكانة الشقيقة الكبرى بين مجالات الدراسات العربية والإسلامية يسرها أن ترحب بتلك المجلة الجديدة — القنطرة — والتي استمدت اسمها من كونها صلة بينحضارتين الإسبانية والعربية ، وتنتمي لها الازدهار والاستمرارية .

والقنطرة ، استمرار للأندلس المتوقفة ، وتصدرها نفس المؤسسة ، ويكتب بها نفس الكتاب ، مع بعض التغيير ، وتتخذ تقريباً نفس الشكل والتقسيم ، محاولة بذلك الحفاظ على ذلك الطابع التقليدي المعروف عن مدرسة الدراسات العربية في مدريد ، أو المعهد الذي يحمل اسم العالم الإسباني الكبير ميجيل أسين .

ومن الناحية الدراسية ، فإن «القنطرة» تنقسم إلى قسمين رئисين أولهما ، المقالات المتنوعة ، والثاني الخاص بالدراسات الأركيولوجية .

ويضاف إلى ذلك بيان يتناولان المnoاعات من عرض الكتب أو المجالات أو التعليقات القصيرة .

مدرسة الدراسات العربية بغرناطة في

عيدها الذهبي

كتالوج لما عرض بقاعة المدرسة بمناسبة مرور خمسين عاماً

١٩٣٢ - ١٩٨٢ م.

نشر : إدارة قصر الحمراء ، والمتحف الإسباني العربي للثقافة

تحتفل مدرسة الدراسات العربية في غرناطة - احدى القلاع الإسبانية الرئيسية للدراسات العربية والإسلامية - بمرور خمسين عاماً على إنشائها في عام ١٩٣٢ . وفي هذه الذكرى الكبيرة قام الأستاذة الباحثون بالمدرسة بإعداد معرض عام لها تضمنه مكتبة المدرسة من ذخائير ، وما تحتويه من مخطوطات . هادفين - كما تقول المقدمة إلى إبراز العناصر التالية :

١ - احاطة الباحثين علمًا بالمخطوطات العربية المحفوظة بالمدرسة ، وكذلك المحفوظة بكلية الساساكرامونتي بغرناطة Abad de Sacramonte مع أساس أنها المادة الأساسية لعظم الأبحاث الجارية بغرناطة . وعددها ٤١ مخطوطة .

ومن هذه المخطوطات :

- أبو الوليد بن رشد : كتاب الكليات ، ١٢٥ ورقة بخط مغربي .

- أبو بكر محمد بن عزيز السجستاني : تفسير غريب القرآن ، ٤٦ ورقة ، خط مغربي .

- زكريا بن محمد الفزويني : كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، ٢٠ صفحة ، خط شرق .

- أبو جعفر أحمد بن مغيث : المقعن ، ١٠١ ورقة ، خط مغربي .

- ناج الدين بهرام بن عبد الله الدميري : شرح مختصر خليل ، ٢٦٠ ورقة ، خط مغربي .

- أبو نصر اسماعيل بن أحمد الجوهري : الأول من كتاب ناج اللغة وصحاح العربية ، ٥٠٠ ورقة ، خط مغربي .

٢ - تجميع الجهد الذي بذلتها أستاذية اللغة العربية بجامعة غرناطة قبل تأسيس المدرسة ، والتي أمكن الحصول عليها للعرض ، على أساس أن جهود هذه الأستاذية هي الأساس الصلب للجهود التالية عليها . وفي هذا المجال يشار إلى الجهد الذي سبقت تأسيس المدرسة ومنها :

مركز الدراسات التاريخية الغرناطية وملكتها ، والذى أنشئ سنة ١٩١١ وظل قائماً حتى عام ١٩٢٥ وأداره حينذاك عميد كلية الآداب والفلسفة ، المستشرق الكبير جاسبار راميروا ، وفي عام ١٩١٩ نضجت فكرة تأسيس معهد متخصص ، وطرح هذه الفكرة تحت اسم «مدرسة الدراسات الافريقية» ولم يصل الأمر إلى مرحلة التأسيس لرفض السلطات في مدريد .

وتحتاج لما تتمتع به غرناطة من مكانة خاصة ، حاول الباحثون توجيهها بمعهد علمي - لم يصل إلى مرحلة التنفيذ - كان سيسمى «معهد الدراسات العربية ، والاستعارية» . وكان مقرراً له أن يشغل المبنى الأخرى العربي القائم في غرناطة والذي يطلق عليه «مخزن الفحم» وكان فندقاً عريبياً غرناطياً بجوار مسجدها الجامع . ووصل الأمر بعد ذلك في أولى أعوام الثلاثين إلى تأسيس مدرسة الدراسات العربية بغرناطة ، حيث احتلت قصراً موريسيكياً رائعاً بالقرب من الماء ، وتولى إدارتها لأول مرة المستشرق الكبير إميليو غارثيا غوميث .

٣ - تجميع مؤلفات ومقالات الدكتور إميليو غارثيا غوميث ، أول مدير للمدرسة .

٤ - تجميع - إذا كان ممكناً - كل الدراسات المتعلقة بالعالم العربي والإسلامي والتي تقدر بأنها تزيد على ٥٠٠ دراسة قام بها الباحثون والدارسون المرتبطة بهذه المدرسة .

ويضم الكatalog أسماء الكتب والمجلات التي نشير إلى أعدادها فيما يلى :

المخطوطات : ٢١ مخطوطة من دير الساكارامونتي بغرناطة .

٢٠ مخطوطة بمدرسة الدراسات العربية بغرناطة .

الدراسات : ٦٢ دراسة ومؤلف قبل تأسيس المدرسة .

١٤٩ دراسة لamilio Garthia Gomis .

٢١٤ دراسة ليوبولد تورديس بالباس .
٥٣١ مختلف الأساتذة والباحثين بعد ذلك .

وتهدف احتفالات المدرسة بهذه الذكرى إلى لفت الانظار إلى أهمية مدرسة الدراسات العربية بفرنطة والدور الرئيسي الذى تقوم به في وسط ظروف صعبة من النسيان وقلة المعونة ، راجية المسؤولين والمهتمين بالدراسات العربية والإسلامية ، الاهتمام بالمدرسة ، وترويدها بالكتب والأفراد والمعدات المناسبة ، حتى يمكن لها الاستمرار في رسالتها .

والمعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، وهو يحيى هذه المناسبة ، بنشر هذا التعليق ، فإنه يشيد بالدور الهائل والخالد لمدرسة الدراسات العربية في فرنطة ، ويحيى جهود الأساتذة والباحثين والعلماء بالمدرسة في هذه المناسبة الكبرى ، ويضم صوته إلى جانب المدرسة ، منادياً الجهات المسؤولة في إسبانيا والعالم العربي والإسلامي ، لمزيد العون والاهتمام بهذه المؤسسة الثقافية العربية .

تعبيرات شعرية «الأثر»

في خطوات مقدمة للأطفال والشقراء

تأليف : فرانثيسكو أوتري ساردا

هيسبياليس : مدرس ١٩٨٢

فرانثيسكو أوتري ساردا ، دبلوماسي إسباني له سمعته ومكانته بين المفكرين العرب العالميين في مجال الدراسات الإسبانية والأندلسية ، أو الذين أتيح لهم زيارة المعهد الإسباني العربي للثقافة حيث يعمل مديرًا للمعهد منذ مدة طويلة ، وشغل منصب سكرتيره العام منذ سنة ١٩٥٤ .

وديوان «الأثر» ، صدر في طبعة أنيقة ، على ورق أصفر ومن بين رسوم صغيرة باللون الوردي ، حيث تحتل الصورة أحياناً مكانة الأبيات ، لتعطى مع شخصياتها التاريخية ، ورسومها التعبيرية لوحة متكاملة مع العمل الشعري يجعلك تمتلك الزمان والمكان والعبرة والتاريخ في نفس اللحظة .

ولكثرة الاشعار في الديوان ، وكذلك الشخصيات ، أقدم لك — أيها القارئ الكريم — بعض فقرات هذا الديوان الذي يبدأ بلوحة للبطل العربي «زهير» ممتطياً جواده ، مقتطفاً حرفيه يلقمها ثعباناً رهيباً وهو رابط المأس ، ساكن النفس ، غير هياب ولا وجع . لوحة أخرى للجلاح وثلاثة لأحلام أبي فراس الجداوي ورابعة للمنبي ، وأبيات شعر تقول :

أى عزاء تجند ... يا نديم
في الثمرة أو العشق ... حين
نفتقد الآباء والمعظماء

أريد من ذمي دا أن يبلغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن
و مجال الأبيات الإسبانية — المقتضى في الترجمة — يمكن في استعمال الشاعر للكلمة «نديم» داخل أبياته الإسبانية .

وتفضي لوحة أخرى لابن حزم الأندلسى . راكباً حصانه ، ملوحاً بأوراقه راحلاً مع بعض أبيات شعره المتضمنة أيضاً كلاماً عريضاً مثل «صاحب» — قل له ياصاحب — Díjele yo: mi sāhib،

ثم يروى في أشعار رقيقة قصة الشاعر الرمادي الذي التقى بحسنه بالقرب من قطرة قرطبة وحاول متابعتها ، والخشية والحياء المذار دفعاً بالفتاة أن ترجوه أن يتبعها ، على أن تظهر له كل يوم جمعة في نفس المكان .

أما لوحة ابن زيدون فهي مستمدّة من رسومات مدينة الزهراء وتبعها قصيدة غنائية تناهى قرطبة ، ذات الصباح المشرق ، والليل الساكن ، والندى الخفيف يملأ البساتين ...

وينادى المدينة العريقة به على بعد

مضي زمان مجدهك
وعفت اليالي على آثارك
لKennak من حين إلى حين
ترسلين نسمة خفيفة

حيثما يسكن الليل
ويسترشد المسافر بالنجوم
ويجذب الشوق والحب
تحيّا قرطبة .

وعن ولادة بنت المستكفي بالله ، يصبح في عبارات رقيقة قوله :

أنا والله أصلح للمعالي وامشي مشيتي وأتى به تهـا
وأمـكن عـاشـقـ منـ حـنـ خـدىـ وـامـنـجـ قـبـلـتـيـ منـ يـشـهـيـهاـ
أـمـاـ لـوـحـةـ المـعـتمـدـ بـنـ عـبـادـ ، فـهـىـ أـكـثـرـ تـبـيـرـيـةـ ، مـعـ الرـمـيـكـيـةـ وـعـدـدـ مـنـ
الـقصـائـدـ تـشـابـهـ فـيـ وـقـعـهـاـ وـنـظـمـهـاـ «ـمـلـحـمـةـ السـيـدـ»ـ .

وهـنـاكـ أـيـضـاـ اـبـنـ عـمـارـ وـابـنـ قـزـمانـ ، وـابـنـ الـخـطـيـبـ ، وـعـائـشـةـ الـحـرـةـ حـينـ
تـرـجـرـ اـبـنـهـاـ — مـلـكـ غـرـنـاطـةـ — عـبـدـ اللهـ :

أـبـكـ كـالـنـسـاءـ مـلـكـاـ لـمـ تـدـافـعـ عـنـهـ كـالـرـجـالـ

وـلـاـ يـقـتـصـرـ الـدـيـوـانـ عـلـىـ شـعـرـاءـ الـعـصـورـ الـوـسـطـيـ لـكـنـهـ يـتـنـاـولـ أـيـضـاـ الشـاعـرـ
المـصـرـىـ الشـهـيرـ ، أـحـمـدـ شـوـقـ ، وـبعـضـ الشـعـرـاءـ الـإـسـبـانـ ، وـمـقـطـوـعـاتـ مـتـبـاـيـنةـ
مـنـ هـنـاـ وـمـنـ هـنـاكـ .

وـيـخـتـمـ الـدـيـوـانـ بـالـتـعرـيفـ بـكـلـ شـاعـرـ مـنـ الشـعـرـاءـ الـذـينـ اـسـتـلـهـمـ شـعـرـهـمـ فـيـ
هـذـهـ الـقـصـائـدـ الـقـصـيـرـةـ .

وـهـذـاـ الـكـتـابـ لـيـسـ أـوـلـ الـأـعـمـالـ الـأـدـبـيـةـ لـالـشـاعـرـ الـدـيـلـوـمـاسـيـ ، وـإـنـماـ سـبـقـ
لـهـ أـصـدـرـ عـدـدـ دـوـاـيـنـ مـنـهـاـ :

أـغـنـيـاتـ مـشـرـقـيـةـ ١٩٧٧ Cantigas orientales:

أـغـنـيـاتـ شـعـبـيـةـ ١٩٧٩ Coplas vulgares:

خـرـجـاتـ جـدـيـدةـ ١٩٨١ Nuevas Jarchas:

وـذـلـكـ إـلـىـ جـانـبـ عـدـدـ مـاـ حـاضـرـاتـ عـنـ الـعـلـاقـاتـ الـثـقـافـيـةـ بـيـنـ إـسـبـانـيـاـ
وـالـعـالـمـ الـعـرـبـيـ .

التوابع والزوابع لابن شهيد

ترجمة وتعليق : سلفادور باريرا

تقديم : فيدريكو كورينيتي

Santander ١٩٨١

سلفادور باريرا ، دبلوماسي ، متخصص جذبه الحضارة العربية والإسلامية إلى الاقتراب من ميدانها ، فدرس اللغة العربية في القاهرة وتونس وفي جامعة الملك محمد الخامس بالرباط ، وأحله هذا مكاناً بين الإسبان المتخصصين في الدراسات العربية والإسلامية ، وهو بشبابه وسعة اطلاعه وثقافته يمثل أملاً ينمو مع الأجيال الجديدة من المتخصصين في اللغة العربية ودراساتها ، وتتوقع على أيديهم مزيداً من التقارب والتلاحم مع شباب المتخصصين في نفس المجال من الباحثين العرب والمسامين .

ويقدم لنا — سلفادور — أو يقدم إلى القارئ الإسباني أول ترجمة كاملة باللغة الإسبانية لما وصل إلى أيدينا من ذلك النص الأدبي الخالد الذي صاغه ابن شهيد في النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى ، أقصد بذلك رسالة التوابع والزوابع .

وقدم للعمل الأستاذ الدكتور فيدريكو كورينيتي أستاذ اللغة العربية بجامعة سرقسطة ، مما يعطي للقارئ فكرة عن أهمية العمل واستحقاقه التقدير من أحد كبار المتخصصين الإسبان في اللغة العربية .

ولم يكتف الأستاذ — سلفادور — بالترجمة ، وهى في حد ذاتها طرحة شاقة وقاسية ، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار عمق النص ، موضع الترجمة ، سواء من ناحية الضمون أو الشكل ، وإنما قدم له بدراسة مستوعبة ، وعمل على تناول فيه تقديم صورة أمينة للقارئ الإسباني ، عن المؤثرات التي أحاطت بابن شهيد صاحب العمل ، سواء أكانت هذه المؤثرات عائلية أو اجتماعية أو سياسية .

تناول بالدراسة أسرة ابن شهيد منذ قيامها ضد الأمويين في مرج راهط ، وتأييدها للأمويين منذ ذلك الحين حتى وصول جده إلى منصب « ذى الوزارتين »

في عهد عبد الرحمن الناصر ، إلى أن يصل إلى مكانة ابن شهيد على عهد المنصور بن أبي عامر وأبنائه .

وقدم — المترجم — عرضاً موجزاً وأميناً لكل الأحداث التي غمرت قرطبة في أيام الفتنة . وتعسك ابن شهيد بالمدينة ، وصداقه ، وعدواه ، مبرزاً ذلك كله في إطار من المؤشرات الأخلاقية والحلقية التي اتسم بها ابن شهيد ، إلى أن يصل إلى نهاية أيام الأديب القرطبي ومرضه ثم وفاته في عام ٤٢٦ هـ ١٠٣٥ م مشيناً بالأسى من مواطنى المدينة وأصدقائه ، وقيام ابن جوهر حاكماً قرطبة بالصلوة عليه .

ويتناول المترجم في هذه الدراسة دوافع ابن شهيد لكتابته هذه الرسالة ، ومكانتها من الناحية الأدبية ، وتأثيرها المحتمل في رسالة الففران للمعرى وانتقال هذا التأثير بعد ذلك إلى دانتي كما أثبتت أسين بلاسيوس .

ولم ينس الإشارة إلى المصادر التي حملت إلينا هذه الرسالة الأدبية العظيمة ، وفصولها التي قام بترجمتها وتبدأ بالرسالة التي وجهها إلى أبي بكر ولقاءه مع جنى زهير ، ثم قيامه بالرحلة إلى عالم الأموات ليلتقي بأكابر الشعراء والكتاب على مدار التاريخ العربي حتى أيامه ليസجلهم شعراً بشعر ونثراً بنثر ، وينتصر عليهم باستمرار ، مبرزاً ملكانه الأدبية ، ومنتقداً في ذلك الوقت أعداءه من أدباء قرطبة وشعرائها ،

ويوجه المترجم اهتماماً خاصاً إلى دراسة الأفكار الجمالية في أعمال ابن شهيد ويرى فيها تحليلاً للنواحي الجمالية التي تكشف عن التذوق الثقافي في إحدى فترات الحضارة الأندلسية ، ثم يمضي محلاً آراء ابن شهيد مستنبطاً منها النواحي الشيرة للاهتمام في أدبه الخالد ، وكيفية تعامله مع المشكلات مستدلاً على ذلك بآراء بعض المعاصرين لابن شهيد ، ومستشهدًا بفقرات من أعماله .

ثم ينتقل إلى محتوى الرسالة مقدماً في أسلوب أدبي أيضاً ، وبلغة إسبانية منتقاة وألفاظ مختارة نصاً إسبانياً ، يمكن أن تختلف معه في ترجمة بعض الكلمات أو الأفكار ، ولكن لا مجال للشك في أنه كان صادقاً مع النص وحاول جهده أن يقدمه في أحسن صورة ممكنة .

رومنشيات الحدود

دكتور أسعد شريف عمر

المعهد المصري للدراسات الإسلامية بجامعة عين شمس ١٩٨٢ م

في كتيب صغير لا يتجاوز الأربعين صفحة ، يقدم المؤلف عرضاً مركزاً وواخحاً لأنشيد الحدود الرومانية ، بدأه بإبراز دور التعايش والتصارع بين المسلمين والمسيحيين على مدى عدة قرون في العصور الوسطى ، ثم انتقل إلى التقسيمات التي يقوم بها مؤرخو الأدب الإسباني لهذا النوع من الأنشيد سواء على أساس تاريخي أو موضوعي مركزاً على آراء العالمة الإسبانية مينديث بيدال Menéndez Pidal.

ويعرض الدكتور أسعد لكل أنشودة على حدة مبيناً أهميتها والظروف التي أحاطت بها وتطورها من مقطوعات شعرية على السنة «المداحين» وانتقاها إلى السنة العامة ثم تسجيلها بعد ذلك في دواوين شعرية ، مبيناً الفرق بين أنشيد الحدود وأنشيد الموريكية من ناحية المضمون والمحظى التاريخي وما بها من خيال وعاطفة .

وأهم الأنشيد التي يضمها الدكتور أسعد كتبه هذا هي أنشودة حصار Baeza حيث يعتبر أقدم هذه الأنشيد من الناحية التاريخية ، ويرجع إلى عام ١٣٦٨ . وأنشودة حصار Baza ، أنشودة خروج الملك الصغير «أبو عبد الله» وال حاجب رضوان لاسترداد جيان ، وأنشودة الملك دون خوان في مواجهة غرناطة .

وتحتمم الدكتور أسعد بحثه بتقديم قائمة بأسماء أهم أنشيد الحدود غير التي ورد ذكرها داخل النص تتضمن اثنى عشر نشيداً بالإضافة إلى قائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمد عليها في الدراسة .

ابن بطوطة بالاسبانية

ترجمة الدكتور صيرافين فانخنول وفيدريكو آربومسي
القومية للنشر بعريف ١٩٨١

تعتبر الرحلة التي قام بها أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم ابن محمد بن ابراهيم بن يوسف بن اللواني الطنجي المعروف بابن بطوطة واحدة من أبرز تراث المصادر الوسطى في مجال أدب الرحلات . قام ابن بطوطة برحلته – في القرن الرابع عشر – ليطوف في جميع أنحاء العالم الإسلامي المعروف على وقته واستغرق في تطوافه هذا ثلاثة وعشرين عاما ، وبعد عودته عمد إلى تسجيلها بناء على طلب السلطان المريني في فاس .

وليس المجال هنا الحديث عن أهمية هذه الرحلة باعتبارها شهادة على عصره في مجالات الحياة الإسلامية ، وما كان يعتمل فيها من انسجام وتفاهم أحيانا ، وصراع وحروب مستمرة في أحيانا أخرى ، ولكن الاشارة هنا بتلك المهمة الصعبية والمسؤولية الكبرى التي تصدى لها الدكتور صيرافين فانخنول ، وفيدريكو آربومسي لنقل هذا النص التاريخي والأدبي إلى اللغة الإسبانية لأول مرة . وإذا كانت هذه طريحة شاقة حقا ، الا أن الأستاذين المترجمين لم يكتفيا بها فقط ، وإنما قدما لعملهما بدراسة تاريخية وأدبية ، دراسة نقدية وتحليلية في حوالي تسعين صفحة ، تعد في ذاتها مجهوداً ممتازاً وعرضها شيئاً ييزز قيمة هذه الرحلة في جوانبها التاريخية والأدبية والجمالية ، ويقارنها برحلة ماركو بولو ، ويضعها بالنسبة لهذه في مرتبة أفضل .

وتشمل دراسة المترجمين في بدايتها تعريفاً بالرحلة ابن بطوطة الذي ولد في السابع عشر من شهر رجب عام ٧٠٣ هـ وتوفي في المغرب عام ٧٧٠ هـ على ما تقول إحدى الروايات أو في ٧٧٩ هـ كما تقول أخرى .

ويسرد المترجمان تفصيلاً عن حياة ابن بطوطة وما يمترض هذه الحياة من أحداث تاريخية كبيرة ، ثم ينتقلان للحديث عن الرحلة ذاتها فيعبران عن ذهشتها لامكان المسافر المسلم في هذه الفترة من القيام برحلات طويلة ، تتمتد

لأعوام جمة — دون الاعتماد على مصادر اقتصادية ثابتة ومحددة ، وما تحتويه هذه الرحلة — رحلة ابن بطوطة — من أهمية خاصة جعلها موضوع اهتمام الدراسات الحديثة في المجالات التاريخية والأدبية .

يتناول المترجمان بعد ذلك أهم العناصر الأدبية التي تحتويها الرحلة وخاصة الأسلوب الرفيع الذي صاغها فيه ابن الجوزية ، المهاجر الغرناطي الذي ساعد ابن بطوطة في تدوين رحلته .

ويعرض المترجمان للنقاط الهامة في الرحلة والنقاط الشيرة للجدل ويعتبر هذا واحداً من أهم فصول الدراسة حيث يستعرضان — مع خطوات ابن بطوطة — ما يراه في المدن الرئيسية التي يمر بها ، والأحداث الكبرى التي يعاصرها إلى أن يصل إلى الحديث عن المشكلات التي تتجلّى في تعارض التواريχ المذكورة في الرحلة .

ويزود المترجمان كتابهما بجموعة من الخرائط عن خطوات ابن بطوطة والمدن والأقاليم التي زارها ، بالإضافة إلى مقدمة ، وقائمة بالمراجع وتحتل العمل كلها حوالي ثمانمائة صفحة من الحجم الصغير ، لكنها دقيقة الخط ، حتى يمكن ضغط حجمها ما أمكن .

الحضارة العربية في الأندلس

العلامة الفرنسي ليون بروفنسال
ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي
دار المعارف ١٩٧٩ م

يقدم الدكتور الطاهر مكي بعمله هذا خدمة جليلة لقراء العربية الذين لا يتاح لهم فرصة القراءة باللغات الأجنبية ، حين يترجم إلى لغتنا القومية ، تلك الحاضرات القيمة التي ألقاها المستشرق الفرنسي ليون بروفنسال في كلية الآداب بالجامعة المصرية عام ١٩٣٨ م ، وقد ألقاها هذه الحاضرات باللغة الفرنسية ، وطبعت عدة مرات بهذه اللغة ثم ترجمت إلى الإسبانية ونشرت في مدريد أكثر من مرة ، وهذه هي المرة الأولى التي تصاغ فيها بلغة الضاد ، وإن كانت الحاضرة المعروفة

«المشرق الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية» قد سبق لها أن عرفت الطريق إلى هذه اللغة ، حين نشرها في عام ١٩٥١ م ، معهد الجزائر فرانكوا للأبحاث العربية — الإسبانية مع اختلاف بين في النص بين الترجمتين العربيتين . لأن ترجمة معهد تطوان المذكور إنما هي ترجمة مقتضبة جداً ، مما يوحى بأن المؤلف ، ربما كان قدر عرض نفس الموضوع في المغرب بصورة مختصرة ، أو أن الناشرين قد عمدوا إلى اختصار النص الأصلي .

الغرب الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية :

يتناول ليق بروفسال في هذه المخاضة ، تعريف الغرب الإسلامي من الناحية الجغرافية وكيف أنه يضم المناطق الواقعة إلى الغرب من البلاد المصرية مشتملاً كذلك على شبه الجزيرة العربية ، والأراء الأخرى المعاصرة لهذا التصور .

ويتحدث بعد ذلك عن العناصر البشرية التي انتقلت إلى الأندلس ، والأوضاع الاجتماعية بكل عنصر منها ، ثم أهم الأحداث في الأندلس حتى وصول عبد الرحمن الداخل ، وتأثير ذلك على الأوضاع القائمة في الأندلس ، وكذلك وصول ادريس ابن عبد الله إلى أقصى الشمال الأفريقي ، وأثر ذلك على مجريات الأمور هناك .

ويواصل المؤلف بعد ذلك حديثه عن عصر الامارة ، حتى يصل إلى قسمى عبد الرحمن الناصر بـ^ألقاب الخليفة ، واستقرار الأندلس وتطور البلاد حضارياً إلى درجة سامية ، وماذا حدث بهذه بعد موت الحاكم المستنصر والمنصور بن أبي عامر .

يركز المؤلف حديثه بعد ذلك على حركة الاسترداد ربطوها إلى أن يصل إلى الملك الفونسو السادس ، وسقوط طليطلة ، ودخول المرابطين إلى الأندلس ، وهنا يعمد إلى المقارنة بين الفترات التي كانت فيها السيادة للأندلس على الشمال الأفريقي ، وببداية عهد جديد تنتقل السيادة فيه إلى الشمال الأفريقي حيث ينبع نفوذه على الأندلس ، حتى يصل إلى أن يقدم موجزاً تاريخياً يتناول فيه امتداد حركة الاسترداد بعد معركة العقاب الكبير ، وسقوط أهم القواعد الأندلسية

حتى نهاية التاريخ الإسلامي على الأرض الإسبانية بسقوط غرناطة عام ١٤٩٢ أمام قوات الملكين الكاثوليكيين فرناندو وايزابيل .

ينتقل ليق بروفنسال بعد ذلك إلى الحديث عن الحياة الثقافية في الأندلس ، وخاصة آداب الطبقة العليا هناك ، وما كان يعتمل في الثقافة الأندلسية من حوار يرتفع أحياناً إلى درجة الصراع بين المعاشر الجنسية المتباينة من عرب وبربر وعجم واسبان .

ويختتم الكاتب بعد ذلك يعدد مدننا إسبانية كثيرة أصبحت مع القرن الحادى عشر مراكزاً للثقافة ، فيذكر أشبيلية ، وجيان ، وغرناطة ، ومالقة ، وألمرية ، ومرسية ، وبلنسية وغيرها .

المشرق الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية :

يتحدث الكاتب في هذه الم hacra عن اهتمام الشرقيين بالأندلس ، وكيف أنهم أعطوا هذه البلاد اهتماماً خاصاً في كتاباتهم الجغرافية والتاريخية مفصلاً انتقال المؤثرات الشرقية إلى هناك ، وأماكن استقرار جند الشام الذين وصلوا إلى هناك مع بلج القشيري .

ينتقل المؤلف بعد ذلك للحديث عن اهتمام عبد الرحمن الداخل ببناء الدولة وأطوارها الاجتماعية على نفس النطس السوري خلال حكم الأمويين في دمشق ، وكيف تدعم هذا الانجها خلال حكم الأسرة الأموية في قرطبة .

أما عن الجانب الثقافي ، فيبين المؤثرات العباسية التي وصلت إلى الأندلس ، ومتمازجها مع الثقافة العربية الإسبانية ، ومما زاحتها للنفوذ الثقافي السوري مستعرضاً فترات حكم الأمراء الأمويين ، والسمات المميزة لكل فترة ، وخاصة عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط ، واهتمامه بتجميل مدينة قرطبة ، ووصول زریاب وبداية التغير الاجتماعي في الأندلس ، علاوة على بروز الوحدة السياسية والدينية للأندلس حين اخضعت المالكية مذهبها رسمياً ، ومن ثم يصل المؤلف إلى استعراض المؤثرات الأدبية ، والنحو الاقتصادي ، وعلاقة ذلك كلها بالبلاد الشرقية .

اسبانيا المسيحية والحضارة العربية الإسلامية :

يشير المؤلف في هذا المجال إلى السيطرة الرومانية السابقة على حوض البحر المتوسط ، ثم حرمان أوروبا من هذه الميزة بظهور الإسلام ، وبداية التداخل بين الإسلام والمسيحية وخاصة على الأرض الإسبانية . ويؤكد المؤلف ، أن الأندلس ، حتى في اللحظات التي حمل فيها السلاح ، وبلغ من القوة جدا لا يقهر ، قد أعطى سيخاء أكثر مما تلقى ، وبرهن دائماً على روحه المتساحة فيما يتصل برعاياه المسيحيين ، وهو ملا يجرؤ أحد على إنكاره اليوم أو الشك في صحته .

ينتقل المؤلف ، بعد ذلك ، إلى تناول أوضاع المستعمرتين ، وكيف أتيح لهم أن يكونوا جاليات كبرى لها كنائسها وأديرتها ولم يقضوا عليهم يطبقون عليهم الشائع القوطية ، واقرار أمراء الأندلس لانتخابات الرؤساء الدينيين المسيحيين ، والاستعانة بهم في قضاء بعض المهام الكبرى . وبذلك أتيحت الفرصة لهذه الجاليات للاندماج في الحضارة العربية لغة وملبسًا وعادة ... الخ.

ويركز المؤلف في محاضرته على التبادل الثقافي بين الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس وما جاورها من البلاد الأوروبية ، ومن ذلك مثلاً تغلغل الرومانية بين عرب الأندلس ، ودور العربية في تكوين لغات شبه الجزيرة الإيبيرية ، وما تركته في هذه اللغات من مفردات ما زالت مستعملة إلى اليوم .

وتختتم هذه المحاضرة ببعض المظاهر الثقافية ، والفنية ، والمعمارية مؤكداً أن محاولة الدراسة المستوعبة لكم وكيفية التأثير والتاثير بين الحضارتين تعد ضربا من المغامرة غير المحسوبة .

وإلى جانب هذه المحاضرات الثلاث ، ألحق الدكتور الطاهر مكي بالكتاب فصلاً من المذهب المالكي في الأندلس ، واسهامات المذاهب الأخرى هناك .

هذا وقد أصدر الدكتور الطاهر أحمد مكي عدة كتب أخرى منها : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحماة . والفن العربي في صقلية . وصدرها عن دار المعارف .

تاريخ مدينة ألمرية الأندلسية

في العصر الإسلامي

منذ إنشائها حتى استيلاء المرابطين عليها

٣٤٤ - ٩٥٥ هـ / ١٠٩١ م

تأليف الدكتور محمد أحمد أبو الفضل تقديم الدكتور السيد عبد العزيز سالم
المطبعة العامة للكتاب بالاسكندرية ١٩٨١ م — عدد الصفحات ٢٩٩ من الحجم المتوسط

تابع الدكتور محمد أبو الفضل بكتابه هذا . تياراً قدماً ومحظياً ، يتناول بالتأريخ مناطق معينة أو مدننا محددة ، وهو تيار أنساب في شرق العالم الإسلامي ومغربه ، سواء في عصوره الوسطى أو المحدثة . وذلك أمر تفخر به الدراسات التاريخية العربية حين توجه جهودها — بالإضافة إلى الدراسات العامة — إلى استكشاف تلك الزوايا المنعزلة من تاريخنا العام ، والتي كان لها أهميتها ودورها في صناعة ذلك التاريخ .

و تاريخ مدينة ألمرية الإسلامي يمثل نموذجاً جيداً من هذه الدراسات التي تحاول أن تبرز جهود أبناء منطقة معينة ودورهم خلال حقبة من حقب التاريخ العام للوطن الأم ، وحتى يمكن له أن يقدم للقاريء فكرة إجمالية — لأن دراسة تاريخ أية مدينة أو منطقة تحتاج إلى جهود جماعية حتى يمكن استيعابها استيعاباً كاملاً — فإنه قسم كتابه إلى قسمين رئيسيين .

١ - القسم السياسي ، وهو دوره يتوزع على ثلاثة فصول يتناول فيها تأسيس المدينة على عهد الخليفة عبد الرحمن الثالث في عام ٩٥٥ هـ / ٣٤٤ م لتكون مرقباً للساحل الجنوبي الشرقي للأندلس ، وقاعدة بحرية رئيسية للأسطول الأموي ، واختار لها موقعاً جغرافياً هاماً تطل منه على خليج يربطها بالبحر المتوسط ، وتحيط بها بعض الجبال العالمية التي جعلها من الرياح ، علاوة على أن مناخها المعتدل الجاف ، قد ساعد على حركة النشاط التجاري بها ، وكثرة عمرانها .
وفي هذا الفصل أيضاً يقارن بين مدينة ألمرية ومدينة بجاية ويعرض للسياسة البحرية للدولة الأموية في الأندلس ، واهتمام عبد الرحمن الثالث بتنظيم قوة

الأندلس البحريّة ودور المرية في هذا المجال ، وهو دور استحق أن يكرس له الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم كتاباً خاصاً عن «المرية قاعدة الأسطول الإسلامي في الأندلس» .

وفي الفصل الثاني تناول الدكتور أبو الفضل التقسيمات الإدارية لمنطقة الاميرية ، وحكام المدينة ، ثم بداية قيام هذه المدينة بدور هام في الصراع السياسي الذي أعقب سقوط الخلافة الأموية ، وقيام ممالك الطوائف .

أما الفصل الثالث ، فلقد تناول المدينة في ظل بني صهادح وازدهار المدينة في عهدهم ، وخاصة في نهضتها العمرانية سواء في مجال بناء القصور والمتزهات أو في مجال النشأت ، الدينية ، واستكمال المرافق العامة لهذه النشأت ، وأنه على الرغم من صغر حجم هذه المملكة على عهد المعتصم الصهادحي إلا أنها شهدت كما يقول الفتح بن خاقان غلوأ في التأثير العماري واسرافا في الأبهة والترف .

بعد ذلك يتناول المؤلف الأوضاع السياسية للمدينة قبل دخول المرابطين، معطياً صورة عن الانهيار الذي أصاب الأندلس عامّة وازدياد أخطار حركة الاسترداد المسيحي على عهد الملك القشتالي ألفونسو السادس ، مما أدى إلى استدعاء المرابطين إلى الأندلس وقيام يوسف بن تاشفين – في مرحلة لاحقة – بالاستيلاء على ممالك الطوائف ، وضمهما إلى إمبراطورية المرابطين ، وكيف أن أمرية حوصلت من البر والبحر ، ووفاة العتّصم أثناء الحصار ، وهرب ابنه معز الدولة إلى الجزائر ، ودخول المرابطين المدينة في سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م .

أما القسم الثاني من الكتاب ، فقد تناول فيه المؤلف ، المظاهر الحضارية للمدينة ، فتكلم عن تحنيطها ، وأسوارها ، وأرباضها والتغيرات التي طرأت على هذه الخطط مع تداول الأعوام والقرون ، مشيراً إلى أهم الآثار الباقية في المدينة سواء الحربية منها أو المدينة مثل سور المدينة وأبوابها ، وأهم هذه الأبواب ، ويركز على القصور التي وجدت بالمدينة مثل قصر الصادحية ، إلى أن يصل إلى آثارها الدينية ومسجدها الجامع .

أما عن الحياة الاقتصادية ، فإنه يتناول الزراعة والحاصلات الزراعية للإقليم ، وشهر هذه المنطقة بالبساتين والمدائق ، ولم ينسى الاشارة إلى الفنون الصناعية ، مثل صناعة النسيج التي اشتهرت بها ألميرية اشتهرًا كبيراً ، وصناعة السفن بها أمر طبيعي فهي مقر الأسطول ، وكذلك تميز المدينة بفن النحت على الرخام .

وموقع مدينة ألميرية يساعدها على قيام نشاط تجاري هام مع مدن وموانئ البحر المتوسط ، فقال عنها ابن غالب : « هي باب الشرق ومفتاح التجارة والرزق » ، ويكرر ابن سعيد ذلك .

ويختتم المؤلف كتابه بالحديث عن النهضة العلمية في المدينة ، فيتناول الحركة الأدبية واللغوية ، وازدهار الشعر والنشر ، وكثرة الأدباء مما يتجلّى في ذلك الکم الهائل من القصائد التي قيلت عن بنى صمادح أو في وصف المدينة ذاتها . وكيف أنها كانت مهبطاً كثيراً من أدباء الأندلس وملادهم ، وخاصة في عهد الفتنة والأضطرابات ، ولم تعد المدينة شاعرات مجيدات مثل الغسانية البجانية ، وزينب ألميرية ، وغاية النى ، وأم الكرام الصمادحية .

وما من شك في ازدهار العلوم الدينية في ألميرية مثلها في ذلك مثل باقي بلاد الأندلس عامة ، كما كانت المدينة موطنًا لعدد من جغرافي الأندلس ومؤرخيه مثل العذرى الذى ولد بها سنة ٣٩٣ هـ ١٠٠٢ م ، وتوفى بالمدينة سنة ٤٧٨ هـ ١٠٨٥ م .

هذا ولقد زود الدكتور أبو الفضل بحثه بدراسة عن أهم المصادر التاريخية التي اعتمد عليها في دراسته ، وخاتمة بالنتائج التي توصل إليها ، وقائمة بالمراجع والأبحاث التي يمكن الرجوع إليها .

تاريخ التعليم في الأندلس

إعداد الدكتور محمد عبد الحميد عيسى
تقديم الدكتور عبد الغنى عبود
دار الفكر العربى — القاهرة ١٩٨٢ م عدد الصفحات ٥٢٣ من الحجم الكبير

الكتاب هو النص العربي لرسالة الدكتوراه التي نوقشت بالإسبانية في جامعة الأوتونوما ب مدريد عام ١٩٨٠ م ، مع بعض التعديلات في ترتيب الفصول ، وحذف بعض الملاحق التي لا تشكل إعاقه في تتبع مجرى الموضوع ، وتخفف قليلاً من أعباء تضخم عدد الصفحات .

وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أبواب وثانية فصول ، في الباب الأول الذي يضم الفصول الثلاثة الأولى يتناول دور الدولة في الأندلس في العملية التعليمية منذ بداية الفتح إلى سقوط غرناطة ، حيث يدرسها مرحلة بعد أخرى ، مختتماً ببعض مظاهر تدخل الدولة في التعليم وفي هذا الباب يتضح اهتمام حكام الأندلس بالنهضة الثقافية ، ومن ثم بالحركة التعليمية ، وتمثل هذا الاهتمام في جلب العلمين الشرقيين ، والعلماء والشعراء إلى الأندلس والاهتمام بوصول النتاج الثقافي الشرقي إلى بلادهم ، هذا علاوة على تشجيعهم للحركة الأدبية مالياً وأدبياً مما دفع بالحضارة الأندلسية إلى قمة لمعانها وازدهارها .

أما الباب الثاني بفصوله من الرابع إلى السادس فيتعرض للمراحل التعليمية في الأندلس ، ويدرس دور المنزل والمكتب والمكتبة في تربية الطفل الأندلسي ، والاختلاف بين الأندلسين ، وغيرهم في أقطار العالم الإسلامي الأخرى فيما يقدم للأطفال من دراسات لنوية ودينية ، ومن ذلك يتضح قيام التربية الأندلسية في الصغر على قاعدتين هامتين هما :

- ١ - أن يعرف الطفل معرفة عميقه أمور دينه .
- ٢ - أن يعرف الطفل لغته معرفة سليمة .

وبعد هاتين القاعدتين ، فإنه ينطلق بعد ذلك إلى التخصص الذي يرغبه ، ولهذا وجد الطبيب الفقيه والفيلسوف الشاعر والزراعي الأديب .

وينتقل الكتاب بعد ذلك إلى تبيان ما يدرس الطالب الأندلسي في مرحلة عمره المتوسطة ، والعلوم المتاحة أمامه وقد قسمت إلى مجالات ثلاثة رئيسية وهي : الدراسات الدينية والدراسات اللغوية والأدبية ، والدراسات العلمية .

وفي الفصل السادس من الكتاب يتناول أهم قضايا التعليم في الأندلس ، وهي ظهور المدرسة ، ويدرس المدارس المختملة والمدارس المؤكدة مركباً على مدرسة غرناطة التي أنشأها يوسف الأول أمير غرناطة وكذلك الرحلات التي كان يختتم بها النشاط التعليمي ، ثم الإجازات التي كان يحصل عليها الأندلسيون من أسانتهم سواء من الأندلس أو من البلاد الشرقية .

والباب الثالث من الكتاب يتناول التعليم الخاص ، اهتمام الخاصة بالتعليم ، وتعليم أبناء الخاصة ، وأماكن هذا التعليم والمؤدبون ، والمنهج التعليمي .

وقدم للكتاب الأستاذ الدكتور عبد الغنى عبود أستاذ التربية المقارنة بتربيته عين شمس ، والشرف على اصدار سلسلة «مكتبة التربية الإسلامية» في حوالي ٤٣ صفحة .

واشتمل الكتاب ، إلى جانب هذا كله على المقدمة ، وتحميدة جغرافياً ، علاوة على ثمانية ملاحق ، ومراجعة الكتاب ومصادره سواء العربية منها أو الأجنبية .